سنوات و ذكريات

سيرة ذاتية



د. أحمد هيكل

الهيئة المصرية العامة للكتاب

سنوات وذكريات

سيرة ذاتية

سنوات وذكريات

سيرة ذاتية

بقلم

الدكتور أحمد هيكل



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الإخراج الفنى : سعيـد المسيـرى

الإهداء

إلى الأجيال الجديدة المأمولة من أبناء مصر الحبيبة.

إلى الذين تمتلئ قلوبهم بالآمال الكبار لهم ولوطنهم.

إلى الذين تعترض طريقهم عوائق ليست من صنعهم.

إلى الذين لا يقنعون بالهيّن الميسور من غاياتهم.

إلى الذين يدفعهم الإيمان والصبر والكفاح إلى تحقيق أحلامهم.

د. أحمد هيكل

مقدمــة

لا أحاول فى هذه الفصول أن أسجل تاريخا، فليست لدى وثائق أسجل منها هذا التاريخ.. كما لا أحاول أن أقص سيرة ذتية تبهر القراء بحديث عن بطل متميز أو واحد من العظماء، فلست أرى فى ذاتى بطولة، ولا أدعى لشخصى تميزا عن أبناء طبقتى البسطاء.. وكل ما أحاوله فى هذا العمل، هو أن أستعيد ما بقى من مواقف وصور رسمتها على صفحات العمر السنوات، وأن أسجل ـ بكل الصدق ـ تلك المواقف والصور والذكريات. فلعل فى تسجيلها ما يقدم تجربة واحد من جيل سابق، يمكن أن ينتفع بها آخرون من جيل لاحق.. ولعل فى تسجيلها كذلك ما يكشف بعض جوانب الحياة المصرية العامة، من خلال الحديث عما أحاط بتلك الحياة الشخصية الخاصة. فقد شاء الله أن تمتد تلك الحياة الخاصة زمانا حتى تتجاوز السبعين من العمر، وأن تتسع مكانا حتى تتعدى مصر إلى عدد كبير من الأقطار خارج مصر... كما شاء الله أن تتنوع تلك الحياة ثقافة، فتنهل من الأزهر، ومن جامعة القاهرة، ومما تموج به مصر من حضارة الشرق، ثم تقبس من بعض الجامعات فى أوروبا وما تشع به من حضارة الغرب... كذلك شاء الله أن تتعدد مجالات العمل لهذه الحياة الخاصة، فتتنقل بين الأكاديمية والدبلوماسية والمسئولية الوزارية، بالإضافة إلى الأنشطة الأدبية والفكرية والثقافية.

فإنْ رأى القارئ فى هذه الفصول ما يرضيه، فأنا سعيد بأن قدمتُ عملا يبعث على الرضا. وإن رأى القارئ غير ذلك، فعذرى أنى ما قصدت إلا الخير، والله من وراء القصد...

القاهرة ـ شهر يوليو سنة ١٩٩٦م

المرحلة الأولى

الطفولة والنشأة

(١)

المولد والبيت وأقدم الذكريات :

في بيت بسيط بقسم الزقازيق البحرى قرب مسجد أبى الذهب، وفى أسرة عمادها رجل عصامى يعمل فى ميدان المقاولات، ثم يتجه إلى التجارة، وأصله من قرية «كفرهورين» التابعة لمديرية الغربية قديما، والمحافظة المنوفية حديثا، وبعد اثنين من الأبناء: أولهما ولد والثانية بنت، كنت الابن الثالث فى هذه الأسرة، حيث رأيت النور بهذا المنزل البسيط، يوم الرابع من شهر أبريل سنة ١٩٢٢ .. وهذا التاريخ هو الذى يقول به الأهل وتسجله شهادة الميلاد، فأنا لم أشهد بطبيعة الحال هذه البداية المبكرة بوعى يجعلنى أنقل من ذاكرتى..

وأول ما أذكر من صور طفولتى المبكرة، أنى كنت أسير وقد أمسك والدى بيدى ونحن نعود من المسجد صباحا، بعد صلاة أرجّح أنها كانت صلاة عيد، وسبب هذا الترجيح أننى مازِلت أذكر هيئة الناس من حولى وقد لبسوا ملابس جديدة، وأذكر كذلك أن أحد الذين صافحوا والدى، قد أنهضنى حين تعثرتُ فى مشيتى ووقعت على الأرض، ثم وضع فى يدى بعض النقود لا أذكر مقدارها الآن، ويغلب على ظنى أنها كانت قروشا، منحنى الرجل إياها، كما يفعل الأصدقاء مع أبناء الأصدقاء

فيما يسمى «عيديّة».. وقد عدتُ إلى البيت مبتهجا، وإن كنت بسبب العثرة قد استشعرت ألما لفترة.. ومازالت تلك الصورة أقدم ما رسب فى ذاكرتى من ذكريات الطفولة. وهى صورة تجمع بين نفحة المسجد، ورعاية الوالد ومودة الصديق، وألم العثرة، وفرحة العيد.. ومع الأيام أرى هذه الصورة تقفز كثيرا إلى ذاكرتى، وكأنها تريد أن تؤكد لى أن النشأة السوية تبدأ بالتديُّن، وأن التربية الصحيحة تعتمد أولا على الأسرة، وأن العلاقات الاجتماعية أساسها التعاطف والمودة، وأن الحياة فى مسيرتها قسمة بين الكبوات والنهضات، وبين المواجع والمباهج..

□□□

فى الكُتّاب ثم المدرسة الأولية :

ثم تلِي تلك الصورة صور أخرى، ومن أقدمها تلك الصورة التى التقيتُ فيها لأول مرة «بالكُتّاب»، حيث ذهب بى والدى إلى الشيخ على الجندى فى «كُتّابه» القريب من المنزل، ثم تركنى لآخذ مكانى من قِمَطْر يشاركنى فيه طفل ثان، فلم يكن «الكُتّاب» مثل كتاتيب الريف التى يجلس التلاميذ فيها على حصير مبسوط على الأرض، وإنما كان «كُتاب» الشيخ على الجندى أشبه بمدرسة أهلية صغيرة بسيطة.. وفى هذا «الكُتّاب» تعلمتُ بعض مبادىء القراءة والكتابة، وحفظت بعض السور القصار من القرآن الكريم... ومما أذكره عن هذا الكتاب أن صاحبه كان يخرج بنا نحن التلاميذ الصغار قبيل العيد وينظمنا صفا أو صفين، وقد ارتدينا الثياب الجديدة، ثم يطوف بنا على بيوت أولياء الأمور أهل التلاميذ، ونحن ننشد أناشيد دينية بسيطة، تتخللها دعوات بطلب «العادة» من أجل «سيّدنا».. و «العادة» هى مِنَح مالية أو عينية يقدمها أهل التلاميذ إلى الشيخ، تحية له بمناسبة العيد، وإكراما له ليزيد من عنايته بالصغار.. وتختم المسيرة بمنح الشيخ كل تلميذ لوحة ورقية ملوّنة، مطبوعا عليها بعض آيات القرآن الكريم، أو مسجلا على صفحتها رسم للكعبة المشرفة، أو لمثوى النبى الطهور، أو مرسوما فوقها منظر متخيّل للذبيح وأبيه سيدنا ابراهيم عليهما السلام، وقد استسلم الذبيح لسكين الخليل.

فى حين يهبط من السماء مَلَك ذو جناحين ليفتدى سيدنا اسماعيل بكبش عظيم.. وكانت هذه اللوحات الورقية التى تُمنح للتلاميذ وتسمى «الزِّواء» يُتبرَّك بها وتُعلَّق فى منازل الآباء..

كذلك أذكر من صور هذه الطفولة المبكرة، صورة لقائى الأول فى مدرسة أهلية صغيرة أخرى ـ بعد أن انتقلنا إلى بيت آخر بقسم الصيادين على الضفة الأخرى لبحر مويس ـ وأبرز ما فى هذه الصورة الثانية، تلك المدرِّسة الجميلة ذات الشعر الفاحم الطويل المسترسِل، وقد أخذتنى من يد والدى، ورفعتنى عن الأرض، واحتضنتنى فى حنان ظللتُ أحسّ بدفئه لسنوات طوال..

□□□

وينتهى عهد «الكُتّاب» ـ أو المدرسة الأهلية الصغيرة ـ وأُلحق بمدرسة قسم الحكماء الأولية، بعد أن تنتقل إلى منزل فى هذا القسم أو الحى. وأظل بهذه المدرسة أربع سنوات أدرس مقررات تشبه مقررات مرحلة التعليم الابتدائى الآن. وأعرف فى هذه المدرسة مدرسين نالوا منى الإعجاب وظلتْ أسماؤهم محفورة فى ذاكرتى إلى اليوم. ومن هؤلاء سعد أفندى خليل، وعبدالله أفندى المسلمى، ومحمد أفندى ريّان، والشيخ عبدالوهاب الغندور ناظر المدرسة.. أما سعد أفندى فكان يهتم كثيرا بشئون التلاميذ ومستقبلهم، فلا يكتفى بتعليمهم، وإنما يشجعهم على مواصلة الدراسة فى مراحل تالية.. وأذكر أنه هو الذى كتب لى «استمارة» التقدم إلى المدرسة «التحضيرية»، التى كانت تُعدّ للالتحاق بمدرسة المعلمين.. وأما عبدالله أفندى فكان شابا مهذبا أنيقا عطوفا يتعطر بنوع متميز من الطيب.. وأما محمد أفندى، فقد لفت نظرى فيه أنه بدأ عمله فى المدرسة شيخا مُعَمَّماً، ثم جاء ذات يوم «أفنديا» «مطرَبَشاً»، وكان كثير الدعابة محبوبا، رغم ما كان يضايقنا منه من كثرة التدخين.. وأما الشيخ الغندور، فكان شيخا حازما وطيبا ومصقولا. وكان ابنه أحمد الغندور

يسبقنا فى سنوات الدراسة، كما كان يكبرنا ببضع سنوات، ولكنه كان صديقا لنا، ولذا دعانا ذات يوم لزيارته في قرْية «شِيبَة» ـ على مشارف الزقازيق ـ حيث احتفى بنا والده حضرة الناظر وأكرمنا، لأننا تلاميذه وضيوف ولده.

□□□

ولم يتيسر لى الالتحاق بالمدرسة «التحضرية» بعد إتمام الدراسة فى المدرسة الأولية، ولا أذكر الآن السبب، ولعله كان إغلاق باب الالتحاق بهذه المدرسة بعد أن حدث نوع من التغيير فى مناهج إعداد المعلمين والمدارس التى تُخرِّجهم. فاتجه التفكير إلى الالتحاق بمعهد الزقازيق الدينى.. وقد وجهنى إلى ذلك سعد أفندى خليل، وهو توجيه صادف ترحيبا من والدى الذى كان ذا نزعة دينية متمكنة، كما كان محبا للعلماء، دائم الإشادة ببعض من نبغ منهم من أبناء قريته الأصلية «كفر هورين».

□□□

فى مدرسة المحافظة على القرآن الكريم :

وكان القبول فى المعاهد الدينية الابتدائية لا يُكْتفَى فيه بإتمام المتقدم لمرحلة التعليم الأولى، بل كان لابد للمتقدم أن يكون حافظا للقرآن الكريم كله. وكان هذا الحفظ يحتاج إلى سنة على الأقل ـ بعد سنوات التعليم الأوليّ الأربع ـ فالتحقتُ بمدرسة «جمعية المحافظة على القرآن الكريم» بقسم النَّحال، وهى مدرسة غير حكومية، كانت تشغل الطابق الأرضىّ من بيت بجوار مسجد عبدالعزيز رضوان، أما الطابق العلوى فكانت تشغله أسرة رجل له هيئة الموظفين ذوى السلطة والنفوذ.. وفى هذه المدرسة أتقنتُ حفظ القرآن الكريم كله، وتمكنت أكثر من المواد التى كان يُمتَحن فيها من يتقدمون للالتحاق بالمعهد الدينى.. وقد بدأتْ المعاناة والشعور بجدية المسئولية فى التعلم منذ ألحقت بهذه المدرسة، حيث كانت تبعد كثيرا عن مسكن أسرتى؛ فالمسكن فى قسم الحكماء فى أحد طرفى الزقازيق، والمدرسة فى قسم النَّحَّال فى الطرف الآخر من المدينة، وبين القسمين مسافة كبيرة تحتاج إلى مسيرة تزيد على

الساعة، إذا كان السائر صبيا ويقطعها ذهابا وإيابا يوميا، وهو يحمل حقيبة قماشية تضم بعض الكتب والكراسات، كما تضم لوحا من الصفيح المصقول ودواة حِبْرٍ وقلماً يصلح للكتابة على لوح صفيح، وهذه الأخيرة هي أدوات كتابة المقرر اليومي، الواجب حفظه من القرآن الكريم، والذي يراجع ضبطه نطقا على ناظر المدرسة الشيخ عبدالحكيم حسن؛ أو على أحد مساعديه من المدرسين القرَّاء. كما كان يتم الامتحان في حفظ هذا المقرر بعد ذلك للتحقق من ثباته في الذاكرة.. وكان يعمل في هذه المدرسة إلى جانب ناظرها الشيخ عبدالكريم حسن ومساعديه من القراء المتمكنين، بعض المدرسين من «الأفندية»، الذين يدرِّسون الحساب والمعلومات العامة، وبعض أوليات اللغة العربية ومبادئ الدين.

□□□

ومن هذه المدرسة أذكر بكل الإجلال ناظرها الشيخ عبدالحكيم حسن، الذي كان من كبار المشهود لهم بإتقان أحكام التجويد والقراءات. وكان هذا الشيخ صديقا لوالدي المحب للعلماء ورجال القرآن الكريم؛ لذلك كان يخصني بعطف ويؤثرني بتقريب، كما كان يباهي بي وباجتهادي غيري من الزملاء، ويحفزهم بذلك على أداء واجبهم كما أؤدي. وكان هذا يعطيني ثقة ويدفعني أكثر إلى التفوق منذ هذه المرحلة المبكرة من مراحل التعليم.

□□□

على أنه حَدَث لي يوم ظهور النتيجة آخر العام حَدَثٌ ما أزال أذكره بكل التفاصيل وأرى أنه أثّر في نفسي ومسلكي بعدَ ذلك تأثيرا كبيرا. فقد ظهرت النتيجة وفيها أنني ناجح بل أحد الأوائل، فأخذت من الفرح أصيح مع زملائي الناجحين والمتفوقين، وأتبادل معهم ـ أمام باب المدرسة ـ المزاح الصبياني البريء. وبينما نحن في غمرةِ الفرحِ والمزاح والصياح، هبط هذا الرجل الذي يشغل الطابق الذي يعلو المدرسة وتطلّ شرفته على الفناء الذي كنا نجتمع فيه، وانهال علينا سبا وعلى من نالت يده ضربا، واستطاعت يده أن تنال أنفي بضربة أسالت دمي، فبكيت بعد أن

فَزِعتُ وشُدِهْتُ، واختلطتْ دماء أنفى بدموع عينى.. وانصرف التلاميذ حَزَانى فى مشهد يثير الأسى، وهُم الذين كانوا منذ قليل فى مهرجان يبعث على البهجة.. وعدتُ إلى بيتى بعد أن جففتُ دمعى، ومسحت ما سال من دمى، وسترتُ عن أسرتى ما حاق بى خشية أن أسبب مشادة بين أبى وهذا المعتدى، واكتفيتُ بأن أُفرحهم بنجاحى وتفوقى.. ومِن آثار هذا الحدث فى نفسى أنه جعلنى فيما بعد أتجنب ما يخوض فيه الصبية والشباب عادة من اللعب والصياح والمزاح. بل جعلنى هذا الحدث أخشى ـ لا شعوريا ـ أن يصيبنى مايحزننى كلما أصبتُ شيئا يفرحنى، وَعوَّدنى إذا ما ضحكتُ أن أقول ـ ولو فى نفسى ـ ما يقوله معظم المصريين الطيبين: «اللهم اجعله خيرا».

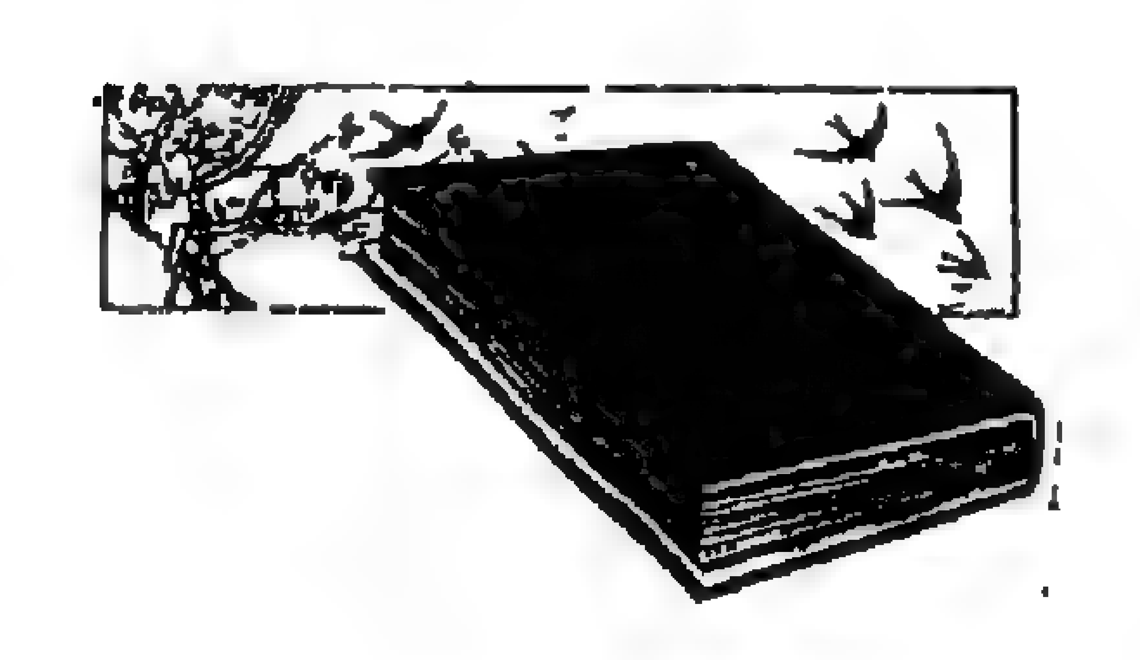
□□□

الأسرة ومسئولية ابنها الأكبر :

وفى هذه المرحلة من سنوات العمر كان أخى الأكبر «حلْمى» قد أتمّ فى تعليمه المرحلة الأولية، واتجه إلى العمل ليساعد والدى الكادح فى تَحَمُّل مسئوليات الأسرة، التى كانت قد نمت وثقل عبؤها على عائلها. فقد وُلد الابن الرابع وتابع مسيرتى فى التعليم، ثم وُلِدَتْ الأخت الأخرى التى هى الخامسة فى ترتيب الذرية، وتَبِعتْ المسيرة نفسها فى التعليم، حيث أُلحقت بإحدى المدارس الأولية الخاصة بالبنات. ثم وُلد المولود السادس، الذى مات رضيعا بسبب مرض أظنه «الدفتريا»، لأنى مازلت أذكره فى حِجر أُمّى وهو يختنق، وهى تحاول إنقاذه بالدعاء بعد أن عجز المستطاع من الدواء.. وبعد فترة ولد أخ آخر كان السابع فى الترتيب، ومات كذلك رضيعا بعد أن أصابه ما أظنه كان التهابا رئويا، لأنى مازلت أذكر صوت صدره وهو يتنفس وكأنه يتمزق، كما أذكر صورته وهو يَسْعل فيحتقن وجهه البرئ الأبيض الصغير فيصبح كقطعة من اللحم الأحمر.. وقد سبب موت الأخوين الأخيرين للأسرة حزنا امتد إلى فترة، وجعل الأم أشد اهتماما بالباقين من الأبناء، وأكثر حنوا عليهم وتعلقا بهم.

على أن هؤلاء الخمسة الباقين من الأبناء، كانوا يمثلون عبئا ماديا على الوالد الكادح، الذى كان يبذل أقصى الجهد فى سبيل رعايتهم وتلبية احتياجاتهم.. وقد خَفَّف من العبء بعضَ الشىء تَحمُّلُ الابن الأكبر «حِلْمى» لبعض المسئولية، حين ترك مواصلة التعليم بعد المرحلة الأولية ونزل إلى ساحة العمل ليكافح إلى جانب الوالد، مما جعل الابن الأكبر بمثابة أب آخر لإخوته، له منهم احترام خاص، وله من الوالدين إيثار متميز. ولم يَضِعْ شىء من ذلك سُدًى، فبعد سنوات سوف يكون هذا الأخ الأكبر هو المسئول الأول تقريبا عن هذه الأسرة كلها، بعد أن يضعف الأب المكافح الكادح، ويتجه إلى بيع أرض له كان قد ورثها عن أبيه، ويفتح بثمن هذه الأرض متجرا فى مكان متميز من الزقازيق، ويعهد بهذا المتجر إلى ابنه الأكبر، بل يسميه باسمه، فيتحمل بهذا كل المسئولية تقريبا، ويرعَى الجميع رعاية الأب الشاب بعد ضعف الوالد الشيخ.

وإلى هذا الأخ النبيل الملتزم ـ الذى أثمر فيه الإجلال والحب والإيثار ـ يرجع الفضل ـ بعد الله والوالد ـ فى أن يتُمَّ الأخوان التاليان له تعليمهما إلى أعلى المراحل، وأن تنتقل الأسرة إلى وضع اقتصادى ومَعيشىّ أفضل..



المرحلة الثانية

المرحلة الأزهرية

(١)

الفرح أولا للالتحاق بمعهد الزقازيق :

كانت فرحتي غامرة، حين علمت أن امتحاني للقبول بمعهد الزقازيق، قد كُلل بالنجاح. وكان عليّ أن أذهب إلى المعهد مع أول العام الدراسي، الذي يبدأ في أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩٣٥. وكان على الأسرة أن تعدّ لي الزى المطلوب حينذاك ـ بصفة إجبارية ـ لمن يدرسون في المعاهد الدينية، وهو زى الشيوخ، الذى يتمثل في «الكاكولة» والعمامة.. و «الكاكولة» تطور للجبة، وهى أشبه بالمعطف ولكنها تختلف عنه في أنها أطول وأنها مغلقة على الصدر، وليست كالجُبّة المفتوحة التى يلبسها الشيوخ الكبار، تاركين «الكاكولة» للشباب من العلماء، وللطلاب والناشئين من الدارسين... وقد تم تدبير هذا الزى ـ مؤقتا ـ بطريقة تناسب ظروف الأسرة، وتسعف بالمطلوب على وجه السرعة...

□□□

وذهبتُ لأول مرة ـ طالبا ـ إلى معهد الزقازيق، الذى يقع على مشارف المدينة قبل الدخول إلى أول حيّ من أحيائها الشعبية يسمى حى «الحسينية»، الذى تفصله عن باقى أحياء المدينة خطوط السكة الحديدية.. وكنت قد عرفتُ مبنى المعهد وطريقه من قبل، حين ذهبت إليه لتقديم طلبى للالتحاق به، ثم حين حضرت إليه

لأداء امتحان القبول. وازداد تعلقى بهذا المبنى الرائع المهيب المبنىّ على الطراز العربى، والذى ينقسم أساسا إلى قسمين يمثلان جناحين طويلين: أحدهما للقسم الابتدائى، وثانيهما للقسم الثانوى، وكل جناح يتألف من طابقين: العلوى للدراسة، والسفلىّ لسكن الطلاب الغرباء. وكان الغرباء ـ فى ذاك العهد ـ يمثلون الأكثرية فى معهد الزقازيق، لأنه كان فى تلك السنوات ـ هو المخصص لاستقبال الطلبة من أبناء الدقهلية ودمياط والقنال، بالإضافة إلى أبناء الشرقية، أى أنه كان لطلاب شرق الدلتا الراغبين فى الدراسة الأزهرية.. وكان المعهد يضم حديقتين منسّقتين: إحداهما على يمين الداخل، والثانية على يساره، وبينهما فناء كبير يسلّم إلى مدخلى الجناحين أو القسمين، وفى نهاية المعهد من الداخل تصطف الحمامات وبقية الحجرات الخاصة بالخدمات..

ووصلت إلى المعهد مبكرا فى أول أيام الدراسة، ودخلت الفصل الذى قيّدت به، وبدأ العلماء المدرسون يدخلون علينا متتابعين، وأخذتنى هيبتهم وشدنى جلال معظمهم، واستغلق علىّ ـ أول الأمر ـ ما يقول أكثرهم..

□□□

تضارب المشاعر ثانيا بعد الالتحاق بالمعهد :

وأصبحت بعد هذه البداية حائرا تائها تعتمل فى داخلى مشاعر شتّى توشك أن تتضارب وتتصادم. فأنا فرِحٌ بالالتحاق بالمعهد وانتظامى فى سلكٍ دارسىّ يمكن أن يصل بى إلى أن أكون عالما، مدرسا محترما أو قاضيا جليلا، وأنا فخور بأنى ودّعت الزى الذى يرتديه الصبية الذين لا وزن لهم، وارتديت زى العلماء الأجلاء، وأنا مزهوّ، لأنى تركت المدرسة الأولية التى يسمّى الواحد فيها تلميذا، وأُلحقت بمعهد فيه كبار من الدارسين يلقب الواحد منهم طالبا، وأنا معتز بأنى غادرت المدرسين الأوليين والقرّاء البسطاء، ورحت أجلس أمام الشيوخ الموقرين والمشاهير النجباء، وأنا

سعيد بأني تركت اللوح الصفيح، والكتب البسيطة، وحملت الكتب العلمية المنوّعة، التى تتوزع بين فروع الشريعة واللغة، وبعض العلوم الحديثة والمعارف المختلفة.. ولكنّى فى الوقت نفسه، أحسّ بثقل المسئولية وصعوبة الموقف، وعبء القيود. فقد أحسست أني عبّرت الطفولة والصبا فجأة إلى الشباب والرجولة، وعبرت كذلك البساطة والانطلاق إلى التعقيد والتقيد والالتزام. كل هذا بالإضافة إلى مضاعفة الجهد وازدياد المشقة، لا فى الدراسة فحسب، وإنما فى الذهاب إلى المعهد والعودة منه كل يوم. فالمسافة بين البيت والمعهد الآن ضعف المسافة التى كانت بين البيت والمدرسة من قبل، وتلك المسافة الجديدة تحتاج إلى أكثر من ساعة سيرا على الأقدام فى الذهاب، ثم إلى مثل هذا الوقت فى الإياب. والدراسة تبدأ فى الثامنة صباحا وتنتهى فى الرابعة بعد الظهر، وعدد الحصص سبع كل يوم، أربع قبل الظهر وثلاث بعده، وبينهما ساعة للغداء.. وهكذا كنت أخرج من البيت قبل السابعة صباحا، وأعود بعد الخامسة، كما كنت أتناول غدائى مما يتيسر حمله من البيت، وهو عادة طعام جاف يسد الرمق إلى أن أعود إلى المنزل بعد العصر..

□□□

صعوبة المقررات على الطلاب المبتدئين :

أما استيعابى لما كان يُلْقَى من دروس، فكان أمرا عسيرا يثير القلق فى أول الأمر، حيث كانت كتب العلوم الشرعية واللغوية كتبا غامضة معقدة غالبا، فقد ألّفها أصحابها فى عهود قديمة، لتكون فى الأعم الأغلب للعلماء المتخصصين لا للطلاب المبتدئين.. ورغم أن بعض تلك الكتب قد يَسّره بعض العلماء المحدَثين، فإنها كانت ـ فى جملتها ـ لا تزال صعبة على الطلاب المبتدئين.. وأذكر ـ على سبيل المثال ـ أن أحد الأساتذة بدأ يقرأ لنا فى الأيام الأولى مقدمة كتاب النحو المقرر، وأخذ يعلمنا ما فى هذه المقدمة التى تُفتتح باسم الله، ويقوم الشارح للكتاب بإعراب البسملة متحدثا عن أول حرف فيها وهو الباء وعن «متعلّق» هذه الباء.. كل هذا

ونحن لم ندرس بعد الحروف ولا غير الحروف من أمور اللغة، فضلا عن قصرَ إدراكنا عن فهم «المتعلّق» ومعنى التعلق.. وأذكر أيضا ـ على سبيل المثال ـ أن أحد الشيوخ بدأ يشرح لنا من كتاب الفقه المقرر موضوع المياه التى يجوز التطهر بها، وذكر أن أول نوع من أنواع المياه هو الماء «المطلق». وصفة الإطلاق صفة تجريدية تحتاج إلى معرفة بالمصطلحات والمباحث المنطقية.. وأذكر كذلك ـ من أمثلة التعقيد والغموض وارتفاع مستوى المادة فوق مستوى التلاميذ ـ أن أحد الشيوخ بدأ يحدثنا فى درس التوحيد عن صفات الله سبحانه وتعالى، وأفاض فى إثبات كون «الصفات قديمة» قِدَمَ الموصوف جَلَّ شأنه، وراح يدفع شبهة الشِّرك فى عقيدة من يقر بقدم الصفات مع قدم الله سبحانه، وذَكَر الشيخُ كلاما كثيرا معقدا فى العقيدة، وهو كلام ذو طبيعة فلسفية أعلى بكثير من مستوى طلاب فى السنة الأولى الابتدائية.

□□□

القلق ومتاعب الزى الأزهرى :

وأخَذَ هذا القلق يزداد عندى، حتى وجدتُ ذهنى مغلقا دون هذه العلوم، ووجدت نفسى قد تبرمت بهذا العبء الثقيل الذى أصبح لى همّاً من أكبر الهموم.. وزاد من ضيقى تَحَوُّلُ ما كنت أفرح به إلى شىء أعانِى منه. وذلك هو الزى الأزهرى، الذى كان التَّزيِّى به من قَبْلُ أملا أتعجل بلوغه، فانقلب بعد قليل ألما أتمنى فراقه.. فقد كنت قبل الالتحاق بالمعهد أتلهف على الأيام التى أضع فيها العمامة على رأسى وأُغلق «الكاكولة» على جسدى، وأحمل الكتب العلمية تحت إبطى، وأُصبِح فى سَمْتِ العلماء الذين كنت أراهم من قبل فى الطريق يحظون بالمهابة وينالون عظيم الاحترام، كما كنت أرى بعضهم فى المسجد، وقد جلس إلى الناس يلقى عليهم درسا فى الدين، وفى يده «ملْزَمة» صفراء، للكتابة فيها صُلْب داخل الصفحة، ثم هوامش تحيط بهذا الصلب. وكم تمنيت أن أتعامل مع هذه الكتب وأن أفعل ما يفعله هؤلاء العلماء الأجلاء.. ولكنى بعد أن لبست الزى الذى تمنيته، وحملت من

الكتب ما أمّلته، لم يَدُمْ فرحي إلا قليلا، فقد أصبح الزى مبعث تهكم بى فى الطريق بين البيت والمعهد، حيث كان بعض أبناء البلد ـ كعهدهم غالبا ـ يحبون النّكات والتقاط المفارقات، وكانوا يجدون فى هيئة مثلى مفارقة تدعو إلى التنكيت وتُغرى بالإضحاك. فالزى زى الشيوخ الكبار، ولكن مرتديه من الصبية الصغار.. وكان نصيبى من هذا التهكم والأذى، أضعاف نصيب زملائى فى الدراسة، لأن معظمهم كانوا لا يَعْبرون شوارع الزقازيق مثلى، وقلما يلتقون بأولاد البلد المتظرفين الطائشين. فقد كان زملاء الدراسة غالبا من أبناء الريف، ويعيشون فى أثناء دراستهم فى مساكن قريبة من المعهد بحىّ «الحسينية» الذى يتعامل معهم ويألف هيئتهم.. أما أنا وقِلّة من أبناء المدينة، فكان وضعنا يختلف، حيث كان الواحد منا يعبر عددا غير قليل من شوارع المدينة، ويقابل عشرات من أولاد البلد الذين لا يَملّون «القفشات» وتجسيم المفارقات، مهما سببتْ من أذى ومضايقات.. وقد وصلتْ المضايقات فى الطريق إلى حد أن أحد المتعطلين المتسكعين اعترض طريقى وأنا عائد من المعهد ذات يوم، وتأبط ذراعى وهو سكران، وأخذ يهذى ويصيح ويثير ضحك المارة، كل هذا وأنا أحاول أن أتخلص منه برفق حتى لا يشتبك معى فيؤذينى ويلوث زِيّى.. وبعد جهد وتلطف ـ كلفانى كثيرا ـ استطعت أن أتخلص منه بين ضحكات العامة الذين آثروا (الفُرْجة) ولم يكلف واحد منهم نفسه التدخل لفض الاشتباك غير المتكافئ، بين رجل مشاكس معربد رقيع، وصَبِيّ مسالم متوقّر وديع.

□□□

محاولة صبيانية للهروب من المتاعب :

وهكذا انقلب فرحى بالمعهد ـ فى أول الأمر ـ ضيقا به ونفورا منه آخر الأمر.. وتصادف فى ذاك العام أن فَتَح والدى متجره الذى عهد إلى أخى الأكبر بإدارته. وكنت أتردد على هذا المتجر، وربما أشارك فى بعض شئونه فى أوقات فراغى، ثم تعلقتُ به أكثر فأكثر، وكأنه وَقَرَ فى نفسى أن أفرغ له وأترك دراستى. ومضت

الشهور تباعا، وفوجئتُ بقرب موعد الامتحان الذى لم أستعد له. وأحسّ والدى وأخى بعدم اهتمامى بدروسى والاستعداد لامتحانى فنبهانى أولا بلطف، ولمّا لم أستجب أخذانى بالشدة والعنف، ولمّا تماديت بالاهتمام بالمتجر والانصراف عن واجبات المعهد، أمرنى أخى ألاّ أقترب من المتجر وأن أقطع كل صلة به، وأضاف أن شَكّكنى فى استعدادى وسَخِر من تقاعسى.. وهنا ثرت لكرامتى، ولكن بطريقة صبيانية لا أزال أعجب إلى اليوم كيف أقدمتُ عليها.

فقد قررت مغادرة المتجر والبيت والمعهد والمدينة جميعاً. وأخذتُ طريقى إلى القرية التى فيها أعمامى وأخوالى وهى قرية «كفر هورين»، وسلكت مشياً على الأقدام وبلا نقود، طريق ميت غمر الزراعى، ومازلت أمشى من الضحى دون طعام حتى قَرُبِ وقت الغروب، حيث بدأ الطريق يظلم وأنا لم أصل بعد لا إلى القرية التى أقصدها ولا حتى إلى ميت غمر، ووجدتنى أمام قرية عَرَفْتُ أن اسمها «شبرا نصورة». وألهمنى الله أن أسال من قابلتهم فى مدخل القرية عن زميل لى فى الدراسة أعرف أنه من هذه القرية، فدلونى على بيت أهله الذين ظنوا أنى قادم لزيارته.. وفى هذا البيت استُقبلتُ بمزيج من الحفاوة والإشفاق والتساؤل، ولكنى لم أبحْ لأحد بحقيقة سِرّى. وبِتُّ ليلتى التى لا أنساها بمخاوفها وقلقها وكوابيسها.. وفى الصباح أوصلنى أهل صديقى إلى حيث ركبتُ عربة عادت بى إلى الزقازيق حيث أسرتى.

□□□

واستقبلتنى الأسرة بأشكال مختلفة، فالوالدة قد اندفعتْ إلىّ باكية وعانقتنى ومن خلال الدموع عاتبتنى، والوالد مِنْ يَدَىْ أمى انتزعنى وبالرغم منه طاوع ثورته وضربنى، أما أخى فقد توارى منى ولفترة تجنبنى، وكأنه خجل مما سببه لى وجرّه علىّ.

التعلّم من التجربة القاسية:

وإزاء هذه التجربة القاسية تضاعفت فى داخلى روح التحدى، وخاصة بعد أن قال لى والدى فيما قال وهو يؤنبنى: إنك لن تفلح.. وإنك ولد «فاشل».. فهنا قررت أن أثبت للجميع أنى عكس ما يظنون وأننى قادر على تحقيق النجاح وتخطى كل العقبات.. وأحسست بداخلى قوة تدفعنى إلى أن أحصّل ما فاتنى، وأن أحاول من جديد إزالة كل العقبات التى تكاثرت أمامى.. فاتجهت إلى الله أناجيه بكل ما لدىّ من ضعف وخشوع ودموع، وتوسلت إليه أن يعيننى بما يحفظ إنسانيتى وكرامتى.. وفجأة شعرت كأن نوراً ينبثق فى أعماقى، وأن غشاوة تنزاح عن عقلى، وأن هاتفاً يهتف بى مرشداً وناصحاً.. ووجّهنى هذا الهاتف إلى أن أقرأ كل كتاب مقرر على مهل، وأن أحاول ـ صابراً مستبشراً ـ فهم ما فيه، وإذا استغلق علىّ أمر فى علم، فلأذهب إلى الشيخ الذى يعلمنا هذا العلم لأسأله حيث يكون.. وحددت لنفسى ساعات للاستذكار تبدأ قبيل صلاة الفجر وتستمر حتى ساعة التوجه إلى المعهد، ثم تستأنف بعد العودة إلى البيت وتستمر إلى ما بعد العشاء.. ونفذت بدقة هذا البرنامج اليومى، فكنت أستنكر عدداً لا بأس به من الساعات، وأحدد فى أثناء الاستذكار ما أحتاج إلى السؤال عنه، ثم أسأل شيوخى حين ألقاهم فى المعهد أو حين أذهب إليهم فى المسجد، أو حين أطرق عليهم أبوابهم حيث يسكنون.. وكم سألت شيوخاً طيبين فأجابونى مشكورين، وكم ذهبت إلى بعضهم فى منازلهم دون موعد فاستقبلونى كرماء مرحّبين.. وبهذه الطريقة ذللت كل الصعوبات وعوضت جميع ما فات.. وقد ساعد على رفع روحى المعنوية ما رأيته من أبناء الريف القادمين إلى الزقازيق فى الصباح لبيع بعض حاصلاتهم أو لتدبير بعض شئونهم.. والذى رأيته من هؤلاء القرويين الطيبين كان يعوّض بعض الشىء ما كنت ألاقيه من أبناء البلد الطائشين المتظرفين.. فقد كان الرجل الريفى إذا أقبل نحوى فى الطريق قرب المعهد نزل عن ركوبته، ومرّ بى ملقياً السلام والتحية، ثم عاد إلى ركوبته فامتطاها ومضى.. وقد كان يبهرنى هذا السلوك الراقى من هؤلاء

الريفيين الطيبين، على حين كان يقهرنى ذاك السلوك المتدنّى من أولئك الحضريين العابثين.

□□□

ثم دخلتُ الامتحان وأجبت بيسر إجابة مرضية، ونجحت مع الناجحين بدرجة مسعدة.

وهكذا مرّ العام الأول فى معهد الزقازيق بسلام رغم المثبطات والهموم الجسام. وفرحتْ الأسرة وخاصة أبى الذى عمل الكثير لترضيتى، ووزع أخى المرطبات على أهل الشارع ابتهاجاً بنجاحى واعتذاراً عما فرط منه قبل ذلك نحوى. بل بالغ أخى فأخبر المعارف والجيران أنى أول الناجحين، فكان ذلك «توريطاً» لى، حيث تلقيت تهانى كثيرين مشفوعة بوجوب الحفاظ على الأولية.. وهكذا أصبحتُ أمام نفسى وأمام الناس مسئولاً عن النجاح دائماً، بل عن الحصول على التفوق فيما يأتى من الأعوام.. ومن يومها آمنت أن من بين أسباب النجاح «التوريط»، أو وضع الإنسان أمام أمر يَعييه أن يتراجع عنه أو يُفرِّط فيه. كما آمنت أن بث الثقة فى الناشئ ـ فيما يتصل بقدراته وسلوكياته ـ يعينه كثيراً على أن يكون عند حسن ظن من وثقوا به وعقدوا الأمل عليه.. وقبل ذلك كله آمنت بأن التحدى يثير داخل الإنسان قوى كامنة تتغلب على الصعاب وتحقق بعيد الرغاب..

□□□

(٢)

إتمام المرحلة الابتدائية ومحاولة تغيير المسار:

ومرت سنوات الدراسة الابتدائية، أحمل فيها عبء العلوم العسيرة التى يَسَّرَها الجد، كما أحمل عبء المواجهة الاجتماعية التى خففها الصبر، وانتهت تلك المرحلة بحصولى على الشهادة الابتدائية الأزهرية بتفوق ملحوظ.

وكانت هذه الشهادة أعلى بكثير من الشهادة الابتدائية المدنية، فالثانية كان من الممكن أن تُنال بعد سنة من دراسة المرحلة الأولية، أما الأولى فكانت تحتاج إلى دراسة خمس سنوات بعد المرحلة الأولية، منها سنة يتم فيها حفظ القرآن كله، ثم أربع تتم فيها دراسة جانب كبير من العلوم الشرعية واللغوية بالإضافة إلى جملة من العلوم الحديثة. كل ذلك والالتحاق بالمرحلة الابتدائية فى سن لا تقل عن الثالثة عشرة عادة. ومعنى هذا أن من يحصل على الشهادة الابتدائية الأزهرية يكون غالباً فى السابعة عشرة، كما يكون قد حصَّل من العلوم التقليدية والعصرية ما يزيد كثيراً على ما يُحصِّله من يحصُل على الابتدائية المدنية.

□□□

ولأنى كنتُ قد أُرهقت من هذا التعليم الشاق رغم صبرى عليه وفهمى لمشكلاته، ولأنى كنت قد تعبت من الشيخوخة المبكرة التى فرضها علىَّ الزى

الأزهرى، ولأنى قد حُرمت فى سن الصبا وفجر الشباب مما يسعد به أقرانى وجيرانى من أبناء الزقازيق الذين يتعلمون فى المدارس، حيث يمرحون ويلعبون ويمزحون دون حرج غالباً، أما أنا فليس فى مقدروى أن أمارس شيئاً من هذا وأنا فى هذا الزى الوقور الذى يفرض على صاحبه التحفظ الشديد، أقول لهذا كله ـ فكرت بعد نيل الشهادة الابتدائية فى البحث عن طريق غير طريق إتمام الدراسة الأزهرية الطويلة المرهقة.. وكنتُ قد قرأت فى الصحف أن الجيش قد فتح مدرسة تسمى «مدرسة الكُتَّاب العسكريين» وأن هذه المدرسة تقبل حملة بعض الشهادات، ومنها الابتدائية الأزهرية. فرجوت والدى وأخى أن يسمحا لى بالتقدم إلى هذه المدرسة، فرفضا أولاً، رغبة فى أن أتم حتى النهاية دراستى التى أنهيت منها المرحلة الابتدائية. ولكن بعد إلحاحى وكثرة رجائى، سمحا لى على مضض بأن أجرب حظى.. وتقدمتُ إلى المدرسة، وذهبت إلى المعسكر الخاص بالمتقدمين فى العباسية، وبتُّ فى هذا المعسكر ليلة انتظاراً للكشف الطبى والاختبارات المطلوبة فى اليوم التالى.. وشاء الله أن أرسب فى اختبار النظر، وعُدت إلى أهلى بقلب منكسر، ولكنهم لم يحزنوا مثلى، بل فرحوا بنجاتى وعودتى، وشكروا الله أن أقال عثرتى..

وشاء الله أن أواصل الدراسة فى المرحلة الثانوية، بعد أن أخفقتُ ـ إخفاقاً أحمد الله عليه ـ فى الالتحاق بمدرسة متواضعة عسكرية.

□□□

المرحلة الثانوية وروافدها الثقافية :

وكانت المرحلة الثانوية أفضل بكثير من المرحلة الابتدائية، ففيها بدأتُ درس الأدب والبلاغة، وفيها بدأتُ التعرف على شيوخ من ذوى النزعة الأدبية والأفكار العصرية، كما بدأت التوسع فى قراءة إبداعات الأدباء واستيعاب الكثير من كتب النثر ودواوين الشعر. كذلك بدأت فى هذه المرحلة الاقتداء بالقيادات الطلابية التى سبقتنى فى سنوات الدراسة، واحتلت مكانة مرموقة بفضل قدرتها على الخطابة

وتمكنها من قرض الشعر، وصلتها أحياناً ببعض الصحف التى كانت تنشر للنابهين من الطلاب بعض محاولاتهم فى الأدب.

□□□

وفى هذه المرحلة أفدتُ من أهم الروافد المكونة لشخصيتى والمنمية لثقافتى، ومن أول هذه الروافد، مكتبة الزقازيق العامة، التى تقع فى الشارع الرئيسى المطل على بحر مويس، ففى هذه المكتبة أضفتُ الكثير إلى قراءاتى الأدبية الأولى، وعرفت إبداعات طائفة من كبار الناثرين مثل طه حسين والرافعى وجبران، بعد أن عرفت فى المرحلة الابتدائية إبداعات المنفلوطى، الذى كانت كتبه من مقتنيات أخى، كما عرفت فى مكتبة الزقازيق عدداً غير قليل من دواوين كبار الشعراء، مثل شوقى وحافظ والعقاد من المحدثين، وأبى تمام والمتنبى وأبى العلاء من القدماء.. كذلك كان من أهم الروافد الثقافية فى هذه المرحلة الثانوية، جمعية الشبان المسلمين بالزقازيق، ففى هذه الجمعية عرفتُ الندوات الشعرية والمناظرات الأدبية والمحاضرات العلمية. وفى هذه الجمعية أيضاً مارست بعض الألعاب الرياضية البسيطة، وشاركت فى بعض الأنشطة الاجتماعية المفيدة.. ولا أنسى أنى تعلمت من خلال الاتصال بجمعية الشبان المسلمين بالزقازيق، بعض السلوكيات المتحضرة الحميدة وبصفة خاصة عن طريق الرياضة، التى كنت أُمارس منها لعبة كرة الطاولة، والتى تعوّد لسانى عن طريقها على قول: «آسف» إذا ما أخطأت، وذلك لكثرة ترديد هذه العبارة المهذبة بين اللاعبين إذا ما نَدَّتْ الكرة عن مكانها الصحيح، وهم يتقاذفونها بالمضارب.. كذلك كان من أهم الروافد الثقافية فى هذه المرحلة الثانوية، متجر ورّاقٍ يجاور متجرنا بالزقازيق، ففى هذا المتجر كان يجتمع بعض المثقفين ويتحاورون فى العلم والأدب، وفى السياسة والفكر، وكان منهم الطبيب والمهندس، والمحامى والمدرس، كما كان منهم المسلم والمسيحى، والوفدى والإخوانى، وكان من أبرز اهتماماتهم اقتناء الكتب، والحديث عن المؤلفين والعلماء، والمقارنة بين المفكرين

والأدباء.. وكثيراً ما جلستُ إلى هؤلاء المثقفين، وعن طريقهم عرفت الكثير من القضايا والآراء، كما استعرت منهم بعض الكتب التي أثّرت في ثقافتي، ومنها كتب مترجمة عن نظرية النشوء والارتقاء، ومن مذاهب علم النفس، وعن أصول التربية، وعن المذاهب الاقتصادية والسياسية.. كما كان من روافد ثقافتي في هذه الفترة أيضاً، تعرفي على بعض أبناء الزقازيق الذين كانوا آنذاك من الأدب في أول الطريق، والذين سوف يبلغ بعضهم فيما بعد درجات رفيعة في الحياة الأدبية والثقافية. وكان أول من عرفت من هؤلاء إبراهيم السروجي، وهو شبه أسطورة من أساطير زماننا وقلما يتكرر في عالمنا، فهو إنسان لم يتعلم في مدرسة، كما أنه من أسرة تعمل في صناعة السروج، وقد نشأ على حرفة الأسرة، ولكنه استطاع أن يعلم نفسه، ووصل في ذلك إلى حد قراءة الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والأدب والنقد، وكان يُرى بالنهار جالسا بجلباب أمام «محله» يصنع السروج ويتعامل مع الصنّاع وسائقي العربات وراكبي الدواب، ثم يرى في المساء وقد ارتدى حلة أنيقة سوداء، وخالط طائفة من المثقفين أو برز بين مجموعة من المتعلمين يحاورهم وكثيراً ما يفحمهم.. ثم عرفت بعد السروجي، مرسي جميل عزيز، الذي اكتفى بإتمام الدراسة الثانوية المدنية، وتفرغ للأدب والفن.. وكان هذان الصديقان النواة الأولى لتلك المجموعة الأدبية النابهة، التي سوف يتم تكوينها وجمع شملها في مرحلة تالية، ويكون من أبرز أعضائها الأديب إبراهيم الترزي والشاعر محمد العلائي، والشاعر إبراهيم شاهين، والشاعر أحمد مخيمر، والشاعر صلاح عبدالصبور، الذي كان أكثرهم تجديداً، والذي سمي هذه المجموعة في بعض كتاباته باسم «أصدقاء الضحك القديم».. كما كان من أهم مصادر ثقافتي في تلك المرحلة، تلك المجلات الأدبية الممتازة، التي كانت تنشر إبداعات ألمع الكتّاب وأكبر الشعراء، وآخر ما جرت به أقلام المفكرين والعلماء. وأبرز هذه المجلات مجلة الرسالة ومجلة الرواية، اللتان كان يصدرهما أحمد حسن الزيات، ثم مجلة الثقافة التي كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر، ويرأس تحريرها أحمد أمين.

زعامة قصيرة تنتهي بالحبس :

ولست أنسى أني في السنة النهائية من هذه المرحلة دُفِعْتُ دفعاً إلى أن أكون زعيماً لطلبة معهد الزقازيق، ولكن لعدة أيام فقط. فقد شاركتُ بشعرى فى بعض القضايا التى كان يخوض فيها الطلبة حينذاك، وألقيت هذا الشعر على جموع الطلاب المحتشدين فى فناء المعهد، فرأى الزملاء أن يختاروني زعيماً. وحَدثت أحداث لم ترض عنها الحكومة القائمة فى ذاك الوقت، فقُبض عليّ واقتادتني الشرطة إلى «الحجز» بقسم البوليس بحى الحسينية الذى يقع فيه المعهد. وبقيت سحابة يوم سجيناً، وكنت أجلس فى «الحجز» على الأرض بملابسى الأزهرية، وحولى عدد لا بأس به من المقبوض عليهم فى تهم غير سياسية. وسلّمتُ أمرى إلى الله، وكدتُ أُرجّح أن مستقبلى قد انتهى. ولكن رحمة الله تداركتنى، ففى هذه الساعة التى أطبق فيها اليأس عليّ، جاء جندى إلى «الحجز» ونادى باسمى، ولما نهضتُ ظاناً أنى مسوق إلى سجن الزقازيق تمهيداً لمحاكمتى، أخبرنى الجندى أنى قد صدر أمر بالإفراج عنى، واصطحبنى إلى الضابط الذى وضّح لى أن بعض أساتذتى من العلماء الذين يمثلون الطرف الآخر الموالى للحكومة، قد شفعوا لى متطوعين، وأكدوا لمن بيدهم الأمر أنى طالب مُجِدّ وشاعر واعد، وأن ما كان منى إنما هو تورط لا يستند إلى موقف سياسى معاد أستحق من أجله السجن.. وهكذا نلت حريتى بعد أن ذقت مرارة السجن يوماً.. أما تلك الأحداث التى لم ترْضَ عنها الحكومة، والتى كان من نتائجها اعتقالى، فمجملها أن الحكومة كانت فى ذاك الوقت حكومة الوفد، وكان هناك عداء تقليدى بين الوفد وشيخ الأزهر المراغى، وكانت أغلبية الأزهريين مراغيين ومعادين للوفد والوفديين، وكان شيخ معهد الزقازيق حينذاك هو الشيخ محمد عبداللطيف دراز، المعروف بأنه من أكبر أعوان المراغى، ومن أشد المحرضين على مقاومة الحكومة الوفدية والتمرد عليها فى المعاهد الدينية.. على أنه كانت هناك مجموعة تمثل الأقلية بين الشيوخ، وهذه المجموعة كانت

تتعاطف مع الوفد وحكومته، أو فى أقل تقدير تحرص على إقرار الهدوء فى الأزهر ومعاهده، ومواصلة الدراسة من أجل مصلحة الطلاب الذين ليس لهم فى الصراع ناقة ولا جمل.. وقد رأى الشيخ دراز ـ ككل المؤيدين للمراغى ـ أن يضرب الطلاب فى إحدى المناسبات، وأن يشغبوا على الحكومة، فحدثت مظاهرة فى معهد الزقازيق، قام فيها الطلاب ببعض التخريب، فعطلت الدراسة، وقبض بالليل على الشيخ دراز الذى كان يقيم معظم أيام الأسبوع باستراحة له بالمعهد، وتفاقم الأمر، واجتمع الطلاب فى الصباح، حيث ألقيت فيهم قصيدة احتجاج على اعتقال الشيخ بليل.. وتوالت الأحداث معقدة متفجرة، وكان من نتائج تلك الأحداث القبض علىّ واحتجازى، إلى أن شفع لى بعض أساتذتى الطيبين فأطلق سراحى.. ومن يومها رأيت أن اتّباع الطامحين الكبار، لا يصح أن يتورط فيه الأغرار الصغار، كما أسأت الظن من يومها بالحركات الطلابية التى كثيراً ما تحركها مصالح خفية لزعامات حزبية .

□□□

بين المعاناة والتأسيس العلمى القوى:

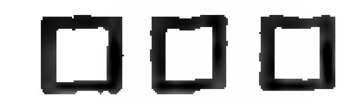
والحق أن سنوات الدراسة فى معهد الزقازيق كانت تمثل ألوانا من المعاناة، فقد كانت مواد الدراسة كثيرة، والمؤلفات فى معظمها عسيرة، كما كانت الإضرابات متعددة، والمظاهرات والمصادمات تحدث فى كثير من المناسبات، وكان بعض المصادمات يتم بين طلبة المعهد وأهالى الزقازيق، الذين كان معظمهم من الوفديين، الذين يعاديهم ـ تبعا لنزعة الشيخ المراغى ـ أكثر الأزهريين.. كذلك كانت الحياة فى سنوات الدراسة بمعهد الزقازيق تتسم بالجفاف، والخلو مما يسعد به أبناء المدارس المدنية من أنشطة رياضية وفنية، ومما يظفر به هؤلاء من طلاقة ومرح، وما يقتنصونه من متع الصبا ومتطلبات المرحلة الشبابية.. فقد كانت كل هذه من المحرمات بالنسبة للطالب الأزهرى، وخاصة إذا كان من أبناء المدينة، الذى لا يتسق مع مظهره وزيّه أن يلعب أو يمرح، أو يخطر بباله أن يكلم فتاة أو يبوح بعواطفه لأحد..

ولكن الحق أيضا أن سنوات الدراسة فى معهد الزقازيق قد كونتنى تكوينا علميا صلبا كما كونت أكثر أبناء جيلى، وكانت الأساس المتين الذى بنيت عليه كل ما حصلت بعد ذلك فى مراحل تعليمى.. فقد تعلمنا فى معهد الزقازيق النحو العربى ودرسناه كاملا عدة مرات فى عدة كتب من الكتب الأمهات، كما تعلمنا الصرف وأحطنا به كله فى كتب الثقات، كذلك درسنا البلاغة وفنونها دراسة مفصلة، وتعلمنا الأدب فى عصوره المختلفة، وهضمنا العروض والبحور وأحوالها، والقوافى وأوضاعها وأشكالها. وبهذا تمكنا من أهم العلوم العربية.. ومثل هذا تم فى أهم العلوم الشرعية، فقد درسنا الفقه الإسلامى كاملا مرتين: مرة فى المرحلة الابتدائية موجزا، وأخرى فى المرحلة الثانوية مفصلا، وفى كلتا المرتين تمت الدراسة فى كتاب من كتب الفقه التراثية المرجعية.. كذلك درسنا التوحيد ـ أو علم الكلام ـ بكل ما يضم من تفاصيل ومذاهب ونزعات ومشارب.. ودرسنا التفسير فى أحد الكتب القديمة المعتمدة، وهو تفسير النسفى، كما درسنا الحديث فى شكل مختارات من صحيح البخارى.. وبالإضافة إلى ذلك كله درسنا أهم العلوم العقلية والإنسانية كالمنطق والتاريخ والجغرافيا والأخلاق والتربية الوطنية، كما درسنا قدرا طيبا من العلوم الرياضية والطبيعية، كالحساب والهندسة، والطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء.. وكان علينا أن نستمر على حفظ القرآن الكريم، فكنا نمتحن فيه فى نهاية كل عام، ولا يتم الانتقال من سنة دراسية إلى سنة أعلى ـ خلال سنوات الدراسة التسع ـ إلا بعد النجاح فى حفظ القرآن حفظا جيدا..

□□□

وأشهد أن التعليم فى معهد الزقازيق كان ـ رغم كل السلبيات ـ تعليما جادا، يبنى بشكل قوى من يريد أن يتخصص فى العلوم العربية والإسلامية، وكان معظم الشيوخ القائمين بالتدريس من العلماء المتمكنين، الذين كان بعضهم لا يقل علما وكفاءة عمن عرفت بعد ذلك فى المرحلة الجامعية. ومن النماذج الطيبة لهؤلاء

الشيوخ، الشيخ عبدالعزيز بكر، والد اللواء أحمد بكر الذى وصل إلى منصب مساعد وزير الداخلية، ثم عين محافظا لسوهاج، والشيخ السيد الباز والد الدكتور أسامة الباز الذى وصل إلى منصب مساعد وزير الخارجية ومدير لمكتب رئيس الجمهورية للشئون السياسية... وهكذا كان التعليم فى معهد الزقازيق مؤهلا لإعداد طائفة من العلماء والأدباء الذين سيكون لهم شأن كبير فيما بعد، مثل الشيخ محمد متولى الشعراوى، الذى سبقنى إلى الدراسة فى معهد الزقازيق بنحو ثمانى سنوات، حيث كان فى السنة الخامسة الثانوية، وأنا بالسنة الأولى الابتدائية، وكان من تلك القيادات الطلابية الباهرة، في حسن مظهره وخطابته الساحرة..



(٣)

البدايات الأدبية فى المرحلة الثانوية:

وتم تأسيسى علميا فى معهد الزقازيق، كما بدأتُ خلال مرحلته الثانوية أتجه إلى الأدب وخاصة الشعر، حيث بدأتُ ـ بعد القراءة الغزيرة ـ أبدع بعض القصائد، وألقى ما يصلح منها فى مناسبات دينية أو وطنية بالمعهد، أو فى ندوات أدبية بجمعية الشبان المسلمين. ثم نشرت كتيبا من تلك الكتيبات الساذجة، التى اعتاد نشرها الشادون فى الأدب من طلاب أواخر المرحلة الثانوية، مستعينين فى طبعها باشتراكات الزملاء ومؤازرة الأصدقاء. وكان هذا الكتيب الذى نشرته وأنا بالسنة الخامسة الثانوية يضم ما رأيته صالحا من إبداعاتى الشعرية الأولية، بالإضافة إلى مجموعة من المقالات تمثل بداياتى فى الكتابة النثرية. وقد خرج هذا الكتيب يحمل عنوان «الفجر» ويتصدر بمقدمة كتبها الشيخ دراز شيخ المعهد، أو بالأصح كتبتها أنا ـ كما طلب ـ وتفضل هو بتوقيعها مشكورا..

متاعب الأسرة فى سنوات الحرب:

وقد قضيت معظم سنوات الدراسة بمعهد الزقازيق أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت سنوات تلك الحرب قاسية مليئة بالأزمات والتغيرات والمفاجئات.. وأبرز مافى

هذه السنوات بالنسبة لأسرتى، أن تجارتنا واجهت صعوبات وعثرات. فقد كانت السوق الرائجة حينذاك هى السوق السوداء، التى يربح فيها المنحرفون والعملاء. أما المستقيمون الشرفاء، فكان نصيبهم المعاناة والانتكاس، الذى يهدد أحيانا بالضياع والإفلاس. وكان أبى وأخى يرفضان تلك السوق الرائجة أثناء سنوات الحرب،ولم يكن لهما بد من المكابدة وتسيير سفينة تجارتنا محاولين بكل المعاناة ألا تصل إلى القاع. وتحملا فى سبيل ذلك الكثير، وخاصة بعد أن تضاعفت الأعباء بسبب الغلاء، وتعدد الالتزامات نحو الإخوة والأبناء.. فقد تزوجت أختى التى تكبرنى من ابن عم يعمل بالمطرية قرب القاهرة. ولكنه رأى أن يكون الزفاف أولا فى قرية أصول الأسرة «كفر هورين». وأعددنا لشقيقتى «جهازا» لا بأس به، ونظرا لقلة سيارات النقل المتاحة بسبب احتكار القوات الإنجليزية لمعظمها، فقد حملنا «الجهاز» على عربة تجرها الخيول لكى تحمله إلى قرية «كفر هورين». وفى الطريق الزراعى قبيل ميت غمر صَدَمَتْ سيارة العربة، فتحطم بعض «الجهاز» وجاءنا الخبر المؤلم، فأسرع أخى إلى مكان الحادث، وعمل على إصلاح ما تحطم ثم سافرنا بعد أيام بالعروس فى سيارة مؤجرة لحضور الزفاف، وفى مدخل القرية تجمع أطفال كثيرون حول السيارة، بل ركبها عدد منهم فى تكدس مخيف، مما جعل السائق يرفض التحرك خوفا على سيارته أو على الأطفال، فاضطررنا إلى النزول والسير بالعروس على الأقدام إلى بيت العريس.. وتم العرس، وبت ليلة فى بيت أحد الأقارب. ومن يومها لم أر «كفر هورين»، وقد مضى على ذلك نصف قرن أو أكثر..

□□□

وبعد سنوات قليلة تزوج أخى الأكبر، وانتقلنا إلى منزل يتسع لنا وللعروس «بجهازها» الجديد. وقد أقمنا حفلا لأخى بهذه المناسبة وأعددنا «سرادقا» أمام المنزل لاستقبال الأصدقاء والمهنئين، وتقديم بعض ما يقدم فى الأفراح بالمدينة عادة من بعض ألوان الترفيه. ولكن صفارة الإنذار قد دوت بصوتها المزعج أثناء الحفل، فأطفئت الأنوار وانفض الحفل.. وأصبحت معنا سيدة جديدة هى زوج أخى الأكبر،

التى كانت لنا عوضا عن الأخت التى زوجت من سنوات وتركت بيتنا فى الزقازيق إلى بيت زوجها فى المطرية.. وما لبثت هذه الأخت الجديدة أن أضافت إلى الأسرة أفرادا جددا، منحوا البيت كثيرا من البهجة والحركة، ونالوا من الجميع الرعاية والمحبة.. وكانت الوالدة ترعى الجميع وتدلل الجميع، وتخص بالرعاية والتدليل هؤلاء الصغار أبناء أخى الكبير الأثير..

□□□

وكانت أزمات سنوات الحرب تشتد أحيانا إلى حد أن يتخاطف الناس الخبز عند من يبيعونه، وإلى درجة أنهم كانوا يتصادمون وكأنهم يتقاتلون عند متاجر توزيع التموين.. كذلك كان الناس كثيرا ما يفزعون من تلك الغارات التى كان يشنها الألمان عادة على مواقع الجيش الإنجليزى التى كان الكثير منها بالشرقية، وكانت تسقط بعض القذائف خطأ ـ أو قصدا ـ على مواقع قريبة من الزقازيق.. وفى نهاية المرحلة بدأ الطليان يهزمون أمام الإنجليز فى الصحراء الغربية، وكثرت القطارات التى تحمل الأسرى إلى معسكرات الاعتقال مارة بمحطة الزقازيق.. ولا أنسى هؤلاء الأسرى وهم معفرون منكسرون، وقد راحوا يطلُّون من نوافذ القطارات أو يتزاحمون على أبوابها، يبيعون للناس فى محطة الزقازيق حللهم ومعاطفهم وساعات أيديهم، لقاء قليل من الطعام أو علب الدخان..

□□□

كلمات عن الوالدين فى تلك السنوات:

ولن أنسى من صور هذه السنوات أبى المكافح الشيخ عبدالمقصود، الذى ضاعف العمل لكى يساعد ـ رغم تقدم سنه ـ فى الوفاء بالتزامات هذه الأسرة التى ازداد عددها وضاعفت الحرب من أعباء القائم على أمرها.. كذلك لا أنساه وهو يصر على الخروج إلى صلاة الفجر كل يوم، والظلام دامس والغارات متوقعة، ولكنه كان دائما يجد من إيمانه نورا يهديه، ومن صلته بربه درعا يحميه... ثم لا أنساه وهو الرجل الذى لم يشتغل بالعلم ولم يعايش الكتاب ـ يدرك بفطرته النقية قيمة العلم

والكتاب، ولذا كان يقول لى حين يعرف أنى اشتريت كتابا جديدا : «اشتر الكتب ما استطعت، فالكتب زينة للرجال كما أن الحلى زينة للنساء» .. رحمه الله، فقد كان قدوة فى تقدير العلم وفى الاستقامة والحفاظ على الكرامة..

□□□

أما أمى فكانت الحنان مجسما فى إنسان، أرضعتنى السماحة والرضا وحب الآخرين، وخاصة إخوتى وأبناء أسرتى.. وكانت أكبر عون لى فى دراستى أنا وأخى «محمد» الذى يصغرنى، والذى لحق بى وسار فى الدراسة مسيرتى، فكان فى المرحلة الابتدائية وأنا فى المرحلة الثانوية.. وكانت الوالدة توقظنا قبيل الفجر، وتبقى إلى جانبنا ونحن نستذكر دروسنا قبل الذهاب إلى المعهد، ثم تهيئ لنا الفطور الذى نتناوله، والغداء الذى نحمله، وتظل قلقة حتى نعود إلى المنزل عصرا، فتهدأ وتستريح.. كما كانت دائمة العمل على توثيق الروابط بين أبناء الأسرة، فكانت تحدث كل واحد من الإخوة بما يزيد تعلقه بإخوته، وبما يعمق مشاعره تجاه كل أبناء أسرته.. وكانت تتحمل مسئولية كل شئ داخل البيت، حتى بعد أن تزوج أخى الأكبر وأصبحت زوجته أختا لنا فى هذا البيت. فكانت أمى هى التى ترعى الجميع حتى تربية الأطفال الجدد، الذين أضافهم أخى إلى الأسرة.. وكانت تفعل كل ذلك بكل الحب والسعادة، ولا تشعر أنها تؤدى عملا مفروضا أو تكليفا ملزما.

□□□

حادثة أشبه بالقصص الشائقة:

وأحب أن أسجل ـ فى نهاية الحديث عن هذه المرحلة الأزهرية ـ أن هذه المرحلة قد ختمت بحادثة أقرب إلى القصص الشائقة ذات التعقيد والنهاية التى تمثل لحظة التنوير.. فقد حدث فى الشهر الأخير للعام الدراسى من المرحلة الثانوية، أن مرض أخى الأكبر الذى يدير المتجر، ولزم البيت بأمر طبيب قرر أن الأخ يعانى من اشتباه بمرض «التيفود» ، الذى كان يعصف بكثير من الناس فى ذاك الوقت وقام والدى برعاية المتجر بدلا من أخى.. وكانت الحكومة وقتها تقوم بحملات مظهرية على

المجال التجارية، بزعم محاربة التجار المخالفين لما حددته الحكومة فى «تسعيرتها» الرسمية، وكان المنفذون لهذه الحملات يلجأون أحيانا إلى أيسر السبل التى تظهرهم بمظهر العاملين المجدين، مهما وقع ضحية هذه السبل من أبرياء ومهما نجا من مخالفين.. وكان والدى من هؤلاء الذين وقعوا ضحية بعض هذه السبل المظهرية فى إحدى الحملات التموينية.. فقد اتهم بأنه المسئول فى المتجر عن بيع سلعة بأكثر من سعرها الرسمى، وكانت الزيادة بضعة مليمات، لم تكن فى الحقيقة إلا بقية حساب للمشترى لم يأخذها لعدم وجود عملات صغيرة من فئات أجزاء القرش وقت إتمام الصفقة.. وكانت عملية الشراء شركا دبّره بعض «المخبرين» ليحصلوا على قضية تحسب لهم ضمن نشاطهم وترفع بين رؤسائهم من قدرهم.. وكانت النتيجة إغلاق المتجر وحجز الوالد مهددا بمحاكمته على ما ادعوا من مخالفته.. وهكذا عدت عصر يوم من المعهد لأجد أخى الأكبر بالمنزل مريضا مهددا بالموت، ولأعرف أن والدى قد أُخذ بقضية تموين مظهرية ولكنه مهدد بالمحاكمة، وأن المتجر الذى هو مصدر رزق الأسرة قد أغلق وأصبح مهددا بالإفلاس.. وهنا تهاوت كل الآمال فى إتمام الدراسة، وتوالت الخواطر السوداء على مخيلتى، فتصورت نفسي وقد ضاع علىّ كل ما بذلته فى التعليم، وتحطم الأمل فى نيل الثانوية التى حلمت بها كوسيلة للالتحاق بدار العلوم. وضاعف من تلك الخواطر السوداء، فزعى من هذا الخطر المهدد لأخى المريض، وهلعى من ذاك المصير الذى يمكن أن يصيب والدى المحتجز... ولكن كان علىّ فى هذه الساعة الحالكة أن أتماسك وأبحث عن شعاع نور، فأدبر طبيبا ماهرا يجتهد من أجل انتشال أخى من مخالب المرض الرهيب، وأن أُوكّل محاميا بارعا يدافع من أجل تخليص أبى من شرك الاتهام الظالم.. ووفقنى الله ـ بمساعدة الأصدقاء والجيران ـ إلى أن أجد الطبيب الماهر والمحامى البارع.. ثم عدت إلى البيت، حزينا كسير القلب مشتت اللب، ولكن مع أمل فى الله أن يفرج الكرب. وحين حل المساء، وآوى كل من فى البيت إلى السكون، توجهت إلى الله ـ وحدى ـ بالصلاة الخاشعة والدعاء الذى تبلل كلماتِه الدموع. وما زلت على صلاتى

وابتهالاتى حتى غلبنى النوم، فرأيت فيما يرى النائم أننى أقف فى أرض حديقة ممتدة الخضرة، ثم رأيت راية خضراء تهبط من السماء وتستقر أمامى على الأرض، وقد كتب عليها بخط أبيض شديد الوضوح : «نصر من الله وفتح قريب»..

وقد تكون هذه الرؤيا مجرد تعبير من عقلى الباطن بطريقة رمزية عما امتلأت به أعماقى من رغبة فى النصر وكشف ما حاق بى وبالأسرة من ضر، وقد يكون لهذا الذى رأيته تفسير آخر، ولكن الشئ المؤكد أننى استبشرت بما رأيت ونهضت من نومى منشرح الصدر أنتظر من الله النصر.. وذهبت فى الصباح إلى معهد الزقازيق لكى أتسلم رقم الجلوس الخاص بى فى امتحان الشهادة الثانوية، ثم عدت إلى الشارع الذى به متجرنا، فأسرع الجيران إلى تهنئتى بأن والدى قد برئ، لوضوح الافتعال والظلم من موظفى التموين الذين نصبوا له الشرك، ثم ذهبت إلى البيت، فخف الأهل إلى تهنئتى بأن أخى قد عوفى، لظهور خطأ الاشتباه من الطبيب الأول، الذى زعم خطورة المرض، ولتأكيد الطبيب الثانى أن المرض لم يكن غير نزلة معوية عابرة، وأن فى إمكان أخى أن يخرج من البيت غداً إن أراد... وفى الغد عاد أخى إلى متجره كما نال والدى رد اعتباره، وعادت حياتنا إلى مسيرتها الطبيعية الرضية، بعد أن كشف الله الغمة وبدد بومضة من نوره كل الظلمات المدلهمة..

□□□

وبذلتُ أقصى الجهد فى الاستعداد للامتحان بعد أن تجدد الأمل واقتربت ساعة حصاد كل السنوات التسع.. ودخلت هذا الامتحان الشاق الذى كان يتم للمتقدمين لنيل الثانوية الأزهرية.. وحين ظهرت النتيجة، كنت الثالث بين كل الناجحين على مستوى الجمهورية سنة ١٩٤٤، وسعدت بهذا النجاح والتفوق، وسعدت أسرتى، وسعد الأصدقاء والجيران، ووزع أخى ـ كعادته ـ المرطبات، وزاد هذا العامَ على كل ما كان منه فيما مضى من أعوام، لأن النجاح فى هذه المرة فى شهادة عامة لا تنال إلا بعد دراسة شاقة تستغرق تسع سنوات متصلة، وتؤهل حاملها للالتحاق بدار العلوم، التى كان الالتحاق بها ـ طيلة المرحلة الثانوية ـ منتهى أملى وأمل أسرتى، لى ولأخى الذى يلينى ويتبع فى دراسته مسيرتى..

المرحلة الثالثة

المرحلـــة الجامعيـــة

(١)

أمل كبير يتحقق:

كان الالتحاق بدار العلوم بعد إتمام المرحلة الثانوية أملا كبيرا، لأنه كان يمثل التحول من مجال الدراسة القديمة المثقلة بالقيود المرهقة، إلى ميدان الدراسة الحديثة المستمتعة بالحرية المسعدة. كما أن مستقبل المتخرجين فى دار العلوم كان أكثر ازدهارا، ومجالاتهم أفسح انفتاحا، ووضعهم فى المجتمع أحسن قبولا. كل هذا بالإضافة إلى مسألة تغيير الزى الرسمى، من زى الشيوخ الذى يُفْرض على مرتديه قيودا تُضْجِر، إلى زى «الأفندية» الذى يتيح للابسيه أن يعيشوا كما يعيش الناس، بعيدين عن التحرج واصطناع التَّوَقُّر.. وبالنسبة لمثلى ـ ممن يهوون الأدب ويتطلعون إلى التفوق فى الشعر ـ قد كان أمل الالتحاق بدار العلوم أقوى والرغبة فى التحول إليها أشد، لأن الأدب ـ وخاصة الشعر ـ محتاج إلى مناخ من الحرية أكثر رحابة وأوسع أفقا، كما كانت الرموز الأدبية من المتخرجين فى دار العلوم تمثل قدوة متألقة تجذب نظر مثلى، وتغريه بأن يأخذ طريقها ويتبع خطاها، لعله يتألق ـ يوما ـ مثلها.. وكان من هذه الرموز، على الجارم ومحمود غنيم وعلى الجندى ومحمود حسن اسماعيل من أعلام الشعر، وسعيد العريان وعبد المنعم خلاف وسيد قطب من أعلام النثر..

وهكذا أسرعتُ بالتقدم إلى دار العلوم، التى كانت تعقد للمتقدمين إليها امتحانا تحريريا عسيرا فى أهم فروع اللغة العربية والدراسات الإسلامية، بالإضافة إلى اختبار شفوى فى حفظ القرآن الكريم كله، وكشف طبى دقيق، وكشف على الهيئة أدق.. ومَنّ الله على بالنجاح واجتياز كل الامتحانات والاختبارات، وظهرت النتيجة تزف إلىّ أنى أصبحت طالبا بدار العلوم، ضمن نحو مائة من الطلبة الجدد، الذين تم اختيارهم من بين مئات.

وأعددنا الزى الجديد الذى كان من مفرداته الطربوش، الذى كان غطاء الرأس فى تلك السنوات، قبل التخلص منه مع ثورة الخمسينيات.. وحضرت إلى القاهرة لأنتظم فى الدراسة، ولم يكن قد دُبِّر لى مسكن أعيش فيه بالقاهرة، فلجأت أولا إلى مسكن شقيقتى المزوجة من ابن عمى فى المطرية، ثم اختصرت المسافة، ونزلت ضيفا - فى المبيت فقط - عند عم لوالدتى يعيش بحى السيدة زينب، إلى أن أستطيع تدبير مسكن أستقر فيه.. ثم انتقلت إلى حيث يسكن زميل لى حديث الالتحاق بدار العلوم مثلى، كان قد استطاع أن يجد مسكنا بحى السيدة، هو فى الأصل لقريب له يعمل رساما، وقد ترك له مسكنه بصفة مؤقتة.. وعشنا أنا وهذا الزميل معاً فى هذا المسكن عدة أسابيع، ثم فوجئنا بالساكن الأصلى يحضر ذات ليلة ويطلب منا أن ندبر لنا مسكنا آخر على وجه السرعة، لأنه محتاج إلى مسكنه.. وفى الصباح نادينا صاحب عربة «كارو» وطلبنا إليه أن يحمل أمتعتنا ويذهب بها إلى أى مسكن مناسب، وكان ذلك ممكنا فى تلك السنوات، حيث المساكن موفورة، ويستطيع المحتاج إليها أن يجدها فى كل الأحياء وبكل المستويات دون كبير عناء.. ومضى صاحب العربة بأمتعتنا إلى مسكن يعرفه فى الحى نفسه، استقرت به معيشتنا بعض الاستقرار، وتمكننا من التفرغ لدراستنا شيئا من التفرغ..

□□□

مفارقات فى المقررات ونظم الامتحانات:

وكنت قد انتظمت فى الدراسة منذ اليوم الأول مع الزملاء الجدد، ودخلت مدرج على مبارك، أكبر وأعرق مدرجات الكلية فى مبناها القديم بالمنيرة، وتلقينا

محاضرة فى الأدب الجاهلى كان ملقيها هو الأستاذ محمد هاشم عطية، الذى بهرنا ببيانه الأخاذ وعلمه الغزير وسمته الجذاب وسخريته اللاذعة ودعاباته البارعة. ولفت نظرنا أن عددا كبيرا من الطلاب غير الجدد قد شاركنا حضور المحاضرة، وعرفنا بعد ذلك أن لهذا الأستاذ لونا من الجاذبية، يجعل كثيرين من الطلاب يحضرون محاضراته بصفة غير رسمية.. ثم أخذنا نتنقل بين قاعات الدروس ومدرجات المحاضرات، نصغى إلى أكثر الأساتذة منبهرين، ونتعرف عليهم سعداء فخورين، ونجد فى أغلب الأحيان جديدا ومتطورا فيما نسمع من دراسات عربية وإسلامية، ونضيق فى الوقت نفسه بما كان مقررا من علوم رياضية وطبيعية وتجريبية. فقد كانت المقررات تضم ـ إلى الدراسات العربية والإسلامية ـ مقررات فى هذه الفروع التى كانت تسمى العلوم الحديثة. بل أكثر من هذا، كان هناك لطلبة الفرقة الأولى درس فى الرسم والأشغال، وكان يراد بذلك كله صقل الآتين من الدراسة الأزهرية، وتهيئتهم تهيئة جيدة لمرحلتهم الجامعية.. والحق أننا كنا نستشعر المفارقة فى هذا البرنامج الدراسى الذى يجمع بين مواد أساسية، من شأنها أن تكون للكبار المتخصصين، وأخرى إضافية، المفروض أن تكون للتلاميذ العاديين.. ولكنا صبرنا على هذه المفارقة التى كنا نتنقل فيها من محاضرة فى الأدب أو النقد أو البيان، إلى درس فى كيفية صنع علبة طباشير، أو رسم قلة أو فنجان.. أجل صبرنا حبا فى دار العلوم، وانتظارا لمرور السنتين الأولى والثانية، اللتين كانتا تزدحمان بهذه المواد الاضافية التى تمثل مفارقة دراسية..

□□□

على أن أشد ما كان يقلقنا فى أول التحاقنا بدار العلوم، هو تلك اللائحة القاسية التى سببت للكثيرين رعبا شديدا، بل جسدت تهديدا مزعجا، واحتاجت إلى أعصاب حديدية للتعامل معها والرضوخ لمقتضياتها.. فقد كان الرسوب فى السنة الأولى يؤدى إلى الفصل، فلا إعادة لطالب يرسب فى تلك السنة. وكان الرسوب يتحقق ولو

فى مادة واحدة.. كذلك كان الرسوب بعد السنة الأولى تفرضه مادة مفردة لم ينل فيها الطالب النهاية الصغرى، التى كانت ستين فى المائة للعلوم العربية والاسلامية، وخمسين فى المائة لباقى المواد. فرسوب طالب فى مادة واحدة ـ أيا كانت ـ يسبب إعادة السنة الدراسية كلها فى جميع المواد، حتى ولو كان الراسب فى تلك المادة الواحدة قد نال فى المواد الأخرى أعلى الدرجات.. وبعد تحريم الرسوب فى السنة الأولى، ثم فرض إعادة السنة فى كل المواد بسبب الرسوب ولو فى مادة واحدة، يأتى خطر آخر، وهو عدم إباحة الرسوب أكثر من مرة واحدة فى الكلية، فمن أعاد الدراسة فى سنة لرسوبه ولو فى مادة، يفصل إذا تكرر هذا الرسوب فى أية سنة بعد ذلك.. وهكذا كنا يقال لنا: «أنكم مكتوبون فى دار العلوم بالقلم الرصاص».. وهكذا أيضا كنا نعيش فى السنوات الأخرى مستشعرين الخوف، حيث يمكن أن يعيد الواحد منا السنة كلها لرسوبه فى مادة واحدة، وحيث يمكن أن يتم الفصل ولو فى السنة النهائية، للرسوب للمرة الثانية بعد أن حدث فى عام سابق للمرة الأولى..

□□□

كثير من الإيجابيات لدار العلوم فى تلك السنوات:

لكن هذا القلق والخوف، كان يعوضهما الاستماع إلى أساتذة كبار، فتحوا أمامنا مغاليق كثيرة، وأناروا لنا طرقا عديدة، وأفسحوا لثقافتنا مجالات الدراسات اللغوية والأدبية والإسلامية، فعرّفونا أن علم العربية ليس مجرد النحو والصرف والعروض، وإنما هو كذلك علم اللغة وعلم اللهجات وعلم الأصوات.. كما عرفونا أن الدراسة الأدبية ليست فقط تأريخا لتطور الشعر والنثر عبر العصور، وإنما هى كذلك النقد الأدبى ومعرفة المذاهب الأدبية، والمقارنة بين الأدب العربى وبعض الآداب العالمية.. كذلك عرفونا أن الدراسات الإسلامية لا تقف عند الفقه والتفسير والحديث، وإنما تتجاوز هذه العلوم إلى علم الأصول ودراسة المذاهب ومقارنة الأديان، ثم إلى كل ما يتصل بالفكر الإسلامى فى منابعه ومصارده وقضاياه وأعلامه..

على أنه كان هناك شيء آخر يسعدنا بدار العلوم، ويجعلنا نصبر على مافى لائحتها الدراسية من قسوة، وهذا الشيء هو منح الطلاب أهم المراجع الأساسية مجانا، بالإضافة إلى تقديم وجبة غداء طيبة، تعين الدارسين ـ وخاصة الغرباء ـ على كثير من الاستقرار المعيشى المرضى. فإذا أضيف إلى ذلك ماكان من أنشطة رياضية واجتماعية وفنية تسعد الطلاب وتخرج بهم من تلك العزلة التى كانت مفروضة عليهم أثناء المرحلة الثانوية، إلى مستوى لا بأس به من التواصل الاجتماعى والتفتح الحضارى؛ عرفنا كيف كانت الحياة فى دار العلوم تمثل مرحلة دراسية مسعدة وجميلة إلى حد كبير...

□□□

ضم دار العلوم إلى جامعة القاهرة:

وتوالى النجاح من سنة إلى سنة فى دار العلوم. وفى السنة الثالثة، تم ضم الدار إلى جامعة القاهرة، بعد أن كانت مدرسة عالية تتبع وزارة المعارف. وعدّل منهج الدراسة فيها، وتشعبت إلى أقسام متخصصة، بعد أن ألغيت تلك المواد الثانوية والتكميلية المقحمة.. وكان من أعظم ما حققه ضم دار العلوم إلى الجامعة، هو فتح الأبواب لآمال أكبر، وإضاءة الطريق لمستقبل أعظم، حيث وضعت خطة لتكوين هيئات تدريس أدق تخصصا وأكثر تفتحا، وذلك عن طريق التوسع فى إيفاد مبعوثين للتخصص فى الخارج، أو عن طريق اختيار معيدين ـ لأول مرة ـ من المتفوقين ليتموا دراستهم العليا فى الداخل.. وأذكر أن ضم دار العلوم إلى الجامعة قد تم سنة ١٩٤٦، ووزير المعارف هو الدكتور السنهورى. وأذكر كذلك أن عميد الكلية حينذاك كان الأستاذ زكى المهندس، وأنه اصطحب وفدا من بعض الأساتذة والطلاب، لشكر الوزير الذى كان له جهد مشكور فى هذه النقلة العظيمة لكليتنا العزيزة. وأذكر أيضا، أنى كنت ضمن هذا الوفد الذى اختاره الأستاذ العميد للقاء الوزير وأنى ألقيت أثناء هذا اللقاء أبياتا من الشعر، عبرت فيها عن الشكر الجزيل للوزير الجليل..

□□□

وأمضيت السنتين: الثالثة والرابعة فى دار العلوم الكلية الجامعية، بعد أن أمضيت السنتين الأولى والثانية فى دار العلوم المدرسة العالية.. وقد أفدت كثيرا من المناهج الجديدة المتطورة، وخاصة فى الدراسات الأدبية، وأعجبت أشد الإعجاب بالنقد الأدبى والأدب المقارن، وبأستاذهما الدكتور ابراهيم سلامة. كما أعجبت كثيرا بالدراسات اللغوية الحديثة التى اهتم بها الدكتور ابراهيم أنيس.. كذلك استضأت كثيرا بالتجديدات النحوية الذكية التى طرحها الأستاذ ابراهيم مصطفى، الذى ربحته الكلية منقولا إليها من آداب الإسكندرية. واستضأت كذلك بالنظرات المستنيرة التى كانت للشيخ على حسب الله أستاذ الشريعة الإسلامية. الذى تفرد بين كل الأساتذة بطابع الصرامة فى التعامل مع الطلاب أثناء الدراسة، وبالتشدد معهم أثناء الامتحان، ولكنه كان فى كل الأحوال الأستاذ الغزير العلم والمربى الصادق الحزم.. ولا عجب أن رأينا من أبنائه الوزير المهندس صلاح حسب الله، والطبيب اللامع عبد المنعم حسب الله..

□□□

روافد ثقافية جديدة فى تلك المرحلة:

وكانت مرحلة دار العلوم ذات أثر كبير فى توسيع ثقافتى، واهتدائى إلى روافد جديدة ثرية عمقت معارفى، وأسهمت فى تكوين شخصيتى.. ففى هذه المرحلة عرفت «صالون العقاد» ويرجع الفضل فى هذا إلى زميل لى من الزقازيق لحق بى فى دار العلوم، وهو الصديق محيى الدين الحلوانى، الذى كان أكثر منى جرأة وأقوى بطبيعته على المغامرة، ـ فقادنى ـ بعد تردد منى ـ إلى جلسات العملاق الكبير، التى كانت تعقد فى بيته فى مصر الجديدة صباح أيام الجمع.. وفى «صالون» العقاد عرفت عددا غير قليل من المفكرين والأدباء، ومن الفنانين والشعراء. وأهم من ذلك أنى استعمت إلى العقاد العملاق، وأفدت الكثير من وصاياه وتوجيهاته، كما وعيت الغزير من أفكاره ونظراته.. ومازلت أذكر تلك الجلسة التى ناقشته فيها ـ على

استيحاء - في موضوع الشيوعية، سائلا عن سبب كرهه لها والزراية بمبادئها، وقلت له: أليس مما يحسب لهذا المذهب أنه يوفر الغذاء والكساء والمأوى لكل مواطن؟ فما كان منه إلا أن أجابنى بحزم قائلا: «يامولانا، إن السجون والملاجىء هى أعظم ما يوفر الغذاء والكساء والمأوى، وإن العبرة يا مولانا ليست بتوفير هذه الأمور، وإنما العبرة بتوفير الحرية، والحرية لا وجود لها عند الشيوعية».. كذلك مازلت أذكر تلك الجلسة التى ناقشته فيها - على استحياء أيضا - فى موضوع كراهيته للإخوان المسلمين، ولما قلت له: إن هؤلاء يطالبون بشئ مفروض لمصلحة المجتمع، وهو تطبيق الحدود الشرعية، رد فى ثقة وإفحام قائلا: «يامولانا، لو طبقنا الحدود الشرعية فى مجتمع ملىء بالسلبيات الأخلاقية وخراب الذمم ووفرة المكايد وشيوع الرشوة وانتشار شهود الزور، لأمكن أن يقام حد السرقة مثلا على مثلك وأنت برئ، لأنه يمكن تدبير شهود يشهدون عليك زورا أنك سرقت خزانة نقودى مثلا، وهذا التدبير الظالم جريمة أفظع من عدم تطبيق الحدود الآن. وإرجاء أمرها إلى أن يتم إصلاح المجتمع، بحيث يكون مجتمعا إسلاميا حقيقيا، لا تسخر فيه مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية لأغراض غير إسلامية».

□□□

وفى هذه المرحلة أيضا عرفت طريقى إلى الأماكن التى تلقى فيها أعظم المحاضرات وتدار أقوى المناظرات وتعقد أجمل الندوات، والتى يرى فيها كبار العلماء والأدباء، وألمع المفكرين والشعراء.. ومن هذه الأماكن، دار الحكمة، والجمعية الجغرافية، وقاعة «إيوارت» التذكارية، وجمعية الشبان المسلمين، ورابطة الأدباء، ونادى دار العلوم، ومدرجات كلية الآداب، التى كانت تتم فيها مناقشات الرسائل الجامعية. وفى هذه الأماكن رأيت لطفى السيد ومنصور فهمى وطه حسين وعبد الوهاب عزام وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وزكى مبارك، كما رأيت خليل مطران وعلى الجارم وعلى محمود طه، وابراهيم ناجى ومحمود حسن اسماعيل.

(٢)

بداية الظهور فى الحياة الأدبية:

وفى هذه المرحلة الجامعية عرفت طريقى إلى النشر فى كبريات المجلات، والمشاركة فى بعض المحافل والندوات، كما عرفت طريقى إلى الإذاعة حُلْمِ كل شادٍ فى الأدب فى تلك السنوات. فقد راسلت مجلة الرسالة، فنشرَ لى صاحبها الأستاذ الزيات قصيدة بعنوان «من وحى المصيف». ثم زرته فى مقر المجلة بعابدين وسعدت بلقائه سعادة كبرى، وقدمت إليه قصائد أخرى تفضل بنشرها كسابقتها، ولكنه لقّبنى فى المجلة بالأديب، وكان قبل أن يرانى يلقبنى بالأستاذ.. وفى مجلس الزيات رأيت الأستاذ توفيق الحكيم لأول مرة، وقد وضع على رأسه «البيريه». وأذكر أن الأستاذ الزيات تعجب وسأله مداعبا: «أين الطربوش يا توفيق؟» فقال ضاحكا: «قد اختطفه العساكر الإنجليز». ولست أدرى إن كان ما قاله الحكيم جدا أم مزاحا، فقد كان الجنود الإنجليز لايزالون ينتشرون فى شوارع القاهرة التى لهم بها ثكنات قرب جسر قصر النيل، وفى المكان الذى به الآن جامعة الدول العربية وفندق «هيلتون» ومبنى المجالس القومية المتخصصة..

□□□

كذلك نَشرتُ بعض شعرى ـ أثناء تلك المرحلة ـ فى مجلة الثقافة، وكنت قد زرت بمقرها بعابدين، الأستاذ أحمد أمين الذى استقبلنى بأبوة وحنان، قوبلا منى بكل الإجلال والعرفان..

كما شاركتُ ـ وأنا فى هذه المرحلة ـ فى بعض الندوات الشعرية الكبيرة، كتلك الندوة التى أقامتها الكلية فى مسرح الأزبكية، احتفالا بذكرى مولد محمد رسول البشرية.. وشاركت أيضا مع بعض الزملاء ـ لأول مرة ـ فى أمسية شعرية مذاعة من الإذاعة المصرية، وأذكر أن المذيع الذى قدمنى، كان الأستاذ سعد عبدالوهاب ابن شقيق مطرب الأجيال، وكان يعمل مذيعا آنذاك بعد تخرجه فى كلية الزراعة، وقبل اشتغاله بالغناء والتمثيل.. كما أذكر أن المسئول الذى أجاز الأشعار وحدد لنا موعد الإذاعة على الهواء ـ قبل شيوع التسجيلات ـ هو الإذاعى الكبير الأستاذ على خليل..

□□□

كذلك اشتركتُ فى هذه المرحلة فى بعض المناظرات الكبيرة، وكان من أهمها تلك المناظرة التى عقِدت بدار الحكمة، وكان موضوعها: «أيهما تختار مصر فى سياستها الخارجية، موقف الحياد أم موقف التكتُّل؟». وكان ذلك قبل ثورة يوليو وظهور حركة عدم الانحياز، التى أصبح موقفها الحيادى هو الموقف الأساسى لسياسة مصر.. وفى هذه المناظرة اتخذت الرأى المنادى بالحياد، إلى جانب الأستاذ فكرى أباظه، كما اتخذ صديقى ثروت أباظه ـ طالب الحقوق حينذاك ـ الرأى المقابل، إلى جانب الدكتور حسين كامل سليم، عميد كلية التجارة فى ذاك الوقت، وممثل مصر فى هيئة الأمم فيما بعد.. وأذكر أن رئيس تلك المناظرة، كان الدكتور محمد صلاح الدين، وزير الخارجية فى وزارة الوفد.

□□□

كذلك كان من أهم تلك المناظرات التى شاركتُ فيها، مناظرة عقدت بقاعة الجمعية الجغرافية، وكان موضوعها: «أيهما أنفع لإبداع الأديب، حياة الترف

والنعيم، أم حياة البؤس والحرمان؟». وأذكر أنى كنت مع الدكتور الشاعر ابراهيم ناجي نؤيد ترف الأديب وتنعمه، كما كان الدكتور مظهر سعيد ومعه بعض الزملاء يؤيدون بؤس الأديب وحرمانه.. ولايفوتنى أن أذكر أن الفضل فى تنظيم هذه المناظرات يرجع إلى الصديق محيى الدين الحلوانى، الذى كان يتحمس لها ويدفعنى إلى المشاركة فيها، ويبذل أقصى الجهد لإنجاحها والإعلان عنها.

□□□

وفى تلك المرحلة أيضا عرفتُ جماعة أدباء العروبة، وكنت قريبا ـ إلى حد ما ـ من رئيسها حينذاك الأستاذ دسوقى أباظة، حيث توثقتْ صداقتى بابنه العزيز ثروت، وحيث عَرفتُ فى مجلسه عددا من الشعراء الموهوبين، مثل أحمد الغزالى والعوضى الوكيل وأحمد مخيمر وطاهر أبو فاشا.

□□□

كما عرفت أيضا ـ عن طريق بعض الزملاء فى الزقازيق ـ الشاعر محمد العلائى، الذى درس فى الأزهر وكلية الآداب، ثم نال الدكتوراه من انجلترا فيما بعد، والذى كان من أهم أعلام مجموعة «أصدقاء الضحك القديم»، التى كانت تنشط لقاءاتها فى الزقازيق أيام العطلات وأثناء الإجازات، والتى لى مع أفرادها ـ وخاصة العلائى ومرسى عزيز ـ أجمل الذكريات...

□□□

التخرج والفوز بالأولية:

وقد خُتِمت تلك المرحلة ختاما رائعا بفضل الإيمان والإصرار وروح التحدى، وقبل كل ذلك بفضل الله الذى بغير توفيقه لاشئ يجدى.. وذلك أننى كنت أجلس مع بعض الزملاء قبل امتحان الليسانس بنحو شهر، وأدرنا الحديث حول من سيكون الأول فى هذا الامتحان، فقال أحد الزملاء: فلان، وذكر زميلا، وقال ثان: بل فلان، وسَمَّى زميلا آخر، وقال ثالث: لا هذا ولاذاك بل فلان، وعين زميلا غير السابقين،

كل هذا ولم يذكر أحد اسمى، فاستفزنى ذلك الموقف، وثرتُ ـ فى داخلى ـ لكرامتى، وقلت للزملاء: «أراكم تتجاوزوننى وتذكرون زملاء غيرى ولاتشعرون أنكم تبخسوننى قدرى. إننى سوف أكون أول فرقتنا ـ إن شاء الله ـ هذا العام، وسوف تتحققون وتخيب منكم الظنون».. فأخذ بعضهم يتعلل بأنهم لم يتوقعوا لى الأولية لأنى شاعر، ولأنى مشغول أكثر بالأدب، مهتم أشد بالندوات والمناظرات. فقلت: «ومع ذلك سأكون الأول ـ إن شاء الله ـ هذا العام، وسوف تتحققون، وتأتى النتيجة على غير ما تتوقعون».. وانصرفوا بين مصدق ومكذب ومتردد، وانصرفتُ وقد ملأتْ روح التحدى كيانى كله، واستعددت للامتحان كأحسن مايكون الاستعداد، وفى تقديرى أنى سأحقق حلمى فى الأولية، وأمهد بذلك لمستقبلى فى الأستاذية الجامعية.. ودخلتُ ذاك الامتحان العسير، الذى كان يتم كل يوم فى مادتين، ولايعطى الطلاب فرصة كافية للمراجعة بين امتحان فى مادة وامتحان فى أخرى على الوجه الذى يحدث الآن .

□□□

وانتهى الامتحان التحريرى بسلام، وتبعه الامتحان الشفوى الذى أصْغَى فيه الممتحنون إلى بعض أشعارى، بعد أن أوسعونى أسئلة فى كل علوم العربية، وشعرت ـ رغم قسوتهم ـ برضاهم وسعادتهم، فاطمأن قلبى، وانفسح الأمل فى الأولية أمامى.. وظهرتْ النتيجة صيف سنة ١٩٤٨ وعرفتُ أنى أول الناجحين. وفرحت كثيرا، ولكن غَضَّ من فرحتى بعض الشئ أمران: الأول أن نجاحى كان بتقدير جيد جدا، ولم أظفر بتقدير ممتاز، رغم أنى نلت هذا التقدير فى أكثر المواد. وحين تحريت السبب، عرفت أن أستاذى الدكتور ابراهيم سلامة قد أعطى بحثى الخاص بأعمال السنة تقدير مقبول، الأمر الذى نزل بتقديرى العام إلى درجة جيد جدا، وأضاع علىّ الامتياز. وعجبت أكثر لأن هذا البحث كان يتداوله بعض الزملاء قبل تقديمه للأستاذ، وكانوا يعجبون به ويفيد بعضهم منه، بل إن بعض من أفادوا من بحثى نالوا عند أساتذة آخرين تقدير الامتياز.. ولكن «رُبَّ ضارة نافعة»، فقد أرضانى الدكتور

سلامة، وأحسست منه ـ وقد أكون مخطئا ـ أنه أعطى تقدير بحثى على عَجَل. ووعدنى أنه سيعوضنى عن هذا الذى حدث لى. وفعلا عوضنى ـ رحمه الله ـ خيرا، وظل يحنو علىّ ويقدم الخير إلىّ، وكأنى أحد أبنائه ولست مجرد واحد من تلاميذه.. والأمر الثانى الذى غض نوعا من فرحتى بالنجاح والتفوق، أنى وجدت اسمى قد وضع فى قائمة الناجحين دون أن يُشفع بما يدل على أننى الأول. ولما سألت، عرفت أن التقاليد الجامعية ترتب أسماء من أخذوا تقديرا واحدا ترتيبا أبجديا فقط، قد يُكتب فيه اسم من ليس الأول سابقا لاسم صاحب الأولية، لأن حروف الاسم تفرض هذا. وحاولت لَدَى الكلية إصلاح الوضع فلم أستطع، ولكن صديقا وزميلا لى، كان يعمل ـ وهو طالب ـ فى جريدة الأساس ـ إحدى الصحف الكبرى فى تلك السنوات ـ قد رأى من الظلم ألا آخذ حقى فى إعلان أوليتى بشكل واضح يراه الجميع، حيث لايكفى أن تكون معروفة فى السجلات وبين العاملين فى مراقبة الامتحانات. فتأكد هذا الزميل أولا كصحفى من أننى الأول ثم حصل على قائمة النتيجة لنشرها فى الأساس، وكتب بيده إلى جانب اسمى ما يفيد أوليتى ودفع بالقائمة إلى مطبعة الجريدة، وظهرت أوليتى معلنة مؤكدة.. ومازلت ممتنا لهذا الصديق المنصف، ابراهيم حسّاب، سائلا الله أن يجزيه عنى أكرم الثواب..

□□□

بين معهد التربية ووزارة المواصلات إلى وظيفة معيد:

وحلمتُ بأن أعين معيدا فى الكلية فور تخرجى وحصولى على الأولية. وانتظرت فترة ولم يتحقق الحلم، فاتجهت إلى ما يتجه إليه معظم المتخرجين فى دار العلوم، وهو التدريس فى مدارس وزارة المعارف، إلى أن يأتى الفرج ويتحقق الحلم.. وكان على من يتجه إلى أن يعمل مدرسا أن يلتحق بمعهد التربية العالى، فالتحقت بهذا المعهد الذى كان أيامها فى المنيرة قرب دار العلوم، ولكنى ضقتُ به من أول الأمر، ربما لأن التدريس بالمدارس لم يكن أملى، وبالتالى كان الطريق إليه ـ وهو المعهد ـ

لا يتـفق مع خطتي.. وتَطوّعَ صـديقي مـحيي الدين الحلواني بالحـديث عني مع الأستاذ دسوقي أباظة الذي كان يحبه ويقربه، والذي كان وزيرا للمواصلات في تلك السنوات، فـمـا كـان مَن هذا الوزير الأديب إلا أن أصـدر قـرارا بتـعـيـيني في وزارته، لألحق بجماعة الأدباء والشعراء الذين يعملون في مكتبه.. وأعددتُ الأوراق المطلوبة كمسوغات تعيين، ولكن قبل التقدم بهذه الأوراق إلى وزارة المواصلات، صدر قرار من رئيس جامعة القاهرة ـ الدكتور ابراهيم شوقي ـ بتعييني معيدا في كلية دار العلوم فكنتُ بذلك أول مـعيـد في تاريخ الكليـة.. وكـان ذلك في شهـر يناير سنة ١٩٤٩، وكان الفضل في تعييني للأستاذ ابراهيم مصطفى، الذي كان عميد الكلية آنذاك... وسعدتُ سعادة غامرة بهذا التعيين، لأنه حقق حلمي أولا في أن أضع قدمي على أول الطريق إلى الأستاذية الجامعية، ثم لأنه أنقذني من التلمذة في معهد يسلمني بعد جهـد إلى التـدريس على الأكثر في المدارس الثانوية.. وهكذا سلمتُ أوراقي إلى دار العلوم بعد أن أعـددتهـا لتـسلم إلى وزارة المواصـلات، كـمـا تحـولت من طالب في المعهـد، أجلس بين الطلاب لأستمع إلى محاضرات في التربية وعلم النفس وطرق التدريس، إلى محاضر في كلية دار العلوم، أجلس على المنصة ـ كالأساتذة ـ أُلقِي على الطلاب محاضرات في البلاغة والنقد.. فقد اجتهد الدكتور ابراهيم سلامة لكي أكون معيدا بالقسم الذي يرأسه، وتفضل بتقديمي إلى الطلاب في مدرج علي مبارك تقديما طوّق به عنقي، وكـان مما قال وأنا أقف إلى جانب كرسيه: «إنني أنتظر هذا اليوم الذي تزول فيه هذه المسافة القـصيرة بين مقعدي هذا وبين ابني أحمد، لأراه يجلس مكاني ويخلفني في أسـتـاذيتي».. وصـفق الطلاب، وفـرحـوا بما سـمـعـوا، وعاونوني كثيرا فيـما بعد على النجاح في عملي. فعلى الرغم من أنٍ كثيرين منهم كانوا أصدقائي، وعلى الرغم من أن بعضهـم ـ ممن تخلفوا ـ كانوا من قبل زملائي، وعلى الرغم من أن طلاب دار العلوم لم يروا قبلي واحدا في سِني يقف موقف المعلم لهم، ويعتلي المنصة ليحاضرهم؛ على الرغم من كل ذلك، كـان موقفهم في غاية الالتزام والجدية، بل كـان المثل الرفيع في استقامة السلوك والروح الجامعيـة.. فقد

عاملونى باحترام كامل، وأصغوا إلىّ بهدوء شامل، وأحسست أنهم وجدوا فى نجاح تجربتى إفساحا للطريق أمام آمالهم، حيث تطلّع كثيرون منهم إلى أن ينالوا من النجاح مانلت، وأن يحققوا من الآمال ما حققت.. ونتيجة لهذا التأسى وانفتاح الأمل أمام الطلاب بسبب نجاح تجربتى، نال ثلاثة فى السنة التالية تقدير ممتاز، وكان من بينهم صديقى عبدالحكيم بلبع، الذى تَقَوّت صلتى به منذ تلك الأيام، والذى واصل دراسته العليا حتى نال الدكتوراه، وأصبح من ألمع أعضاء هيئة التدريس بالكلية.

□□□

وأذكر أن هذا الموقف من جانب الطلاب، كان أكرم بكثير من موقف بعض الأساتذة، الذين كانوا يشعروننى بشئ من الغربة، ويتلقوننى بشئ من الفتور، وكأنهم فى داخلهم يستنكرون أو يتعجبون من أن يقف شاب صغير مثلى، موقف المعلم مثلهم، ويقرب من حمى الأستاذية الذى وصلوا إليه بعد أن تقدمت بهم السن وتقلبت المناصب.. وأشهد أن هذا لم يكن موقف كل الأساتذة ولا أكثرهم، وإنما كان موقف قلة حديثة العهد بالحياة الجامعية.. واستطعت بتوفيق الله وحسن استقبال الطلاب وتشجيع أكثر الأساتذة، أن أنجح فيما أسند إلىّ من أعمال.. لكننى ـ على الرغم منى ـ كنت أستحى أن أجلس فى الحجرات التى تضم أعضاء هيئة التدريس، وكنت غالبا أجلس فى المكتبة، حتى لا أحرج نفسى وأحرج غيرى بالجلوس حيث يجلس أساتذتى... وأذكر أن العميد الأستاذ ابراهيم مصطفى طلبنى لبعض الأمور فلم يجدنى، وحين تكرر ذلك، سألنى عن المكان الذى اختاره لأوقات راحتى، ولما أخبرته بأنى أوثر المكتبة لأبتعد عن مواطن الإحراج فى غرف هيئة التدريس، قال لى مشجعا: «بل اجلس فى حجرة الأساتذة، لتتعود عليهم وتفيد منهم، وأمامك فى تلك الحجرة مكتب لى، استعمله بدلا منى...»

□□□

(٣)

تغيير المسار والفوز ببعثة:

ظللتُ أعمل معيدا عاما وبعض عام، وكنت قد بدأت أُعدّ رسالة لنيل درجة الماجستير عن «الشعر فى السودان»، وكتبتُ فعلا جزءا من الرسالة.. وفجأة تغير كل شئ، فقد أنشأ وزير المعارف الدكتور طه حسين «معهد مدريد للدراسات الإسلامية» أواخر سنة ١٩٥٠، ورأى أن يبعث إلى إسبانيا ببعض الشباب الجامعيين ليتموا دراساتهم العليا بها، متخصصين فى الدراسات الأندلسية، على أمل أن يكونوا ـ فيما بعد ـ عاملين فيما أُنشِئ المعهد من أجله، وهو البحث فى الحضارة الإسلامية فى الأندلس، ودراسة هذه الحضارة تاريخا وفكرا وأدبا وفنا، ثم ليكون هؤلاء المتخصصون النواة لمدرسة مصرية للدراسات الأندلسية..

□□□

وطلب الدكتور طه حسين من عميد دار العلوم ـ الأستاذ ابراهيم مصطفى ـ ترشيح من يراه ليُضَمّ إلى هذه البعثة المصرية الأولى، المتجهة إلى العاصمة الإسبانية. فرشحنى ـ رحمه الله ـ مع أستاذ فاضل، هو الأستاذ أحمد بدوى، الذى كان يعمل مدرسا بالكلية، ولم يكن نال درجة الدكتوراه حتى ذلك الوقت. وحين وُضِع الترشيح بين يدى الدكتور طه حسين، اختارنى ربما لصغر سنى.. ووجَدْتنِى أحوِّل

مساری من دراسة «الشعر السودانی» والإعداد لدرجة الماجستير فی دار العلوم، إلی التأهب لدراسة الأدب الأندلسی، والإعداد لنيل درجة الدكتوراه من جامعة مدريد...

□□□

القلق العام أثناء المرحلة الجامعية:

وكان المناخ العام فی تلك السنوات وأثناء تلك المرحلة الجامعية، هو مناخ نهاية الحرب العالمية الثانية، وما أعقب تلك الحرب من أحداث قومية ووطنية.. وكان من أبرز تلك الأحداث، قيام الدولة الإسرائيلية بعد هزيمة الجيوش العربية، نتيجة للمساندة الغربية لإسرائيل، ونشوب الخلاف والضعف بين صفوف العرب.. كما كان من أهم الأحداث فی تلك الفترة، اشتداد الصراع بين الأحزاب، واغتيال بعض الساسة والزعماء، مثل أمين عثمان وأحمد ماهر وحسن البنا والنقراشی..كما كان من أهم الأحداث كذلك، كثرة المظاهرات الطلابية التی تنادی بتحقيق الاستقلال التام وخروج الإنجليز من مصر. وكان من نتائج تلك المظاهرات حادثة «كوبری» عباس الشهيرة، التی أصيب فيها عدد غير قليل من الطلاب الجامعيين الوطنيين المتحمسين..

وفی تلك السنوات انتشرت الأفكار اليسارية أكثر من أی وقت مضی، وذلك بعد تزايد الاتصال بالاتحاد السوفيتی، نتيجة لانضمامه للحلفاء فی الحرب الكبری الثانية، ولكون منطقة الشرق الأوسط ــ ومنها مصر ــ مؤيِّدة ــ علی المستوی الرسمی ــ لهؤلاء الحلفاء.. وكانت نتائج ذلك كله أن أصبحت البلاد فی حالة من القلق والتوتر والمعاناة، أشبه بحالة الحَمْلِ الذی ينتظر المخاض ويترقب ساعة الميلاد..

□□□

وكنت أستشعر هموم بلدی وأعانی منها كما يعانی أكثر الشباب المثقف فی تلك السنوات.. وكنت دائما أعمل علی تحمل نصيبی من العمل القومی والوطنی. وحاولتُ أول الأمر أن أجد لی دورا عن طريق الأحزاب القائمة، فلم تعجبنی طرق الأحزاب جميعا، لغلبة الصراعات عليها، ولعمق العداوات بين أتباعها، ولاتخاذها

أسلوب المناورات والالتواءات فى ممارساتها، وكلها أمور ينفر منها طبعى، ولاتتفق مع قيمى.. ثم حاولت بعد ذلك أن أجد لى دورا مستقلا عن طريق الإسهام فى التجمعات الطلابية والأنشطة السياسية الجامعية، فوجدت أن السياسة الحزبية تستقطب الغالبية من الطلاب، وتدفعهم إلى مواجهات تصل إلى حد التصادم المسلح فى بعض الأحيان.. فضقت بالعمل السياسى والطلابى. واكتفيت باجترار الألم مريرا، والانطواء على النفس كثيرا، وبالتنفيس عن الهموم القومية والوطنية عن طريق الاشتراك فى بعض الندوات الفكرية أحيانا، وبالعكوف على إنتاج بعض الإبداعات الشعرية أحيانا أخرى..

□□□

التغيرات الأسرية فى تلك الفترة:

وقد طرأت بعض التغيرات على أسرتى فى تلك الفترة، فقد تزوجتْ أختى الصغرى من صديق لنا مثقف، كان يدير متجر الوراقة المجاور لمتجرنا.. وكان هذا الصديق يكبر شقيقتى بشكل واضح، ولكنا وافقنا على زواجه للاطمئنان إليه، ولصلة الصداقة بيننا وبينه، وكان هذا تسرعا منا نسأل الله ألا يؤاخذنا به..

كذلك كان من التغيرات الأسرية فى تلك الفترة، أننى بعد تخرجى وتعيينى معيدا، لحق بى فى دار العلوم أخى محمد الذى يصغرنى. ورأت الأسرة أن من الأوفق أن ينتقل الوالد والوالدة إلى القاهرة ليعيشا معنا.. وعشنا فى منزل قرب شارع المبتديان خلف دار الهلال. وقد انقسمت الأسرة بهذا إلى فرعين، فرع أخى الأكبر بالزقازيق، وفرع الوالدين ومعهما شقيقى وأنا فى القاهرة..

□□□

وكانت مسئولية بيت القاهرة تقع على عاتقى، على حين تقع مسئولية بيت الزقازيق على عاتق أخى الأكبر.. وأحمد الله على أننى استطعت أن أفى بالتزاماتى على وجه مقبول، كما استطعت أن أوفر لأخى والوالدين حياة مستورة، رغم أنى

كنت مازلت معيدا لايتجاوز راتبي جنيهات معدودات.. وكنت سعيدا أن خففتُ الحمل عن كاهل والدى، الذى كان الأوان قد آن ليستريح، وعن كاهل أخى الأكبر، الذى تعدّد أبناؤه وكثرت مطالب أسرته، بالإضافة إلى معاناته من تعثر تجارته، نتيجة لما صاحب الحرب الكبرى من تقلبات اقتصادية ومفارقات اجتماعية، عانى منها من يعملون فى التجارة على أسس أخلاقية وإنسانية..

□□□

مفارقات وطرائف:

وأختتم حديثى عن هذه المرحلة الجامعية بتذكر بعض الطرائف التى حدثت لى، والتى أرى من الخير إيرادها ولو على سبيل التفكه بها.. ومن هذه الطرائف، أننى تنقلت كثيرا بين مساكن مختلفة أثناء تلك المرحلة الجامعية، وتعددتْ أحياء تلك المساكن ما بين حى السيدة زينب وحى المذبح وحى القبة وحى المنيرة. ثم استقر بى المقام فى حى «جاردن ستى». وكان ذلك الاستقرار أثناء السنة النهائية من سنوات الدراسة بالكلية.. ولا أحب أن يُفهم أن معنى سكنى فى «جاردن سيتى» أننى كنت أعيش عيشة أرستقراطية، شأن من كانوا يعيشون فى هذا الحى فى تلك السنوات. فقد كنت أعيش عيشة متواضعة فى حجرة فوق إحدى العمارات فى هذا الحى القريب من دار العلوم فى عهدها القديم. وكانت بعض العمارات تعلوها حجرات صغيرة أنشئت كمخازن أو مغاسل، ثم رأى بعض أصحاب تلك العمارات أن يستغلوا تلك الحجرات بتأجيرها لمن يحتاج من الطلاب وأمثالهم، ممن يكفيهم المسكن الذى يجدون فيه الضرورى من احتياجاتهم.. وكانت تجاور غرفتى غرف بها آخرون من الطلاب، أذكر منهم طالبا سودانيا كان يسبقنى فى سنوات الدراسة بدار العلوم، وأصبح فيما بعد الدكتور كامل الباقر رئيس جامعة أم درمان الإسلامية.. ولا أنسى أنى كنت فى هذا المسكن وفى هذا الحى الراقى، لا أستمتع بالاستضاءة بالكهرباء، وإنما كنت أستضئ بمصباح غازى «لمبة جاز»، نظرا لعدم وصول الكهرباء إلى سطح العمارة.. وكنت كلما ضقت بالحر داخل الحجرة وأثناء المذاكرة، برزت خارجها

بعض الشيء، فكان المصباح يطفئه الهواء، فأعيد إشعاله، أو كان الدخان يلوث زجاجته فأنتزعها لأنظفها، وأخيرا أفضل عناء الحر داخل الحجرة، على عناء إصلاح أمر المصباح خارجها..

□□□

ومن طرائف تلك المرحلة الجامعية، أننى وأنا بالفرقة الثالثة أستعد للامتحان، وقبل بدئه بنحو أسبوع، جاءنى خطاب من الكلية تخبرنى فيه بأنى لم أستوف النسبة المقررة للحضور، ومن هنا فأنا محروم من دخول الامتحان آخر العام. فأُسْقِطَ فى يدى، وأسرعت إلى بيت العميد الأستاذ زكى المهندس بالعباسية، وطرقت بابه دون ميعاد سابق ، فاستقبلنى ابنه فؤاد، الذى كان طالبا بكلية التجارة آنذاك، وأدخلنى حجرة الاستقبال، وأثناء انتظارى قدوم العميد، وقع نظرى فى الحجرة على «بيانو» تعلوه بعض آلات الإيقاع. فعرفتُ أن هذا الأستاذ الجليل محب للفن، وأنه يُنَشِّئ أولاده عليه ولايكتفى بالعلوم. ولم أعجب حين رأيت بعد ذلك ابنه فؤاد المهندس واحدا من ألمع نجوم التمثيل، كما رأيت ابنته صفية المهندس واحدة من أعظم نجوم الإذاعة.. ودخل الأستاذ العميد مُرَحِّبا بى، سائلا عن أحوالى، فشكوت له ما هددتنى به الكلية من الحرمان من الامتحان آخر العام، فطمأننى وهدأ من روعى، ووعدنى بإزالة ما سبب فزعى. ثم نفذ مشكورا ما وعد، وألغى القرار السابق بحرمانى من الامتحان..

□□□

ومن هذه الطرائف المتصلة بتلك المرحلة، أننى يوم استُدعِيتُ إلى الكلية وأُخبِرتُ بنبأ تعيينى معيدا، وزَّعْتُ كل مامعى من نقود على المهنئين من العمال.ثم استدعانى الدكتور ابراهيم سلامة بعد قليل، وطلب منى أن ألقاه بعد ظهر اليوم نفسه، فذهبت إليه ماشيا على قدمىّ، حيث لم يكن معى ثمن تذكرة الترام، بعد أن وزَّعْتُ كل مالدىّ من نقود، ولم أستسغ أن أقترض من بعض الزملاء وقد صرت معيدا مهيئا لدخول المدرجات وإلقاء بعض المحاضرات.. وزاد من المفارقة أنى حين دخلت منزل

الدكتور سلامة، وجلست إليه، سألني: «هل تغديت؟»، فأكدت أني تغديت منذ وقت. وسمحت لنفسى أن ألجأ إلى هذا الرد الذى يدخل فى باب «المعاريض» ولا أحتاج معه إلى التورط فى تناول غدائى عند أستاذى على وجه يجرح خجلى ويحرجنى أمام نفسى.. وبعد أن أخذتُ التوجيهات من الأستاذ، عدت أدراجى إلى مسكنى فى القاهرة مشيا على قدمىّ كما ذهبت.. وعلم الله أننى يومها ما تغديت ولا تعشيت..

□□□

ومن طرائف هذه المرحلة كذلك، أنى رُشّحتُ لكى ألقى كلمة المتفوقين فى الحفل الرسمى الكبير، الذى كان يُقَام فى جامعة القاهرة تحت رعاية الملك، ويكرِّم فيه الأوائل من جلالته.. وأذكر أن عميد الكلية الأستاذ ابراهيم مصطفى هو الذى رشحنى، وحدد لى موعدا قبل الحفل بأيام لكى أقابل الأستاذ مصطفى عامر وكيل الجامعة حينذاك، لكى يعطينى بعض التوجيهات المتصلة بكلمتى.. ولا أنسى أننّى حين ذهبت إلى إدارة الجامعة للقاء الوكيل الجليل، وجدته ينتظرنى على سلم إدارة الجامعة، ويستقبلنى بكثير من الحفاوة والتكريم.. ووجهنى إلى ما ينبغى أن تتضمنه كلمتى فى هذا الحفل الرسمى الملكى.. ثم جاء يوم الحفل وألقيتُ الكلمة التى أعددتها، وأُهديَتْ إلىّ صورة الملك موقعة باسمه كما أهديت إلى كل المتفوقين.. ونزلتُ عن المنصة أتلقى التهانى من زملائى أوائل كلياتهم، وكان من بينهم واحد من أبرز الحقوقيين، وهو أحمد الخواجه الذى صار فيما بعد نقيب المحامين رحمه الله..

□□□

والمفارقة التى أحب أن أسجلها هنا، أننى بعد أن صرتُ دكتورا وأستاذا ـ وبعد سنوات من الثورة ـ ذهبت إلى إدارة الجامعة لأمر عند وكيلها فى العهد الثورى الجديد، ومكثت فى مكتب «سكرتيره» نحو ساعة أنتظر لقاءه، ثم أخبرنى أن السيد الأستاذ الدكتور الوكيل قد انصرف قبل أن يلقانى.. وهنا قفزتْ إلى ذهنى صورة وكيل الجامعة الكريم الهمام، الذى استقبلنى على سُلَّم الإدارة حين أتيت للقائه، وأنا ما زلت معيدا لم يمض على تعيينى غير أيام.. .

المرحلة الرابعة

مرحلة البعثة

(١)

بداية الرحلة بين الفرحة والرهبة :

أعددتُ العدة للسفر إلى إسبانيا، بعد اختيار الدكتور طه حسين لى ممثلا لكلية دار العلوم، فى البعثة الأولى التى قرر إيفادها إلى مدريد، لتواكب افتتاحه «لمعهد الدراسات الإسلامية» فى العاصمة الإسبانية.. وكان إرسال هذه البعثة المصرية الأولى إلى إسبانيا ـ كما كان إنشاء المعهد ـ ذا هدفين أساسيين فيما أعتقد، الأول ريادة مصر لعملية إحياء التراث الحضارى الذى خلفه المسلمون على أرض الأندلس، والهدف الثانى، هو تحويل بعض البعثات المصرية من توجهها التقليدى الذى يقصد عادة إنجلترا وفرنسا، إلى بلد أوربى آخر، يمكن أن يعود التوجه إليه بفوائد لا تقل عن تلك التى تعود بالتوجه إلى بلاد الإنجليز وبلاد الفرنسيين.. وكان الهدف الثانى متأثراً بالكفاح المصرى ضد بقايا الاستعمار البريطانى، هذا الكفاح الذى كان يقوده حزب الوفد المتولى الحكم فى تلك الأوقات من أول الخمسينيات..

وكان شعورى وأنا أستعد للسفر مبعوثاً، شعوراً يمتزج فيه الفرح والزهو بالحزن والرهبة. أما الفرح والزهو، فلوقوع الاختيار علىّ لأسافر إلى أوروبا وأدرس بها لنيل درجة الدكتوراه، وأما الحزن والرهبة، فلفراق الأهل والوطن، ولتحولى من محاضر

يلقى الدروس على الطلاب فى الجامعة، إلى طالب يجلس من جديد فى مقاعد الدارسين. هذا بالإضافة إلى مواجهة التجربة الجديدة، التى فيها غموض المجهول وقلق الالتقاء الأول بحياة جديدة وحضارة جديدة، لا أعرف كيف تكون نتيجة اللقاء بها، ولا كيفية التعامل معها..

ويوم بداية الرحلة ـ الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٠ ـ توجهتُ إلى محطة القاهرة لأركب القطار إلى الإسكندرية، وقد أصرَّ والدى على أن يصحبنى ـ مع أخوىّ وبعض الأقرباء والأصدقاء ـ ليودّعنى قبل ركوب القطار إلى الثغر، وعانقنى الوالد داعياً الله لى بالتوفيق، وكانت كلماته تبللها الدموع وتكاد تشعلها حرارة العاطفة..

□□□

ركوب الباخرة لأول مرة:

ومن الإسكندرية ركبت الباخرة المصرية «الملك فؤاد» مع ثلاثة من زملاء البعثة، هم محمود مكى ومحمد صبرى وجودة هلال. والأول مبعوث كلية آداب القاهرة، والثانى مبعوث الفنون التطبيقية، والثالث مبعوث الأزهر.

وبعد وداع المودعين، تحركت الباخرة بادئة رحلتها إلى «مرسيليا»، وكنت أركب البحر لأول مرة، وقد سعدتُ أولا بالحياة على الباخرة المصرية، وبما لقيت أنا وزملائى من عناية فائقة.. ومضت الباخرة فى الأيام الأولى هادئة مبشرة برحلة ممتعة. ثم كان ما لا نتوقعه، ففى عصر يوم غام الأفق، وتكاثرت السحب، وهبت العواصف، وعلت الأمواج، وطلَب إلينا المسئولون بالسفينة أن ننزل عن السطح إلى حجرتنا من أجل سلامتنا. ونزلنا ولزم كل منا سريره. وكنا نحن الأربعة فى حجرة واحدة، بها سريران فى كل جانب، يعلو أحدهما الآخر، ويصعد إليه بسلم صغير. وأخذتْ السفينة تهتز اهتزازاً مخيفاً، وترتجّ أحياناً ارتجاجا يطيح بكل شىء. وكنا قبل أن يعم الظلام، نرى الموج ـ من النافذة ـ قادماً نحو السفينة مثل الجبال، ثم نحس أنه يرتفع بها كأنه

يوصلها إلى السحاب، ثم يعود فيهبط بها كأنه يسلمها لقاع العباب. وبين الارتفاع الشاهق والهبوط الغائر، كنا نشعر بقلوبنا ترتفع حتى توشك أن تقفز من الصدور، ثم تنخفض وكأنها تغوص في الأقدام.. وظل الحال على ذلك ليلة كاملة، لم يغمض لنا فيها جفن ولا هدأ خلالها عصب. وأخرج بعضنا كل ما في جوفه، بل إن بعضنا سقط على الأرض من سريره.. ولا أستطيع أن أصف مدى الهلع الذى أحسستُ به في تلك الليلة. وحسبى أن أقول: إن ما حدث ليلتها سبَّب لى ما يشبه العقدة النفسية من ركوب السفن، وارتبط ذلك بالنفور من رائحة البواخر من الداخل، حتى أنى كلما ركبت باخرة ـ مضطراً بعد ذلك ـ أشعر بالغثيان والدوار، وأضيق أشد الضيق برائحة داخل الباخرة، مهما كانت راقية بل معطَّرة..

وكانت أزمة باخرتنا في ذروتها عند مضيق «مسينا» الذى يفصل جنوب إيطاليا عن جزيرة صقلية.. ثم هدأت الطبيعة في الصباح، وأشرقت الشمس، واسترددنا أنفاسنا، ومضت الباخرة تمخر المتوسط، حتى صحونا ذات صباح على صوت المنادى يصيح: «مرسيليا»..

□□□

مرسيليا وأول لقاء ببلد أوروبى:

ونزلنا إلى ميناء هذه المدينة الفرنسية، ثم خرجنا لنستعد لركوب القطار المتجه إلى الحدود الإسبانية قاصداً مدريد ومارا بباريس.. ولما كان القطار سوف يتحرك في المساء، فقد كان أمامنا نهار نقضيه في مرسيليا قبل مغادرتنا. ولن أنسى هذا اليوم الذى رأيت فيه لأول مرة مدينة أوروبية، وشاهدت الأوروبيين في حياتهم العادية. وقد انبهرتُ بما رأيت وشاهدت، فالبلد واضح النظافة، والناس تغلب عليهم الأناقة، وهم كذلك يسرعون في حركتهم، يمشون وكأنهم يجَرُون، ويتجهون أحياناً في شكل جماعات مسرعة متلاصقة، وخاصة عند أماكن عبور المشاة، أو في مواقف الصعود والهبوط من الحافلات.. ولفتتْ نظرى بشدة، تلك الألوان الواضحة المتعددة الزاهية التى تظهر بها

ملابس الناس وخاصة النساء، وقد كُنَّ يضعن غالباً فوق الملابس معاطف «بلا ستيكية» شفافة لاتقاء المطر، فكنَّ يخيلن لى كأنهن عرائس ملفوفة بورق «السلوفان»..

وتجولنا طيلة النهار فى شوارع مرسيليا، وتناولنا وجبة غداء فى أحد مطاعمها، ولم نستسغ اللحم الذى قدم لنا، نظراً لكونه شبه نيِّئ.. ورأينا كثيراً من واجهات دور السينما والمسرح، ودهشنا لما كان على تلك الواجهات من صور ومناظر «خارجة» لم نألفها فى بلادنا. ولم يتسع الوقت لمشاهدة مسرحية أو رواية سينمائية، نظراً لضيق الوقت المتاح لنا قبل سفرنا..

□□□

فى القطار.. والوصول إلى مدريد:

وفى المساء، ركبنا القطار الذى اخترق الأراضى الفرنسية مارا بباريس، متجهاً إلى الحدود الإسبانية.. وفى القطار صادفنا لأول مرة مواطناً من إسبانيا، وعرفنا منه شيئاً عن طبيعة أهل الأندلس، التى فيها كثير من السمات التى تعجبنا نحن الشرقيين، فقد حاول الرجل أن يقرِّب منا ويتودد إلينا، رغم انقطاع الصلة اللغوية بيننا، ودعانا لمشاركته الطعام الذى كان معه، ومازال يتلطف بنا، ويتفاهم بالإشارات معنا، حتى ساعدنا على اجتياز الرحلة بأقل قدر من المشقة.

□□□

وأخيراً وصلنا إلى مدريد فى صباح الثلاثين من نوفمبر. وكانت المفارقة أننا لا نعرف كلمة من اللغة الإسبانية، كما أن الناس فى المحطة لا يعرفون اللغة العربية، وأكثرهم لا يعرف الإنجليزية ولا الفرنسية، اللتين يعرفهما بعض رفاق الرحلة.. وبعد محاولات ومفارقات؛ استطاع أحد العاملين فى محطة مدريد أن يفهم عنا، وأن يعرف أن السفارة المصرية هى وجهتنا، فَدَبَّر لنا سيارة أجرة أوصلتنا ضحى إلى السفارة، وانتظرنا بعض الوقت حتى حضر العاملون واستقبلونا بمودة، ودبروا لنا مسكنا فى فندق راق يسمى فندق «لا رِيس»، يقع فى ميدان مشهور يسمى ميدان «سانتا

بريَرا».. وفى الفندق سكن كل منا فى حجرة بها كل وسائل الراحة، وكانت تقوم على خدمة الحجرات فتاة إسبانية مهذبة تصلح لأن تكون إحدى بطلات السينما. وقد ساعدتنا هذه الفتاة كثيراً فى أيامنا الأولى على تعلم بعض الكلمات والتعبيرات التى نحتاج إليها فى الضرورى من المعاملات.. وفى هذا الفندق عشنا نحو شهر عيشة على كثير من الرفاهية، ولم تكلِّفنا الكثير، حيث كنا نتناول وجبات ثلاثا فى مطعم الفندق الفاخر، علاوة على استمتاعنا بحجراتنا، وكل ذلك بمبلغ يعادل نحو عشرة جنيهات مصرية فى اليوم، لأن الأسعار فى إسبانيا كانت فى تلك السنوات من أرخص الأسعار فى بلاد أوروبا، إن لم تكن أرخصها جميعاً..

ثم ذهبنا ـ بعد السفارة والفندق ـ إلى «معهد الدراسات الاسلامية» الذى يقع فى حى راق من أحياء مدريد، واستقبلَنا مديره الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة بحفاوة وبشاشة، كما استقبلَنا بعد ذلك وكيل المعهد عبد العزيز الأهوانى، الذى كان فى مدريد قبل افتتاح المعهد لجمع مادة علمية لرسالته للدكتوراه، ورأى الدكتور طه حسين ضمه إلى هيئة العاملين بالمعهد واختاره وكيلاً، نظراً لخبرته السابقة بإسبانيا ومعرفته باللغة الإسبانية، ولاشتغاله من قبل بالدراسات الأندلسية. وكان هذا الاختيار موفقاً إلى حد كبير، حيث دبّر لنا الأهوانى من يعلمنا اللغة الإسبانية.. ثم ساعدنا على الاتصال بالجامعة، كما أعاننا على اختيار موضوعات أبحاث الدكتوراه.

□□□

البدء فى تعلم الإسبانية والاستعداد للجامعة:

وكان زملاء لنا من جامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية وكلية الفنون الجميلة قد سبقونا بنحو عشرين يوماً إلى مدريد، وصاحبوا الدكتور طه حسين يوم افتتاحه للمعهد فى الحادى عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٠، على حين تأخرنا نحن ـ الأربعة ـ بعض الوقت، وذلك لأسباب تتعلق بإجراءات السفر.. ووجدنا هؤلاء الزملاء يحضرون دروس الإسبانية التى يلقيها مدرس إسبانى يعرف الفرنسية، ويتخذها

لغة وسيطة بينه وبين أعضاء البعثة. ولكنى وبعض الزملاء لم نكن قد درسنا الفرنسية من قبل، لذلك لم نستفد من تلك الدروس، وبحثنا عن وسيلة أخرى، حتى اهتدينا إلى شاب مغربى يعمل بالقسم العربى بإذاعة مدريد، فتلقينا على يديه بعض الدروس المفيدة، ولكن مشكلة إتقان الإسبانية ظلت تعذبنا مدة ليست بالقصيرة، حيث لم تكن قد ظهرت بَعْدُ كتبٌ لتعليم الإسبانية للناطقين بالعربية، كما لم تكن وضعت بعد قواميس بين اللغتين. ومن هنا كنا نتلقى المستطاع من الدروس، ونتدرب على اللغة مع الناس، ونفيد من بعض القواميس الإسبانية ـ الإنجليزية.. وكان علينا أن نُنفق الباقى من هذا العام الدراسى الأول فى دراسة اللغة، تمهيداً للالتحاق بقسم الدراسات العليا فى جامعة مدريد مع بداية العام الدراسى التالى.. ومن هنا كان يجتاحنى فزع شديد، خشيةِ ألا أستطيع إنجاز المطلوب من المستوى اللغوى فى هذا الوقت القصير، ومخافة أن يَحُول ذلك دون التحاقى بالجامعة ومواصلتى للدراسة التى أوفدتُ من أجلها وعقدتُ كلَّ الآمال على النجاح فيها.. ولكن الله قد أعان، بفضل الصبر والجهد، والاعتماد كثيراً على التعايش اللغوى، واختراق الحاجز بالتعامل الحياتى مع من يتاح فى المجتمع الإسبانى..

□□□

بداية الاستقرار والتعلم فى الجامعة:

فبعد شهر من الحياة فى الفندق دبَّر لنا صديق يعمل فى السفارة أن نعيش ـ أنا وزميلاى مكى وهلال ـ فى مسكن سيدة إسبانية كبيرة، كانت قد فقدت زوجها فى الحرب الإسبانية الأهلية، وأعدت مسكنها لاستضافة بعض الدارسين لتدبر لهم معيشتهم، وتدبر من خلال ما يعود منهم معيشتها أيضاً.. وكانت تلك النقلة مفيدة جداً فى تعلم اللغة بصفة خاصة، فقد كانت هذه السيدة ومن معها من أولادها وزائريها عوناً لنا على التقدم فى اللغة والتمكن منها... وبالإضافة إلى ذلك، كنا نتردد فى بعض الأمسيات على مقهى راقٍ، ونجالس فيه بعض الإسبان ونتبادل الحديث معهم، وبهذا نهضم كل يوم جديداً من لغتهم...

ولم يفتنا أن نذهب ـ خلال ما بقي من العام الأول ـ إلى كلية الآداب بجامعة مدريد، ولكن كمستمعين، تمهيداً لالتحاقنا بالدراسة فى أول العام التالى كمنتظمين..

□□□

وبدأ العام الدراسى الجديد، والتحقنا بالجامعة وحضرنا ـ بقسم الدراسات العليا بكلية الآداب ـ محاضرات فى الأدب الأندلسى، يلقيها الأستاذ «جارثيا جومث»، شيخ المستشرقين، كما حضرنا محاضرات فى العلاقة بين اللغة الإسبانية واللغة العربية، يلقيها الأستاذ «تريس سادابا» أحد المستشرقين المعروفين، كذلك حضرنا محاضرات فى تاريخ العصور الوسطى، يلقيها الأب «أوربيل» أحد كبار المتخصصين فى التاريخ الوسيط، الذى يشمل تاريخ إسبانيا الإسلامية وحضارتها العربية.. وحضرنا أيضاً محاضرات فى الأدب الإسبانى للمؤرخ والناقد الأدبى، الأستاذ «مالدونادو»، وكنا نحضر هذه المحاضرات الأخيرة مع طلبة الليسانس.. وبالإضافة إلى ذلك كله، نَظَّم معهد مدريد سلسلة محاضرات لكبار المتخصصين فى الدراسات الأندلسية، وفى العلاقة بين الحضارتين الإسبانية والعربية، مثل الأستاذ «ليفى بروفنسال» الفرنسى، والأستاذ «مِينِنْدِث بِيدال» الإسبانى، وقد حضرنا تلك المحاضرات وأفدنا منها فوائد عظيمة..

□□□

وقد لفت نظرى فى كلية آداب مدريد، تصميمُها الجميل وموقعها الرائع، وسط مساحة خضراء شاسعة على مشارف العاصمة، حتى لقد كانت تبدو لى من بعيد وكأنها سفينة تسبح فِي بحر من الخضرة.. كذلك لفت نظرى أن أول يوم من العام الدراسى يبدأ بصلاة كَنَسِيَّة عامة، تقام فى الفناء الكبير بالكلية، ويحضرها العميد والأساتذة ومعظم الطلاب.. ولفت نظرى أيضاً، تلك الروح الجامعية العالية التى تجمع بين الأسرية والاحترام من جانب، والحرية والالتزام من جانب آخر. فقد كان الطلاب فى وقت فراغهم بين المحاضرات يذهبون إلى المقصف فيشربون ويمرحون، حتى إذا ما دخلوا قاعة المحاضرة ودخل عليهم الأستاذ، هبُّوا واقفين فى إجلال واحترام، ثم جلسوا هادئين، يتابعونه وكأنهم يتعبدون، وهم الذين كانوا فى المقصف من قليل يمرحون وأحياناً يشربون...

(٢)

النجاح فى الدراسات التمهيدية والتسجيل للدكتوراه:

فى نهاية العام الدراسى الأول بجامعة مدريد ـ وهو العام الثانى للبعثة فى إسبانيا ـ أُجْرِيتْ لنا امتحانات تحريرية وشفوية، لنيل أربع وثائق تثبت نجاحنا فى الأدب واللغة، والتاريخ والدراسات المقارنة.. وقد اجتزتُ هذه الامتحانات ـ التى كانت شرطاً لقبول التسجيل للدكتوراه ـ وأحمد الله أنى نلت فى كل هذه الامتحانات تقدير الامتياز، وأصبح علىّ أن أسجل موضوعَ الرسالة. وبعد مفاضلة بين عدة موضوعات، أشار علىّ الأهوانى بموضوع يستحق الدراسة، ويضيف إنجازُه إضافة علمية ثرية إلى حقل الدراسات الأندلسية، وهذا الموضوع هو **«ابن سهل الإشبيلىّ ـ عصره وحياته وشعره»**. ويجمع الموضوع بين دراسة هذه الجوانب الثلاثة المتصلة بالشاعر، وبين جمع شعره وتحقيقه تحقيقاً علمياً لأول مرة. وهكذا تكُون الدراسة هى الرسالة الأصلية، ويكون تحقيق الديوان ملحق تلك الرسالة..

□□□

وسجلتُ هذا الموضوع بعد موافقة الأستاذ «جاديثا جومث» الذى كان المشرف علىّ وعلى كل الزملاء من أعضاء البعثة الذين يتخصصون فى الدراسات الأدبية

الأندلسية.. وبدأتُ أجمع نسخ مخطوطات ديوان الشاعر التى حصلتُ عليها من إسبانيا والمغرب، مستعيناً بتوجيهات أستاذى «جومث»، وإشارات كتاب الأستاذ «بروكلمان».. كما بدأتُ أجمع المادة العلمية المتعلقة بعصر الشاعر فى أيام الموحدين، وبحياته كأحد اليهود المستعربين أولاً، ثم كواحد ممن دخلوا الإسلام وتثقفوا بالثقافة العربية ثانيا.. ورُحْتُ أحقق ديوان الشاعر، ثم أدرس شعره من النواحى الفنية المختلفة، واضعاً نصب عينى أن أبحث عن الجديد عنده، وأثرِ يهوديته السابقة فيه، ثم تأثير سابقيه من الشعراء عليه، بالإضافة إلى العناية بموشحاته الكثيرة، التى تعتبر من أبرز نتاجه الشعرى، والتى بلغ بها درجة عالية بين رجال التوشيح فى الأندلس..

وعَكَفْتُ على إنجاز رسالتى بشقيها ـ الشق الذى يقوم على الدراسة، والشق الذى يعتمد على التحقيق ـ واقتضى ذلك التردد على ضاحية الإسكوريال حيث المكتبة الشهيرة العامرة، وقسم المخطوطات العربية النادرة. كما اقتضت الدراسة التردد على مكتبة مدرسة الدراسات العربية ـ مركز المستشرقينَ ـ فى العاصمة الإسبانية، وعلى مكتبة مدريد الوطنية..

□□□

رَمَد بالعينين ولطفٌ من الله:

وقد حدث لى أثناء تلك الفترة ما أوشك أن يعوق دراستى ويعطل العمل فى رسالتى. فقد أصيبت عيناى بمرض غريب، كان من مظاهره الاحمرار والتورم وكثرة الدموع. وترددتُ على عدد من الأطباء فى مدريد، فما زادونى إلا مضاعفة المرض وتَعَقُّدَ المشكلة، حتى أوشكتُ أن أقطع الدراسة وأعود إلى القاهرة.. وذات صباح دق بابى زميل مصرى يدرس الفنون الجميلة فى مدريد، وبشرنى بوجود واحد من أكبر أطباء العيون المصريين فى زيارة لإسبانيا، وهو الدكتور صبحى، وقال لى الصديق إنه حدثه بشأنى، وحدد لى معه موعداً لفحصى. وذهبت على عجل للقاء الدكتور

صبحي بالفندق الذى ينزل به، ففحص عينيّ وأخبرنى أن ما بى هو نوع من حساسية البحر المتوسط، وأن الذين عالجونى فى مدريد قد أخطأوا التشخيص مما سبب لى المضاعفات. ثم وجهني بخطاب إلى الطبيب الإسبانى العالمى «باراكير» فى برشلونه، وأكد لى أنه سيصف لى العلاج الحاسم.. وذهبت إلى برشلونه، وقد أخذت معى كل ما أملك من نقود، متخوفاً ألا يكفى كل ما معى أجرا له.. واستقبلنى الطبيب الكبير على الفور، وفحصنى جيداً، وكتب لى العلاج الذى رآه، ثم طلب منى أن أمر على إدارة المستشفى قبل انصرافى. وحين ذهبت إلى الإدارة لأدفع النفقات خائفاً ألا يكفى كل ما معى، أخبرتنى المسئولة أن الدكتور «باراكير» أمر ألا يأخذوا شيئاً منى، وأوصى أن يكتبوا خطابا أحمله معى. وهنا سعدت ولكنى دهشت، وأصررت على أن أعود لمقابلة الدكتور كى أشكره أولا على كرمه، ولأستفسر منه ثانيا عن سبب تلك الحفاوة وعن موضوع الخطاب. وحين دخلت عليه وحدثته عما عدت من أجله، أشار إلى صورة معلقة فى مكتبه ضمن عدة صور وقال: «هذه صورة صديقى الطبيب المصرى الدكتور صبحى، وقد سعدت بأنه أرسلك إلىّ، ولا يمكن أن أتقاضى أتعاباً من طالبِ بعثةٍ من بلد الدكتور صبحى، فأرجو أن تعتبر هذه تحية منى إليه وإليك، وسوف تعطيك الإدارة له خطابا بذلك أرجو أن تحمله معك...» وعدت مبهوراً بهذا الموقف الإنسانى الكريم، وتداويت بما نصح به الدكتور العالمى الإسبانى «باراكير»، حتى شفيت عيناى تماماً. ومازلت أشكر هذا الرجل الأجنبى وأتذكره بكل الخير..

□□□

إنجاز الرسالة ورحلة إلى فرنسا والمغرب:

وأتممت الرسالة بقسميها، بعد أن عانيت فى كتابتها بالإسبانية معاناة لا أنساها، ثم عرضتها على الأستاذ المشرف، الذى جلست معه عدة ساعات فى العرّضَة الأخيرة كانت من أقسى ساعات عمرى، حيث كان يتوقف على نتائج هذه العرضة مستقبلى كله. وقد أبدى الأستاذ عدة ملاحظات وكلفنى بإنجازها قبل طبع الرسالة

فى شكلها النهائى. وقمت من الجلسة الأخيرة ـ وكانت فى أمسية من الأمسيات الباردة ـ وقد تصببت عرقاً إلى درجة بللت ملابسى الخارجية.. ولكن الرجل فى نهاية الجلسة نفسها امتدح عملى وأثنى على جهدى. وتحول تجهمه وتشدده السابق كأستاذ يُشرِف ويعلّم، إلى بشاشة وتودد كوالد يشجع ويكرّم..

□□□

وفى فترة قراءة الأساتذة المناقشين للرسالة، وأثناء انتظارى ليوم المناقشة العلنية، قمت برحلة مع بعض الزملاء إلى باريس وإلى المغرب، بعد أن قمت فى عام سابق برحلة طويلة إلى جنوب إسبانيا وشرقها، وزرت فى رحلة الجنوب قرطبة وإشبيلية وغرناطة، حيث أكثر وأهم الآثار الأندلسية التى خلفتها الحضارة الإسلامية على الأرض الإسبانية، كما زرت بعد ذلك من إقليم شرق الأندلس مالقة ومرسية وبلنسية وشاطبة، ثم جزيرة ميورقة وكلها من أهم المدن التى خرّجت عديداً من علماء الأندلس ومفكريها وأدبائها ولغوييها.. لكنى لا أنسى زيارتى للمغرب ولا زيارتى لباريس، اللتين قمت بهما فى فترة انتظارى لموعد تحديد مناقشة الرسالة، وذلك لما وجدت من مفارقة كبيرة بين أهل البلدين فى التعامل معى.. ففى المغرب استُقبلتُ ومن معى من الزملاء استقبالا كريماً جداً فى مدينتى سبتة وتطوان، الواقعتين فى الجزء الذى كان خاضعاً لإسبانيا، ولم نتمكن من دخول جزء المغرب الذى كان لايزال محتلا بفرنسا. وقد سعدنا كثيراً بحفاوة إخوتنا المغاربة بنا وتكريمهم لنا، إلى درجة أن صاحب الفندق الذى نزلنا به فى تطوان كان يصر على ألا يتقاضى منا أجراً. وحين دخلنا مطعماً بالمدينة وتناولنا العشاء، لم يكن صاحبه يريد أن يتقاضى ثمناً. وحين دخلنا داراً من دور السينما وكان المعروض رواية مصرية، أضاءوا الأضواء لدقائق وأوقفوا العرض، واستقبلنا الجمهور بالتحايا والتصفيق.. وكان ذلك تحية لمصر التى وقفت إلى جانب المغرب فى كفاحه الوطنى من أجل الاستقلال، حتى أصبح المغاربة يعتزون بكل من يأتى من مصر، ويعدونه رمزاً للبلد الذى يقف إلى جانب

الأحرار ويحارب المستعمرين والاستعمار.. أما فى فرنسا فكان الأمر مختلفاً، فقد استشعرتُ كثيراً من القتامة والجفوة، رغم أن المدينة مدينة النور والفن والثقافة الرفيعة.. ومع ذلك دخلت عدداً من المسرحيات، واستمتعت بطائفة مِن العروض، وزرت متحف «اللوفر»، كما زرت «السربون» والمكتبة الأهلية، وسِرْتُ فى شارع «الشانزيليزيه»، وعشت نحو شهر فى الحى اللاتينى.. لكنى لا أنسى حادثة تدل على جفاف بعض الفرنسيين وخشونتهم، رغم ما يشاع عنهم من رقتهم وتمدينهم. هذا ما رأيته على الأقل فى تجربتى مع من تعاملت معهم، وخبرتى العملية بمن اتصلت بهم.. فقد كنت أسكن فى بعض البيوت الجامعية خلال تلك الزيارة الباريسية، وذات ليلة عدتُ إلى المبنى متأخراً حيث كنت أحضر عرضاً مسرحياً، فوجدتُ المسئولين قد أخرجوا حقيبة ملابسى ـ وكل ما يخصنى ـ من حجرتى ووضعوها فى الإدارة. ومعنى ذلك أننى لا مكان لى فى هذا المسكن، ولما سألتُ عن السبب أخبرونى أننى لم أدفع مقدماً أجر الأسبوع الذى بدأ اليوم. والحق أنى كنت قد نسيت، ولم ينبهنى أحد. وحاولت أن أصلح الخطأ وأدفع المطلوب لتُفتَح حجرتى أو أية حجرة أخرى فلم تفلح محاولتى، لأن حجرتى كانت قد شغلها غيرى، ولأن باقى الحجرات يُرتَّب أمرها منذ الصباح مع مسئول غير موجود... وكان الوقت متأخراً وليس من المستطاع الخروج إلى الشارع بعد منتصف الليل والبحث عن مأوى.. وبعد إلحاح ورجاء، سَمَح لى المسئول الموجود أن أجلس فى الاستقبال حتى الصباح، حيث دبرتُ فى اليوم التالى المسكن الذى أكمل فيه أيام رحلتى.. وعلمت ألا أتعامل مع هؤلاء الناس بالعواطف بقية الأيام، حيث الأساس عندهم فى التعامل هو الحساب والأرقام..

□□□

ومن ذكريات رحلة باريس التى مازالت عالقة بذاكرتى ـ وهى هذه المرة ذكرى طيبة ـ أنى زرت خلالها الملحق العسكرى بالسفارة المصرية ثروت عكاشة، الذى كان لم ينل الدكتوراه فى ذلك الوقت. وقد حملتُ إليه بعض الكتب التى كان قد طلبها

من زميله الملحق العسكرى بمدريد عيسى سراج الدين. وكان من أهم هذه الكتب كتاب «من هنا نبدأ» لخالد محمد خالد. وكان هذا الكتاب ـ لحسن الحظ ـ عندى حيث أهداه إلىّ مؤلفه فى القاهرة قبل أن أسافر إلى إسبانيا، وذلك حين قابلنى ذات ليلة فى شارع عماد الدين وأنا عائد من ندوة أدبية، فاستوقفنى، ويبدو أنه كان يعرفني، ثم قدم إلىّ نفسه وأهدانى مشكوراً كتابه الذى سعدتُ به وأفدت منه، وحملته معى إلى مدريد، ثم إلى ثروت عكاشة فى باريس...

□□□

مناقشة الرسالة ونيل الدكتوراه بامتياز:

وحين عدتُ من تلك الرحلة، وجدتُ جامعة مدريد قد حددت موعداً لمناقشة رسالتى.. وفى ذلك اليوم ـ الرابع من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ ـ تجمع فى قاعة المناقشة عدد غير قليل من الجمهور، وكان من بين الحاضرين السفير المصرى حسين عزيز، وعدد من المصريين العاملين بالسفارة والدارسين بمدريد.. وكانت اللجنة مكونة من خمسة أعضاء، ويرأسها الأستاذ «جارثيا جومث».. واستمرت المناقشة عدة ساعات، انتهت بالنجاح بامتياز مشفوعاً بثناء من اللجنة غير قليل. ومما أسعدنى أن الأستاذ المشرف قال لى إن زميله الأستاذ «مالدو نادو» ـ أستاذ الأدب الإسبانى الشهير ـ قد ظن أن صاحب الرسالة واحد من بعض بلاد العالم الإسبانى، نظراً لعدم اشتمال لغة الرسالة على ما يدل على أنه أجنبى عن اللغة الإسبانية..

وتلقيتُ تهانى الحاضرين، وخرجتُ أستعد للعودة إلى مصر بعد أن كلل الله بعثتى بالنجاح..

□□□

أهم الروافد الثقافية فى المرحلة الإسبانية:

وكانت تلك المرحلة فى إسبانيا من أخصب فترات حياتى العلمية والثقافية والفنية، حيث كانت مرحلة الانفتاح على عِلْم غزير وثقافة راقية وفن رفيع.

فبالإضافة إلى الدراسة للدكتوراه، وما هيأته من تلقى محاضرات على أساتذة كبار فى التاريخ واللغة، والأدب والنقد، وفى الدراسات المقارنة ومناهج البحث، كان تعلم الإسبانية والحياة فى إسبانيا ـ أكثر من أربع سنوات ـ من أهم الروافد الثقافية التى ضاعفت معارفى وأسهمت فى بناء شخصيتى، وغيرت كثيراً من أفكارى.. فاللغة الإسبانية فتحت أمامى عالم الأدب الإسبانى بخاصة والعالمى بعامة، حيث قرأتُ الكثير من أدب البلد الذى أعيش فيه وأُعِدّ الدكتوراه فى جامعته، كما قرأت ـ عن طريق الإسبانية ـ الكثير من روائع الأدب العالمى، الذى تُرجِم معظمها ـ إن لم يكن كلها ـ إلى لغة الإسبان.. كذلك قرأت الكثير من أمهات كتب النقد والأدب المقارن فى أصولها الإسبانية أو فى ترجمتها إليها عن بعض اللغات الأوربية.. وكانت قراءتى للشعر الإسبانى من أحب القراءات إلى نفسى. وقد جذبنى كثيراً بعض الشعراء «الرومانسيين» مثل «بيكِر»، وبعض الشعراء الواقعيين الثوريين مثل «لوركا».. وبالإضافة إلى الأدب اتصلت بالموسيقى، وانجذبتُ كثيراً إلى «الكلاسيكية» منها، وانجذبت أكثر إلى الموسيقى الأندلسية والغناء الأندلسى «الفلامنكو»، وذلك لما يفيض به من شَجَنٍ يشبه فيه الموّالَ المصرى.. واتصلتُ أيضاً بالفن التشكيلى، وأعجبت «بيكاسو» و «سلفادور دالى»، ومِنْ قبلهما «بجويا». وكنت كثير الزيارة لمتحف «البرادو» بمدريد، أحد أكبر المتاحف العالمية للفنون التشكيلية.. وصَحِبتُ بعضَ زملاء البعثة ـ الذين يتخصصون فى الفنون ـ إلى أكاديمية «سان فرناندو» بعض المرات، وعرفتُ عن طريقهم الكثير عن أصول هذا الفن ومذاهبه وأسراره... أما المسرح، فقد كان من أهم اهتماماتى. وقد حضرتُ كثيراً من العروض المسرحية ذات المستوى الرفيع، كمسرحية «دون خوان»، التى كانت تقدَّم سنوياً فى موسم محدد.. كما أعجبت بالمسرح الغنائى والاستعراضى الراقى، الذى كان ضمن فقراته فى كثير من الأحيان، فقرة يُلْقَى فيها بعض الشعر الجيد مصحوباً بنغمات «الجيتار»..

وبمناسبة الشعر، قد رأيت كثيراً جداً من الإسبان يعشقونه ويحفظون مختارات من روائعه، يستوى فى ذلك المثقفون والناس العاديون، وقد ساعد على ذلك، هذا التقليد الحميد من تقاليد المسرح الغنائى والاستعراضى، الذى كثيراً ما يجعل فقرة الشعر إحدى الفقرات الرئيسية فى العروض المسرحية.

□□□

وبالإضافة إلى هذه الروافد الأدبية والفنية، كانت هناك الروافد الاجتماعية التى أثّرتْ فى شخصيتى تأثيراً كبيراً. فحياتى مع الأسرة الإسبانية، واختلاطى بالمجتمع الإسبانى فى الجامعة، بصَّرنى بالكثير من التقاليد الطيبة، وأوقفنى على العديد من السلوكيات المهذبة...

□□□

(٣)

التأثيرات النفسية للفترة الأسبانية:

لاشك أن هذه الحياة الأوروبية الراقية ذات الرواسب الشرقية النبيلة فى إسبانيا، قد أضافت إلى شخصيتى الكثير، ولم أشعر حيالها بصدمة كالتى حدثت لبعض أبناء الحضارة الشرقية فى مواجهتهم الأولى للحضارة الغربية. وإنما استجبتُ للجيد من التقاليد الحضارية هناك، وتفتحت عليه وأفدتُ منه وسعدتُ به.. وقد أدى ذلك كله إلى تعلقى بإسبانيا وحُبى لها وتفضيلها ـ بالنسبة لى ـ على أية دولة أوربية سواها.. وربما لا يكون ذلك كله راجعا إلى أسباب موضوعية خالصة، بل إنه مشوب بأسباب شخصية مسعدة، دفعتْ إلى هذا الحب وحملت على هذا التفضيل.. ولعل من أبرز تلك الأسباب الشخصية، أنى عرفت فى أسبانيا الحرية الاجتماعية لأول مرة، كما عرفت الحرية الاقتصادية لأول مرة، كما عرفت الراحة العاطفية لأول مرة.. أما الحرية الاجتماعية فخلاصتها أن المجتمع كان لا يفرض شيئا من تلك القيود التى كبلتنى من قبل، بل قهرتنى فى كثير من الأحيان. وكانت تلك الحرية الاجتماعية تتيح للمرء أن يفعل مايريد دون رقابة إلا من ضميره هو والتزامه هو. وأحسب أنى كنت بحمد الله ملتزما فى أفعالى ويقظ الضمير فى تصرفاتى.. وأما الحرية الاقتصادية،

فحقيقتها بالنسبة إلى، أن مخصصاتى المالية كانت تزيد على مطالبى الحياتية بل تحقق نوعا من الرفاهية. ومن هنا لم أشعر بضيق ولا تأزم ولا حرمان من شئ، وحسبى أنى كنت أدخل أية مكتبة أو أى مطعم أو متجر ثم أنال ما أريد ـ فى حدود المعقول ـ دون أن أخشى تقصير ذات يدى أو عدم كفاية نقودى.. وأما الراحة العاطفية، فقد حققها مالاقيت من تجاوب عاطفى رفيع ممن نبض بحبهم قلبى فى تلك السنوات، التى سعدت بالعواطف النبيلة البريئة من النزوات..

□□□

وقد كانت تلك المباهج المعتدلة والماضية فى حدود القيم المرعية، من أهم العوامل التى ساعدت على التغلب على صعوبات اللغة الإسبانية والنجاح فى الجامعة والتوفيق فى إعداد الرسالة وفى مناقشتها، رغم أن كل صعوبة من تلك الصعوبات كانت كفيلة بدفعى إلى الإخفاق وحرمانى من أى نجاح.. فاللغة قد وصلت إلى إسبانيا وأنا لا أعرف حرفا منها، وكان علىّ أن أتعلمها وأصل إلى المستوى الذى يؤهلنى لأداء أربعة امتحانات تحريرية وشفوية بها، ثم كتابة رسالة للدكتوراة تعتمد فى مراجعها وتحريرها عليها.. والنجاح فى الجامعة يقتضى فهم المحاضرات التى تسمع والمراجع التى تقرأ وأداء الامتحانات التى تعقد.. وإعداد الرسالة يتطلب تحرير بحث يقع فى عدة مئات من الصفحات بلغة علمية دقيقة، تتفق مع مستوى من يطلب نيل أعلى درجة جامعية من واحدة من كبريات الجامعات الأوربية.. ومناقشة الرسالة تفرض قدرة عالية على الفهم وقدرة عظيمة على الجدل، وقدرة أعظم على الدفاع عن الرأى.. وقد تحقق ذلك كله بتوفيق الله وبالصبر والإصرار، وبمساعدة المناخ العام الذى فيه كثير مما يسعد النفس ويريح القلب ويجدد نشاط العقل..

□□□

دور معهد مدريد وفضله:

ولا أنسى أن أذكر بكل التقدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ودوره فى تيسير كثير من الصعوبات وتحقيق كثير من الإنجازات، فالمعهد كان لنا بمنزلة مكتب

البعثات الذى ييسر دراستنا ويذلل الصعوبات أمامنا ويتولى الكثير من شئوننا. وأكثر من ذلك كان المعهد ـ ومازال ـ مؤسسة علمية أكاديمية مؤثرة، فهو يضم مكتبة غنية بها كثير من المصادر والمراجع المتصلة بالحضارة الأندلسية والدراسات الإسبانية. وبه مطبعة تخرج مجلة المعهد العلمية وما يتم فيه من بحوث ودراسات وتحقيقات. كما ينظم المعهد محاضرات لكبار الباحثين فى مجال الدراسات الأندلسية بخاصة والإسبانية بعامة.. وقد أفدت كثيرا من مكتبة المعهد ومن محاضرات زواره من الأساتذة الإسبان وغير الإسبان. كما شاركت فى الكتابة فى مجلته وانتفعت بالخدمات المقدمة من إدارته..

وكان أول مدير للمعهد ـ كما ذكرت ـ هو الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، ثم خلفه الدكتور على سامى النشار، ثم تولى أمره الدكتور حسين مؤنس، الذى تم فى عهد إدارته إنجازى للدكتوراه ثم كانت عودتى إلى مصر..

□□□

أهم التغييرات فى مصر، قيام ثورة يوليو:

وأثناء تلك المرحلة التى كنت خلالها فى إسبانيا، حدث تغيير كبير فى مصر، حيث قامت حركة الجيش، التى مالبثت أن سميت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . والطريف أن نبأ هذه الحركة ـ أو الثورة ـ أخبرنى به عامل بالمقهى الذى كنا نتردد عليه مساء فى مدريد. فلم نكن نستطيع أن نسمع إذاعة القاهرة آنذاك، ولم تكن صحفنا المصرية تصل إلا إلى السفارة وبعد أيام من ظهورها. ويبدو أنه قد فاتنا الاستماع إلى الإذاعة الإسبانية صباح يوم الحركة. وفى المساء ذهبت مع بعض الزملاء إلى مقهى «سونورا» كعادتنا، فإذا هذا الرجل البسيط يلقانا بخبر حدوث انقلاب عسكرى فى مصر ـ وهكذا كانت الصحف الإسبانية تسمى حركة الضباط أول الأمر ـ فأسرعنا إلى الاستماع إلى إذاعة إسبانيا وبعض النشرات التى أذيعت، وإلى قراءة الصحف والأخبار التى نشرت، فعرفنا الكثير من أنباء حركة الجيش، فابتهجنا، وتبادلنا التهانى، وتوجهنا

فى الصباح إلى المعهد المصرى، ونزعنا لافتته التى كان مكتوبا عليها «معهد فاروق الأول للدراسات الإسلامية»، وطالبنا بعمل لافتة جديدة لا تحمل اسم فاروق وإنما تحمل اسم مصر، ليصبح اسم المعهد «المعهد المصرى للدراسات الإسلامية»..

□□□

والحق أن ما حدث فى مصر كان موضع إعجاب الكثيرين من الإسبان، كما كان سببا لانبهارنا بذكاء الضباط الأحرار، وبسرعة حركتهم ودقة تخطيطهم وشجاعة تنفيذهم.. وبهذه المناسبة أذكر أن السيدة التى كنا نعيش بمسكنها فى مدريد أنا وبعض الزملاء، قد وجدتنا نبالغ فى فرحنا واحتفالنا بما تم فى مصر، فقالت لنا ما معناه: «تريثوا ولا تبالغوا فى التفاؤل بما فعل الضباط فى بلدكم، فرجال الحرب حين يثورون ويحكمون يبدأون طيبين مخلصين، ولكنهم لقلة خبرتهم بشئون الحكم يتورطون فى كثير من الأخطاء، فلا يجدون أمامهم لكى يحموا أنفسهم وحكمهم إلا السلاح الذى فى أيديهم، وهنا ينقلبون دكتاتوريين باطشين»، ثم أردفت: «ولكم فى فرانكو مثل حى».. وطبعا رفضنا يومها كلامها. ولكن الأيام أثبتت أن فى كلامها كثيرا من الحق، وقد اتضح ذلك فيما كان للثورة من تجاوزات قبل تعديل مسارها وتصحيح أخطائها، وقبل أن تأخذ بالشرعية الدستورية..

□□□

وبسبب التغييرات السياسية التى سبقت الثورة فى مصر، ذهبت حكومة الوفد، وغادر الدكتور طه حسين الوزارة، وصرنا نتوجس أن يؤثر ذلك على وجودنا فى مدريد، فقد كنا مؤيَّدين من قبل بالعميد صاحب فكرة بعثة إسبانيا وإنشاء معهد مدريد.. ولكن الله سلم بعد قلق ليس بالقليل، ومع مزيد من الجهد لإنجاز المهمة وسرعة العودة إلى مصر قبل أن يحدث للبعثة شئ يغير كل شئ..

العودة إلى أرض الوطن:

وأخيرا وبعد نيل الدكتوراه تهيأت لمغادرة إسبانيا والعودة إلى أرض الوطن، وكان معي زميلاى اللذان نالا الدكتوراه مثلي، وهما الدكتور مختار العبادى مبعوث جامعة الإسكندرية، الذى تخصص فى التاريخ الأندلسى، والدكتور جودة هلال مبعوث الأزهر الذى تخصص فى الفكر الإسلامى.. وبعد أن ودعت الأسرة الإسبانية التى عشت معها أربع سنين، ركبت مع زميلى القطار من مدريد إلى برشلونة لنركب الباخرة «أدانا» التركية إلى الإسكندرية..

□□□

وهنا تحضرنى ذكريات عن برشلونة لا تنسى، ومن هذه الذكريات أن صديقا إسبانيا يكبرنى ويعمل فى مجال الصناعة، وكان يسكن معى عند السيدة التى أعيش فى بيتها بمدريد، قد أبى إلا أن يصحبنى إلى برشلونة ليكون فى وداعى عند تحرك الباخرة. وكان اليوم ممطرا وظل هذا الرجل على رصيف الميناء يبلله المطر حتى ودعنى بكل الوفاء الذى لا يعرف إلا بين الأشقاء.. وكنت أستشعر حزنا عميقا لفراق إسبانيا بعامة، والأسرة التى كنت أعيش معها بخاصة، ثم لفراق هذا الصديق الذى كنت أشعر أن وداعى له قد يكون الوداع الأخير، حيث لا أتوقع لقاءه فيما بعد.. وقد كان، فمن يومها لم أره ثانية، بل لم أعرف عنه أى شئ.. وهكذا أدركت أن من الموت ما يكون أحيانا بفراق الأحياء فى الدنيا، وليس وقفا على رحيل أحد إلى الحياة الأخرى..

□□□

ومن هذه الذكريات المتصلة ببرشلونة أيضا، أننا تناولنا العشاء فى المدينة قبل أن نذهب إلى الباخرة، وبعد الطعام ظهرت على زميلنا الدكتور هلال أعراض مرضية غريبة، فقد تورم وجهه واحمر جلده وارتفعت حرارته. وبحثنا عن طبيب مسعف،

فهدتنا لافتة على وجه مبنى لأحد الأطباء، فطرقنا بابه بليل، فخرج إلينا وأحسن استقبالنا، ثم فحص صاحبنا وطمأننا إلى أن ما به حالة حساسية شديدة نتيجة لتناول وجبة أسماك لم يتحملها، وأعطى المريض حقنة، وسلمه بعض الأدوية، وشرح له طريقة استعمالها أثناء رحلة البحر، وحين سألنا عن أجر الفحص والعلاج والدواء أجاب بابتسامة طيبة: «اعتبروا كل هذا منى تحية لكم وأنتم مسافرون إلى وطنكم» ..

وبدأت رحلة العودة بالباخرة من برشلونة إلى الاسكندرية يوم السابع من يناير سنة ١٩٥٥، حيث مرت السفينة ببعض الموانئ الفرنسية والإيطالية.. وقد حدث لنا فى هذه الرحلة الثانية ما يشبه الذى حدث لنا فى تلك الرحلة الأولى، حيث هبت عاصفة على الباخرة فى أول يوم، وكنا نتناول العشاء، فاهتزت الأطباق ووقعت الأكواب، وتحرك فى بطوننا ما تناولنا من طعام. فتركنا كل شئ ونزلنا إلى حجرتنا داخل السفينة، وقضينا ليلة ليلاء، ولكنها كانت على كل حال أخف من ليلة سفينة الرحلة الأولى، وربما كنا قد أخذنا تحصيننا ساعدنا على شئ من المقاومة والاحتمال فى هذه الرحلة الثانية.. وفى الصباح هدأ البحر وسارت السفينة بقية الأيام فى سكون وأمان، حتى وصلت إلى الإسكندرية يوم الخامس عشر من شهر يناير سنة ١٩٥٥ ..

□□□

الفرحة بلقاء بعض الأهل، والصدمة لغرق بعض الكتب:

وعلى رصيف الميناء كان ينتظرنى أخواى وبعض الأقرباء والأصدقاء، ونزلت ملهوفا فرحا أعانق المستقبلين، وانتظرت سعيدا مبتهجا إنزال أمتعتى وصندوقين كبيرين فيهما ما جمعته من كتب هى أهم المصادر والمراجع فى الدراسات الأندلسية، وفى النقد الأدبى والآداب الأوربية.. وكانت المفاجأة المؤلمة أن الذين أنزلوا الصندوقين قد أخطأوا، فوقع أحد الصندوقين وانكسر، وسقطت كتب كثيرة فى البحر بين السفينة والرصيف، وكانت الكتب تعوم أولا على سطح الماء المختلط بالزيت، ثم تتشرب الماء والزيت فتثقل ويغوص بعضها، وأنا أمام ذلك أستغيث ببعض عمال الميناء

وأرجوهم أن يخف أحدهم لإنقاذ كتبى التى دفعت فيها الكثير من مالى وسعيت بل وأجهدت من أجل الحصول عليها والحرص على جمعها واقتنائها.. وبعد لأى ساومنى أحد عمال الميناء على النزول إلى الماء لإنقاذ ما يمكنه من الكتب، واشترط أجرا مبالغا فيه كثيرا، لم أتردد فى دفعه، واستطاع الرجل أن يخرج بعض الكتب مبللة بالماء وملوثة بالزيت، ولكنى فرحت بها وكأنها غريق عزيز قد تم انتشاله بعد اليأس من نجاته.

والحق أن هذه الحادث كانت صدمة لى، وزاد من وقعها أنها كانت أول استهلال لى عند عودتى إلى بلدى.. ومع هذا كتمت ألمى وأظهرت البشاشة لأهلى.. وحزمنا الأمتعة وأصلحنا الصندوق المكسور، وخرجنا من الميناء بعد أن وكّلنا من يحمل الصندوقين الكبيرين إلى مسكننا بالقاهرة.

□□□

وركبت القطار عائدا إلى أهلى، وكانوا قد استأجروا ـ بمناسبة قدومى ـ مسكناً جديدا أوسع وأرقى من المسكن الذى كنا فيه، وظنوا أنهم سيسعدوننى بهذا المسكن الجديد، لكنهم فى الحقيقة لم يستطيعوا، لأن هذا المسكن قد أثار فىّ ألوانا من الضيق والألم والشعور العميق بالمفارقة. فالمسكن فى حارة متفرعة من شارع زين العابدين المجاور لمسجد السيدة زينب، والذاهب إليه يخوض زحاما كثيفا ويشم روائح دكاكين الدقاقين والعطارين المشبعة بالتوابل المهيجة للحساسية والمسببة لضيق الصدر عند من لا يألفونها. فقارنت ـ رغما عنى ـ بين الشارع الذى كان به مسكنى وأنا غريب، وهذا الشارع الذى سأعيش فيه فى القاهرة وأنا مواطن. وقارنت أكثر بين مسكنى الفاخر نسبيا فى العاصمة الإسبانية والذى به كل الأدوات الحديثة، وبين مسكنى المتواضع فى العاصمة المصرية والذى لايزال يستخدم الأدوات التقليدية. كل هذا بالاضافة إلى الهدوء وروعة المنظر هناك، والصخب والتلوث السمعى والبصرى هنا.. ولكنى كتمت ضيقى وأخفيت ـ ما استطعت ـ شعورى، وحملت نفسى على

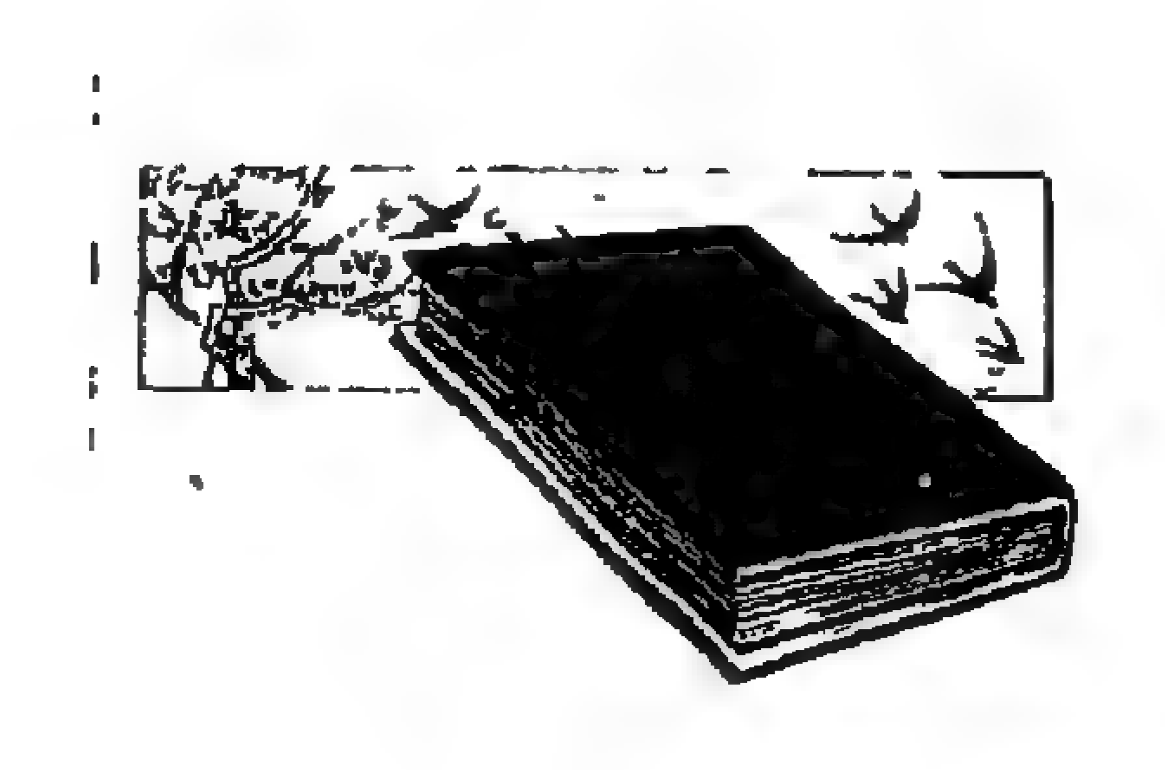
الابتسام واصطناع الرضا، من أجل أبي وأمي وأخواتي، ومن أجل أقربائي وأصدقائي الذين سعدوا كثيرا بعودتي، وافتخروا كثيرا بنجاحي وتقدُّم لقب «دكتور» لمفردات اسمي، وقبل ذلك من أجل هذا البلد الكريم مصر، الذى هو أولا وأخيرا وطني..

□□□

حل المشكلات بواقعية، وحسن الاستقبال فى الكلية:

واجتهدت فى أن أحل مشكلاتي وأن أتوافق مع واقعي، وألا أعيش مع الأحلام والذكريات والأوهام. فقررتِ أولا أن أبحث عن مسكن جديد بأسرع ما أستطيع. وفعلا استطعت فى أيام قليلة أن أعثر على مسكن مناسب فى شارع الإخشيد فى الروضة وانتقلنا إليه فاسترحت بعض الشئ، وأخذت أعمل على التغلب على الصعوبات وأخفف ما استطعت من الشعور بالمفارقات.. وذهبت فى اليوم التالى لوصولى إلى الوطن، إلى كلية دار العلوم، فاستقبلنى الأساتذة والعاملون استقبالا طيبا. أما الطلاب فكان استقبالهم رائعا ومؤثرا، وذلك بفضل زميلى وصديقى عبدالحكيم بلبع، الذى عرّف الطلاب بى قبل قدومى، وحدثهم عنى وشوّقهم لعودتى. ولذا كانت الحفاوة متجاوزة كل توقعاتى..

وتسلمت عملى من جديد فى الكلية فى منتصف شهر يناير سنة ١٩٥٥، وبدأت بذلك مرحلة جديدة من حياتى هى موضوع الفصل الثانى.



المرحلة الخامسة

المرحلـة الأكاديميـة

(١)

التعيين في درجة مدرس بعد بعض الصعوبات :

كان أول ما اهتممت به بعد عودتي من البعثة أن أصعد في السلم الجامعي من درجة معيد إلى درجة مدرس. ولكن بعض الصعوبات واجهتني وسببت لي بعض المعاناة التي لم أكن أتوقعها.. وأهم هذه الصعوبات أن درجة الدكتوراه الإسبانية لم تكن ـ حتى ذاك التاريخ ـ قد تمت معادلتها بدرجة الدكتوراه المصرية، نظرا لكوني أنا ومن عادوا معي من إسبانيا في ذلك التاريخ كنا أول ما نالوا هذه الدرجة في تاريخ البعثات التي توفدها مصر.. ولذلك احتاج الأمر إلى تقديم مستندات وبرامج تتصل بالدراسة في جامعة مدريد، كي تتم المعادلة. وقد استغرق ذلك عدة شهور حتى تمت المعادلة. وفتح الطريق أمام من ينالون الدكتوراه من الجامعات الإسبانية لكي يعينوا مدرسين في الجامعات المصرية، بعد أن عانينا نحن صعوبات شق الطريق ثم بذل الجهد في تعبيده.. وبعد ذلك ظهرت صعوبة أخرى كان على أن أذللها حتى أنال درجة مدرس، وسبب هذه الصعوبة أن اللوائح في تلك السنوات كانت تشترط في من يعين مدرسا في الجامعة أن يكون قد أمضى منذ حصوله علي درجة الليسانس سبع سنوات كاملة. وكان ينقصني لكي أتم هذه المدة بضعة شهور. ومن هنا أُجِّل تعييني حتى تنتهي المدة المقررة.. وأذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ الدكتور طه حسين

علم بأمر تأخر تعييني أنا وزملائي الذين عادوا معي من إسبانيا يحملون الدكتوراه، فكتب مقالا في صحيفة الجمهورية ـ التي كان يتصدر كتابها ـ وأثنى في هذا المقال علينا وأشاد بتخصصنا في إسبانيا موضحا ما يمكن أن يعود منه على بلدنا لو أحسن الانتفاع بنا، كما تهكم في هذا المقال من وجوب استيفاء مدة معينة لكي يتم تعييننا، وكأن هذه المدة هي «العدة» التي اشترطت لصحة زواج المطلقة أو من مات عنها زوجها..

□□□

وحين حلت المشكلتان السابقتان وقررت الجامعة تعييني مدرسا، حدث أمر رأيته خطأ لا يصح السكوت عليه، وأنه لابد من تصحيحه. وذلك أن مجلس جامعة القاهرة أصدر قرارا يشمل تعييننا ـ في وظيفة مدرس ـ أنا وزميلين آخرين في كلية دار العلوم، ونص القرار على أن تعييننا تعيين استثنائي، استنادا إلى مادة اللائحة الانتقالية لدار العلوم، التي كانت ـ بعد ضم الكلية إلى الجامعة ـ تعطيها الحق ـ ولمدة عشر سنوات ـ في أن تعين مدرسين بها يحملون الماجستير فقط.. ولما كانت هناك رغبة خيرة في تعيين الزميلين اللذين يحملان درجة الماجستير، فقد اقترحت الكلية تعيينهما ورفعت الأمر إلى الجامعة للموافقة على هذا الاقتراح. وكان نظر مجلس الجامعة لموضوع هذا التعيين في الجلسة التي نظر فيها موضوع تعييننا، فوافق المجلس على تعييننا ـ نحن الثلاثة ـ وأصدر بذلك قرارا واحدا نص فيه على أن تعييننا قد جاء استنادا إلى مادة اللائحة التي تبيح الاستثناء بالنسبة لدار العلوم.. وحين بلغني ذلك لم أفرح بالتعيين، وإنما غضبت للنص على أن تعييني قد جاء استثناء، وكأني لا أحمل درجة الدكتوراه التي جاهدت في سبيل الحصول عليها، كما تعبت من أجل معادلتها والاعتراف بها.. وأذكر أني حين حدثت في هذا الأمر بعض الأساتذة في مجلس الكلية، قالوا لي: حسبك أنك قد عينت ولا داعي لإثارة الموضوع من جديد مادام الهدف قد تحقق. والعجيب أنه كان من هؤلاء الأساتذة عميد الكلية المستنير القريب إلى نفسي الأستاذ الدكتور ابراهيم أنيس.. ولكني لم أقنع بما قيل لي من

أنى قد صرت مدرسا «وتحقق المراد من رب العباد»، وأصررت على أن أرفع شكواى إلى الجامعة مطالبا بتصحيح الخطأ فى قرارها، ووضع الأمور فى نصابها. وكان رئيس الجامعة فى تلك السنوات الأستاذ الدكتور كامل مرسى رجل القانون الشهير. فلما وصلته شكايتى أقرنى على رأيى، واعترف بخطأ قرار المجلس حيالى، وأعاد عرض الموضوع من جديد، فأصدر المجلس قرارا خاصا بتعيينى مستندا إلى استيفائى مؤهلات التعيين التى ينص عليها قانون الجامعات، ودون أية إشارة إلى أى استثناء يغض من هذا التعيين ومايتطلبه من مؤهلات..

□□□

وأصبحت مدرسا فى كلية دار العلوم من الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٥.. ولكنى لم يسند إلىّ عمل تعليمى، لأن التعيين قد تم بعد انتهاء محاضرات العام الدراسى. ولم يبق لى خلال ذاك العام إلا أن أسهم فى بعض الأنشطة الثقافية، وأن أنتظر أول العام الدراسى الجديد لكى تسند إلىّ بعض المحاضرات التعليمية..

وحين بدأ العام الدراسى الجديد، أسند إلىّ مقرر «الأدب الأندلسى» الذى على الفرقة الثالثة بالكلية. كما أسند إلىّ مقرر «قراءة فى الأدب»» كان موضوعه كتاب الكامل للمبرّد، الذى كان ضمن مقررات الفرقة الثانية..

□□□

وقمت بواجبى الأكاديمى سعيدا موفقا إلى حد كبير، فأخذت أعد محاضراتى عن الأدب الأندلسى، وأجعل منها أصولا لكتابى الأول الذى ظهر بعد ذلك سنة ١٩٥٨ وهو «الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة».. كما اهتممت بإفادة الطلاب من كتاب الكامل، وجعلته مجالا لتدريبهم على القراءة الصحيحة والفهم السليم، والتعرف على طبيعة كتب الأدب، بهذا المفهوم القديم لكلمة أدب، وبيان أن هذه الكتب كانت ــ عادة ــ تجمع مادة من جميل القول من شأنها أن تؤدب

من يقرأها ويتمثلها، كما كانت هذه الكتب - وإن اشتركت في هذا الجانب - تختلف فى جانب آخر باختلاف الطابع الغالب على المؤلف، كما يرى ذلك واضحا فى الفرق بين ما ألفه الجاحظ، وما ألفه المبرّد، وما ألفه أبو الفرج وما ألفه القالى.

□□□

ومضيت فى السنوات التالية أنمى دراستى للأدب الأندلسى، الذى أسند إلىّ تدريسه بصفة دائمة، مع إضافة مقرر آخر فى فرع من فروع الدراسة الأدبية قد يكون مرة نصوصا من العصر الإسلامى، وقد يكون مرة، دراسة لبعض الشخصيات من العصر الأموى..

وكان العام الأول لقيامى بالتدريس، هو أول عام يتلقى فيه الطالبات دروسهن فى مبنى الكلية نفسه، بعد أن قضين عامين دراسيين يتلقين دروسهن فى مبنى آخر قريب من الكلية - التي كانت بالمنيرة - وهو مبنى المعهد الفرنسى. وعلى الرغم من أن الطالبات قد أُحْضِرْنَ إلى مبنى الكلية فى ذاك العام (٥٥ - ٥٦) إلا أنهن كن يتلقين دروسهن منفصلات فى مدرجات وقاعات خاصة، عن قاعات ومدرجات الطلاب. وهكذا كان علىّ - مثل كل الأساتذة والزملاء - أن ألقى المحاضرة أو الدرس مرتين، مرة للطلبة وحدهم، ومرة للطلبات وحدهن.. وبعد تلك السنة الأولى، تم جمع الطالبات مع الطلبة فى مدرجات وقاعات معا، فسهل الأمر أكثر وأصبحت المحاضرة تلقى مرة واحدة على الطلاب والطالبات جميعا..

□□□

النشاط الثقافى والانتداب إلى بعض الكليات:

وإلى جانب هذا العمل التعلمى، شاركت كثيرا فى النشاط الثقافى بالكلية، وأسهمت فى إقامة ندوات شعرية ولقاءات فكرية ومحاضرات عامة.. وكنت أشعر بسعادة عظيمة على الرغم مما كان يكلفنى ذلك النشاط من جهد ووقت، لأنى

كنت أرى أنى أشارك بذلك فى بناء كليتى ثقافيا والنهوض بها اجتماعيا وأعمل على تألقها جامعيا.. وكان يساعدنى على ذلك ويشجعنى كثيرا صديقى وزميلى العزيز عبد الحكيم بلبع، الذى كان هذا النشاط من أهم شواغله ومن أكبر اهتماماته، إن لم يكن أهمها وأكبرها جميعا.. فقد اهتم - وجعلنى أهتم معه - بالحفلات الفنية والمهرجانات الرياضية والرحلات الثقافية، التى ظهرت الكلية من خلالها بمظهر الحداثة والعصرية، وخاصة بعد أن التحق بها طلبة الثانوية العامة منذ سنة ١٩٥٢ ، والطالبات سنة ١٩٥٣..

وإلى جانب عملى فى كلية دار العلوم، انتدبت لتدريس اللغة الإسبانية فى مدرسة الألسن، التى كانت أيامها فى شارع هارون بالدقى، ثم انتدبت للتدريس فى كلية الآداب بجامعة عين شمس، وكانت أيامها فى شبرا. وبعد فترة انتدبت للتدريس فى كلية البنات بجامعة عين شمس، وكانت أيامها فى مصر الجديدة.

□□□

وأذكر أننى كنت أذهب إلى شبرا وإلى مصر الجديدة فى «أوتوبيس» أركبه من ميدان التحرير، حيث لم تكن لدىّ عربة، ولم يكن فى استطاعتى أن أؤجر سيارة «تاكسى» إلى هذه المسافات الطويلة.. ولقد عانيت كثيرا من ركوب «الأوتوبيسات»، وكثيرا ما كنت أذهب إلى شبرا أو إلى مصر الجديدة واقفا بجوار السائق، حيث كنت أقاسى من الحرارة المنبعثة من آلات السيارة، بالإضافة إلى ما يخنق الصدر من أنفاس الركاب، وما يثير العرق من حرارة الجو.. ولكننى على كل حال كنت راضيا أو مضطرا إلى أن أرضى، لأنى سوف أزيد دخلى بحيث أفى باحتياجاتى بفضل ما أحصل عليه من مكافآت عن محاضراتى لطلبة الآداب بشبرا ولطلبات كلية البنات بمصر الجديدة، حيث كان راتب المدرس فى تلك السنوات لا يزيد كثيرا على أربعين جنيها..

وإلى جانب عملى الأكاديمى فى دار العلوم بصفة أساسية، وفى بعض الكليات الأخرى على وجه الانتداب، كنت أجتهد فى أن أبنى اسمى وأحقق ذاتى فى المحيط الأدبى والثقافى على وجه العموم. وكنت ألقى بعض المحاضرات العامة فى بعض الأندية والمراكز الثقافية، كما كنت أشارك فى بعض المهرجانات الشعرية، وكنت كذلك أنشر بعض قصائدى وبعض مقالاتى وأذيع بعض أحاديثى.. وكل هذا قد جعل اسمى معروفا إلى حد لا بأس به فى الأوساط الجامعية والثقافية والإعلامية.. ولا أنسى مساندة صديقى الشاعر فوزى العنتيل الذى يَسّر لى نشر ما أنشره من شعر، كما لا أنسى مؤازرة صديقى ابراهيم الترزى الذى أحسن استقبالى عند عودتى من البعثة، ووضع بين يدى معظم المجلات الأدبية وأهم الكتب النقدية التى ظهرت أثناء غيابى، فاستطعت بسرعة أن ألم بالمناخ الأدبى، وأعايش القضايا التى كانت مطروحة فى المحيط الثقافى..

□□□

الزواج الموفق وبعض الذكريات :

وبقيت دون زواج بعد عودتى من البعثة نحو ثلاث سنوات على الرغم منى. والسبب أنه لم يتيسر لى أن أعرف عن قرب من أستريح للاقتران بها، نظرا للحياة المحافظة التى كانت تحيط بى وبأسرتى، كما أنه كان قد أتيح لى وأنا أدرس فى إسبانيا أن أرى فتاة إسبانية ـ وعرفتها عن قرب ـ ووجدت أنها يمكن أن تكون زوجة لى، ولكنى عدت إلى مصر دون أن أتقدم إلى أهلها أو أن ارتبط بها، وذلك لعدم إمكانى الزواج وأنا طالب، ثم لعدم رضاى عن أن أتزوج بأجنبية دون رضا أسرتى.. وظللت ثلاث سنوات فى حيرة.. وأخيرا حسمت الأمر برفض فكرة الزواج من إسبانية، لأنها ستكون غريبة على الأسرة ومسببة لعدم التواصل الحميم بينى وبين أهلى، نظرا لاختلاف العادات والتقاليد، وقبل ذلك نظرا لاختلاف الدين واللغة.. وأعترف أننى تألمت بمشاعرى لاتخاذ هذا القرار، ولكننى اقتنعت وحسمت الأمر بعقلى.. وأخيرا أكرمنى الله وحل عقدتى، فقد لفت نظرى من بين طالبات السنة

النهائية بكلية دار العلوم فتاة مهذبة وذات شخصية، وتحظى بتقدير خاص من الأساتذة والعاملين بالكليـة، لما لهـا من نشاط ملحوظ فى المجال الثقـافى والاجتمـاعى والرياضى .. وحين تحدثت بشأنهـا مع من يعرفون أسرتهـا أخبرونى بأنهـا مخطوبة لواحد من أقربائهـا، فقلت فى نفسى هذا حظى، ولأنتظر حتى يفتح الله بفرصة أخرى..، وبعد شهور قليلة أخبرنى من كنت أحدثه بشأن هذه الفتاة أن خطبتها من قريبها لم تستمر، وإنما حدثت ظروف تم معها فك ارتباطها بالتراضى، بحيث أصبحت هذه الفتاة صالحة لأن أتقدم إليها. وشجعنى محدثى أن أتقدم إلى أهلها وخاصة بعد أن تخرجت فى أوائل سنة ١٩٥٨، ولم تعد طالبة بالكلية. فوسطت هذا الصديق لكى ينوب عنى فى زيارة أسرة الفتاة وعرض خطبتى عليها، فذهب مشكورا ورحبت الأسرة وتمت الخطبة سريعا يوم الثامن والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٥٨. ثم عقد القران بعد نحو شهرين يوم الثانى والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٥٨. ثم تم الزواج يوم الرابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٥٨ .. وهكذا منّ الله على بمالم أحلم بأعظم منه لإقامة حياة زوجية مستقرة سعيدة، حيث ظفرت برفيقة حياتى وشريكة كفاحى وأم أولادى ونبع الحنان فى بيتى، التى تتحمل عصبيتى وتحمل معى همومى وتحب كما أحب أهلى..

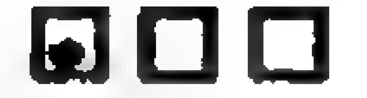
□□□

وعلى ذكر زواجى، تتواثب إلى ذاكرتى ذكريات ربما كان من الخير تسجيلها. ومن تلك الذكريات أنى كنت أول عضو هيئة تدريس فى دار العلوم يتزوج بمن كانت تلميذة له فى نفس الكلية. وكان هذا فى تلك السنوات من الأمور الحساسة التى تثير تداعيات عند البعض وتسبب بعض الحرج لى رغما عنى.. وقد واجهت هذا بشجاعة ولم ألق بالا إلا لثقتى من نبل مقصدى وإيمانى بصحة مسلكى، والعمل على الظفر بمن اختارها قلبى.. وهكذا فتحت الطريق لكثيرين غيرى اقترنوا بعدى بمن كن تلميذات فى الكلية، وسعدوا بزيجات موفقة دون أن يواجهوا ما واجهته فى أول التجربة..

وقد اقتضت ظروف زواجى أن أستقل بحياتى أنا وزوجتى بمسكن جديد فى شارع إسماعيل سرى بالمنيرة قرب الكلية. وأن يعود والدى ووالدتى إلى الزقازيق بعد تدبير مايريحهما من المسكن المناسب والمعاش الملائم.. وكان أخى محمد الذى يصغرنى قد أتم دراسته فى دار العلوم ومعهد التربية وعين مدرسا أثناء بعثتى فى إسبانيا. ثم تزوج بعد عودتى وانتقل إلى بيت مستقل.

وكانت زوجتى ـ ومازالت ـ تعمل فى مجال التعليم، وتجمع بين الوظيفة والمنزل، وأشهد أنها كانت ومازالت موفقة فى المجالين إلى أبعد حدود التوفيق.

وكانت الثمرة الأولى لهذا الزواج الموفق مولد ابنتى «عزة» فى الرابع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٩.



(٢)

نيل درجة أستاذ مساعد وسلسلة من النجاحات :

نتيجة للاجتهاد فى العمل والاستقرار فى الحياة الزوجية، أنتجت إنتاجا علميا اطمأننت إلى التقدم به للترقية إلى أستاذ مساعد، بعد مضى أكثر من خمس سنوات على تعيينى مدرسا.. وقد تمت ترقيتى وأصبحت أستاذا مساعدا من يوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٦٠ ..

□□□

ونتيجة لنشاطى العلمى والأدبى اختارتنى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ـ وهى اللجنة التى كان يرأسها الأستاذ العقاد حينذاك ـ لكى أكون ضمن وفد مصر فى مهرجان الشعر الثانى بدمشق، وكلفتنى اللجنة بإعداد دراسة عن أبى تمام.. وكان الوفد يضم من أساتذة الأدب: الأستاذ محمد خلف الله والدكتورة سهير القلماوى، كما كان يضم من الشعراء: الشاعر أحمد رامى والشاعر صالح جودت، وغير هؤلاء من رجال الأدب والفكر والشعر.. وقد سافر الوفد إلى دمشق فى ديسمبر سنة ١٩٦٠، وكانت الرحلة إلى هذا البلد الشقيق ممتعة، قضيت خلالها أياما مسعدة فى جو أدبى وفنى رفيع. ثم عدت إلى مصر أحمل لتلك الأيام ذكريات جميلة، كما أسعد بتوثيق علاقات وصداقات حميمة..

ومضت حياتي سعيدة باستقراري العائلي وبنجاحي الجامعي والأدبي، وخاصة بعد أن أسهمتُ بشكل واضح في نشاط البرنامج الثاني في الإذاعة منذ إنشائه، وبعد أن شاركت في حلقات النقد التي كان من أعلامها الدكتور محمد مندور، والدكتور رشاد رشدي، والدكتور غنيمي هلال.. كذلك أسندت إليَّ الإذاعة إلقاء سلسلة أحاديث عن الأدب الإسباني، كانت أول الأحاديث من إذاعتنا عن هذا الأدب.. ويرجع الفضل في فتح طريق الإذاعة أمامي - وخاصة البرنامج الثاني - إلى الأخ الشاعر فاروق شوشة، ابن دار العلوم الذي شق طريقه بالإذاعة بنجاح وتألق.. كذلك أسند إليَّ التليفزيون مسئولية برنامج أدبي أسبوعي يذاع على القناة الثالثة، التي كانت مختصة بالثقافة الرفيعة في تلك الفترة. وكانت مدة هذا البرنامج ساعة كاملة، وكنت أتولى إعداده وتقديمه، وقد اتخذت له عنوان «جولة الأدب» وأعطيته شكل المجلة المرئية المسموعة، وكنت أعرض من خلاله أهم فنون الأدب كالشعر والقصة القصيرة والسيرة الأدبية والقضية النقدية، كما كنت في كل حلقة أُعَرِّف بكتاب وأُقَدِّم صاحبه، وأختم الحلقة بالتعريف بأهم أخبار الأدب.. وقد استضفت في هذا البرنامج أعلاما كبارا مثل نجيب محفوظ وزكي نجيب محمود ومحمد فريد أبو حديد ويوسف إدريس.. بل إني استضفت الدكتور طه حسين وأجريت معه حوارا طويلا أذيع مقسما في عدة حلقات، وكان التسجيل قد تم في بيت العميد لصعوبة حضوره هو إلى مبنى التليفزيون.. ويرجع الفضل في فتح طريق التليفزيون أمامي إلى الأخ مصطفى نظيم، أحد أبناء دار العلوم، وأحد أوائل الذين عملوا في الإخراج بهذا الجهاز الإعلامي الجديد آنذاك..

□□□

وقد ضاعف من سعادتي أن الله رزقني في هذه الفترة بابنتي الثانية «علا» التي ولدت في التاسع عشر من شهر يوليو سنة ١٩٦١ .

أزمة ديوان ناجي وما صاحبها من عذابات:

ويبدو أن الأيام استكثرت عليّ السعادة التي كنت أستشعرها نتيجة لهذه النجاحات، فأرادت أن تمزج كأسي ببعض المرارة حتى لا أتمادى في الفرح أو يركبني الغرور. فابتلتني ـ دون ذنب مني ـ بما سمي «قضية ديوان إبراهيم ناجي».. وخلاصه هذه القضية أن وزارة الثقافة كانت قد اختارتني ضمن لجنة لجمع شعر هذا الشاعر وإخراجه كله في شكل ديوان شامل يضم كل ما أبدعه، مما نشر في دواوين مفرقة من قبل، وما لم ينشر في دواوين، وإنما بقي موزعا بين المجلات والأوراق الخاصة...

□□□

وكانت اللجنة مؤلفة من محمد ناجي شقيق الشاعر، وأحمد رامي وصالح جودت صديقيه، ثم أنا.. واتفقنا على أن يوزع العمل بيننا وفق إمكانيات كل منا، فكلف محمد ناجي بإحضار شعر أخيه الذي خلفه في أوراقه الخاصة، وكلف صالح جودت بجمع شعره الموزع في المجلات، وكلف رامي بمراجعة ذلك كله وتحقيقه.، وكلفت أنا بعمل دراسة فنية عن شعر ناجي، ووضعه في مكانه من خريطة الشعر العربي الحديث، لكي تكون هذه الدراسة تصديرا للديوان الكامل.. وحدث أن أحضر محمد ناجي بعض القصائد التي وجدها ضمن أوراق أخيه، وقدمها إلى صالح جودت لتضم إلى ما يجمعه من شعر ناجي المتفرق.. ودفع صالح بهذه القصائد إلى المطبعة.. ثم ظهر ديوان ناجي في خريف سنة ١٩٦١ وتبين أن بعض القصائد التي أحضرها أخوه محمد ونشرت فعلا في الديوان ليست من شعر ناجي، وإنما هي للشاعر الدكتور كمال نشأت، وقد وجدها محمد ناجي موجودة ضمن أوراق أخيه إبراهيم لسبب أو لآخر.. وهنا تفجرت قضية سماها بعض الإخوة الصحفيين «فضيحة الموسم الأدبية»، وتتابعت كتابات عدد من النقاد تشن هجوما شديدا على اللجنة وعملها، وتتهم أعضاءها بالتهاون والغفلة وعدم معرفة الفرق بين نتاج الشعراء

المختلفين.. ونالني من هذا الهجوم شر كثير، وإن لم يوجه إلىّ بشكل مباشر، ولكنه وجه إلى اللجنة التي أنا عضو فيها.

وكان أكثر الهجوم على صالح جودت، وذلك لموقفه من أصحاب الشعر الحر من ناحية، ولخلافات مذهبية كانت بينه وبين بعض الكتاب من ناحية أخرى..

والمهم أن أحدا لم يعرف الحقيقة أو يدري أن الذي أحضر الشعر الذي ليس لناجي هو شقيقه المكلف بالبحث في أوراقه.. كذلك لم يكن أحد ممن يشنون الهجوم يعرف أن دوري في إخراج الديوان لم يكن يتجاوز كتابة دراسة نقدية عن شعر ناجي.. وكذلك لم أكن مستطيعا أن أدافع عن نفسي بذكر الحقائق التي تبرئ ساحتي، لأن غلاف الديوان الكامل الذي طبع كان قد سجل عليه ما يفيد أن الديوان قد جمعه وحققه وقدم له هؤلاء الذين قد ورد اسمي معهم، دون أن ينص على ما عمله بالتحديد كل واحد منهم.

□□□

وبهذا التعميم والشيوع وعدم التحديد أصبحتُ شريكا لكل أعضاء اللجنة فيما حدث من خطأ، وإن كان خطأ غير مقصود.. ولذا تحملت الهجوم والاتهام، ولم أحاول أن أرد محددا دوري ودور غيري؛ لأن ذلك معناه أني أتنصل من المسئولية الأدبية، وألقي التبعة كلها على غيري، وهذا في رأيي يمثل موقفا يتنافى مع المروءة.. وأعترف أن هذه الأزمة من أقسى الأزمات التي واجهتها في حياتي. وقد زاد من وقعها عليّ أن صديقي الشاعر الدكتور كمال نشأت، قد رفع الأمر إلى القضاء وطالبنا بتعويض، وله العذر فيما فعل، فلا يمكن أن يرضى شاعر أن ينسب شعره إلى غيره وإن كان هذا الغير إبراهيم ناجي.. والمهم أن الصحف ظلت لفترة تتناول أخبار هذه القضية بالإضافة إلى هجوم بعض الكتاب والنقاد، حتى أصبحت أضيق كلما رأيت حديثا أو خبرا يتصل بهذا الموضوع، بل وصل الأمر بي إلى حد أني كنت أيامها أفزع حين يقع بصري على اسم «ناجي» في صحيفة يومية أو أسبوعية حتى ولو كان إعلانا عن «محلات ناجي» التي تعلن عن النظارات الطبية..

وأحمد الله أن القضية قد سويت بعد أن اتضح عدم تعمد أحد الإساءة لا إلى ناجي ولا إلى نشأت، وأن اللبس قد جاء بسبب وجود قصائد نشأت في حوزة ناجي، وأنها تشبه في طابعها العام شعره الذى ينتمى إلى مدرسة «أبوللو» كما كان ينتمى إليها شعر نشأت في تلك الفترة.. وهدأت العاصفة بعد أن خلفت لدى جرحا وأصابتني بما يشبه العقدة من الاشتراك في أى عمل علمي أو أدبي مع غيرى أيا كان، خشية أن أتحمل أخطاء ليست من صنعي.. وقد كشفت لى هذه الأزمة أن كثيرا من الناس يسرعون إلى الاتهام دون تحرى الحقيقة. كما أنهم كثيرا ما يقسون في الأحكام ولا يلتمسون الأعذار.. ومع ذلك ترسخ في أعماقي أن الحفاظ على مقتضيات المروءة يكلف الكثير من التضحيات. ولكن المروءة تستحق ذلك وأكثر عند من يعرفونها ويقدرونها حق قدرها..

ومع هدوء العاصفة هدأت مشاعرى إلى حد ما، وأراد الله أن يدخل على قلبي فرحة تعوض ما عاناه من أحزان، فَمَنَّ على بالثالث من أولادى، حيث ولد أشرف يوم التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٦٣ .

□□□

السفر إلى إنجلترا في رحلة علمية:

وظللت على شيء من القلق والرغبة في عمل شيء حتى ولو كان مغامرة، فلعل ذلك يتمم هدوء مشاعرى ويرد إلى ثقى كاملة في نفسي.. ولذلك طلبت من الجامعة السماح لى بإجازة علمية لمدة عام في انجلترا، وكان وراء هذا الطلب هدفان أساسيان: الأول إتقان اللغة الإنجليزية في بلدها الأصلي، والاتصال بأدب هذه اللغة في موطنه الحقيقي. والهدف الثاني هو التعرف على الحياة الجامعية الإنجليزية، والوقوف على أهم نظمها وطرق التدريس والبحث فيها.. وقد وافقت الجامعة مشكورة على طلبي. فرتبت أمورى وأمّنت ماليا شئون أسرتي وغادرت مصر إلى انجلترا.. وكان أقسى ما عانيت منه حينذاك هو تركي لأطفالي الثلاثة الذين كانت

تتراوح أعمارهم بين أربع السنوات وثمانية شهور.. وعلم الله أننى قد أحسست بأنى قد تركت قطعا حية من قلبى ومضيت، مضيت والدموع تنهمر من عينى، وما هو أكثر لذعا من الجمر يوشك أن يحرق صدرى، حتى لقد تمنيت أن لو كنت أستطيع أن أرجع فى قرارى وألغى رحلتى. ولكننى استشعرت خجلا من أن أظهر بمظهر المتخاذل وأرفض فرصة علمية ممتازة أتاحتها الجامعة لتنمية ثقافتى، وهى فرصة ذهبية من الحماقة أن أضيعها بإرادتى..

وغادرت القاهرة إلى الإسكندرية ومعى للوداع زوجتى وأخواى الأكبر والأصغر وبعض الأصدقاء. ثم ركبت الباخرة «سوريا» من الإسكندرية يوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٦٣ إلى مرسيليا، ومنها ركبت القطار إلى شاطئ «المانش»، ومنه ركبت السفينة التى تعبره إلى الشاطئ الإنجليزى، الذى ركبت منه القطار إلى لندن، حيث وصلت يوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٦٣ ..

□□□

وبدأتُ فى لندن حياة طالب علم من جديد، أجلس فى مقاعد الطلاب فى القاعات الجامعية التى أحضر بها ما اخترت من محاضرات، بعد أن كنت فى مصر أستاذا مساعدا أجلس على المنصة وأمامى يتلقى عنى المئات من الطلاب والطالبات.. وكنت أتردد فى لندن بين مدرسة الدراسات الشرقية بالجامعة لأستمع إلى ما يقوله بعض المستشرقين عن الأدب العربى، وبين بعض المدرجات الجامعية لأتعرف على ما يقوله بعض الأساتذة الإنجليز من محاضرات عن الأدب الإنجليزى..

□□□

وفى كثير من الأمسيات كنت أذهب إلى مسرح قريب من الجامعة يشهد المترددون عليه عروضا مجانية قيمة.. وهذا المسرح هو مسرح «الأكاديمية الملكية لفن الدراما» ..

وبهذا كنت أقضى سحابة النهار فى متابعة بعض المحاضرات وزيارة المكتبات، وأقضى بعض الأمسيات فى متابعة بعض العروض الفنية. على حين أقضى الليل فى حجرتى بالبيت الذى أعيش فيه ويعيش فى حجرات مجاورة بعض أمثالى الغرباء أو بعض

الإنجليز البسطاء.. وفي بعض المناسبات كانت تتاح لى الفرصة للاشتراك فى رحلة إلى مدينة شهيرة من المدن الإنجليزية، مثل «كيمبردج» و«أكسفورد».. كما أتيحت لى فرصة زيارة بلدة الشاعر الكبير شكسبير، وحضور الاحتفال بذكراه وزيارة بيته.

□□□

قسوة الاغتراب والإحساس بالاكتئاب:

وعلى الرغم من يسر الحياة فى معظم جوانبها، فقد كانت بالنسبة إلى مشوبة بالوحشة وتغلفها الكآبة. وكان ذلك راجعا إلى أسباب بعضها يتصل بى، ويرتبط بعضها بطبيعة الحياة الإنجليزية. أما ما يتصل بى، فقد كنت معذبا بالبعد عن أطفالى الذين تركتهم فى مصر صغارا، والذين كانت زوجتى تخبرنى ببراءة وصدق عبر الخطابات عن مرض من يمرض منهم، وشوق من يلثغ بالشوق من بينهم، وما تنم عنه من حنين ملامح أو دموع أصغرهم.. وأما ما يتصل بطبيعة الحياة الإنجليزية فهو أن الناس هناك ـ كما رأيتهم ـ تغلب عليهم الانعزالية وتستغرقهم العلاقات العملية الجافة..

وهكذا أمضيت العام الدراسى فى لندن مثقلا أستشعر الوحدة فى أكثر الأحيان، حتى انتهى بى الأمر فى الأسابيع الأخيرة إلى لون من الاكتئاب، الذى جعلنى أسعى إلى الطبيب المختص، فأعطانى بعض الدواء المهدئ، ونصحنى بأن أشغل نفسى ـ فيما بقى لى فى لندن من أسابيع ـ بأن أشترى لزوجتى وأولادى الهدايا التى أعود بها إليهم، حتى أعيش نفسيا فى إطار مسعدٍ بهم، رغم البعد الشديد عنهم..

□□□

العودة إلى مصر، وتقويم الرحلة العلمية:

ومضى العام بسلام، وأخذت طريقى عائدا إلى مصر، فغادرت لندن فى اليوم الثانى من شهر يونية سنة ١٩٦٤ . وكانت العودة هذه المرة بباخرة إنجليزية تسمى «كامبيرا» تبدأ رحلتها من ميناء قريب من العاصمة البريطانية وتتجه إلى إستراليا مارة ببورسعيد..

□□□

ووصلت إلى بورسعيد يوم التاسع من شهر يونية سنة ١٩٦٤ . وكان فى استقبالى زوجتى وشقيقاى وشقيقتى الصغرى وزوجها.. ثم سافرت إلى الزقازيق حيث مسكن والدىّ، وحيث كان ينتظرنى أولادى. وكان أهم شيء أتمناه أن ألقى ابنتى عزة وأن أراها صغيرة كما كانت كى أستمتع بها طفلة كما تركتها، وأن أسعد بابنتى علا وأن أراها قد كبرت بعض الشيء لأستطيع أن أفهمها ما أحمل لها من شوق، وأن أحتضن ابنى أشرف وأن أراه بدأ الحديث لأتمكن من محاورته بالعبارة وليس بمجرد إشارة. وقد حقق الله ما حلمت به.. ثم عدت إلى القاهرة لأستأنف عملى بالكلية التى تركتها عاما دراسيا كاملا، ضحيت خلاله بالكثير وعانيت الكثير، ولكنى ربحت كذلك الكثير من المعرفة والخبرة.

□□□

(٣)

استئناف النشاط الأكاديمي والثقافي :

بعد العودة من مهمتي العلمية في إنجلترا استأنفت حياتي العلمية من جديد بمصر، مقسمة بين العمل الأصلي بكلية دار العلوم والانتداب أحيانا إلى عمل إضافي في بعض الكليات الأخرى، وبين النشاط الأدبي والثقافي في الإذاعة والتليفزيون، والنشر في بعض الصحف.. وكان أن فكرت في أن أؤلف في الأدب الحديث، بعد أن أسندت إليّ الكلية محاضرات فيه ألقيها على طلبة الليسانس. فبدأت أتوسع في قراءة مراجعه، والإحاطة بالظروف التي أثرت فيه، والتعرف على أبرز تياراته واتجاهاته وأهم أعلامه، وما يمكن أن يقال في ذلك كله كإضافة تحسب لمن يؤلف فيه من جديد.. وكان وراء ذلك أن أوسع تخصصي، بحيث لا يظل محصورا في الأدب الأندلسي المرتبط بالماضي البعيد، وأن أضيف إليه مجالا أفسح وهو مجال الأدب الحديث المرتبط بالحاضر المعيش. وشجعني على ذلك أني أشارك في الأدب الحديث إبداعا ومدارسة ونقدا، من خلال أنشطتي الحرة داخل الجامعة وخارجها..

□□□

وعلاوة على ذلك عاد المسئولون في التليفزيون إلى إحياء برنامج «جولة الأدب» وأسناده إليّ إعدادا وتقديما كما كان الحال قبل سفري إلى إنجلترا.. كما عاد

المسئولون فى الإذاعة إلى استضافتى فى بعض البرامج الأدبية وخاصة ما كان منها متصلا بالنقد.. وعدت من جانبى أكتب ما يلح على من شعر وأنشره فيما يتاح من وسائل النشر.. واستعدت بذلك ما فاتنى أثناء غيبتى فى إنجلترا عن بلدى.. ومضى على هذه الحياة المستأنفة عام ملئ بالعطاء الجامعى والنشاط الأدبى.. ولكننى كنت أحس أن رحلة إنجلترا قد أرهقتنى ماديا واستنفدت كل ما كان لدى من مدخرات. وتطلعت نفسى إلى أن أحسّن وضعى المادى كما يفعل الآخرون، فلعلى أستطيع أن أمتلك مسكنا صغيرا كما فعل زملاء غيرى، وأن أقتنى عربة تغنينى عن ركوب سيارات الأجرة، وتريحنى من المشى حين تتعذر تلك السيارات..

□□□

قبول إعارة إلى السودان:

وكان أن طلبتْ حكومة السودان استعارتى من كلية دار العلوم للعمل فى كلية الآداب فى جامعة الخرطوم. فقبلتُ أن أعار إلى تلك الجامعة، وتعاقدت معها عن طريق الملحق الثقافى بالسفارة السودانية، ووقّعت على عقد قدمه إلىّ دون أن أتحقق لا من درجة الوظيفة ولا من الراتب. وشجعنى على المضى فى تلك الإعارة أن زميلى الدكتور محمد غنيمى هلال قد حصل على مثلها بالجامعة نفسها. فاستأنست بصحبته واستبشرت خيرا بزمالته.. وأعددت العدة للسفر، وأتممت كل الإجراءات فى الإدارات المصرية والسفارة السودانية.. وقبيل السفر بأيام، طلبنى بالتليفون مدير مكتب وزير الثقافة والإعلام حينذاك الدكتور عبدالقادر حاتم، وأخبرنى أن الوزير يستدعينى للحضور على وجه السرعة، وحدد لى الساعة الحادية عشرة بمكتبه فى مبنى التليفزيون. فتخوفت كثيرا، لأن المألوف فى تلك السنوات أن المسئولين الكبار إذا طلبوا مواطنا على وجه السرعة، أن يكون وراء الأمر شىء يستحق التخوف.. وذهبت إلى لقاء الدكتور حاتم وكلى خشية من أن أكون قد قدمت شيئا مخالفا لسياسة الدولة من خلال برنامجى «جولة الأدب».. ووصلت إلى مكتب الدكتور حاتم،

فوجدت الرجل ينتظرنى بتلهف شديد ويقابلنى بترحيب ودود، ثم يثنى على ما أقدم فى التليفزيون ويمدح وطنيتى وأدبى وثقافتى. ثم يعرض على أن أنقل إلى التليفزيون بصفة نهائية وأشغل درجة أعلى من درجتى فى الجامعة، وذلك لكى أشرف على كل البرامج الثقافية والتعليمية.. فشكرت الرجل على حسن رأيه، واعتذرت إليه بأنى لا أفضل على الجامعة أى موقع آخر، علاوة على أنى قد ارتبطت مع السودان لأعمل معارا فى جامعة الخرطوم. فتأسف الرجل ورجانى ألا أقطع صلتى بالثقافة والإعلام فى بلدى، وأن أعتبره صديقا شخصيا لى.

□□□

وانصرفت من لقاء الدكتور حاتم سعيدا بثقته، ثم سافرت إلى الخرطوم يوم الحادى والعشرين من شهر يوليو ١٩٦٥، لأقوم بعملى فى جامعتها فى هذا الشهر من شهور الصيف الذى تبدأ الدراسة فيه. وسبقت أسرتى الصغيرة ببضعة أسابيع، لأهيئ لها المسكن ولتجهز نفسها للحاق بى.. ولا أنسى المعاناة التى عانيتها فى تلك الأسابيع منذ فارقت أطفالى الثلاثة وزوجتى متجها إلى مطار القاهرة، إلى أن استقبلتهم والتقيت بهم فى مطار الخرطوم.. كذلك لا أنسى لفحة الحر التى كادت تشوى وجهى وأنا أنزل من الطائرة فور وصولى إلى مطار العاصمة السودانية. فقد توهمت حين فتح الباب وبدأت أهبط سلم الطائرة أن ما لفح وجهى إنما هو صهد مشع من محركات الطائرة، ولكنى تأكدت أن آلات الطائرة بريئة من هذا الصهد، وأنه ليس إلا حرارة الجو الذى تعيش فيه الخرطوم فى فصل الصيف، وقبل أن تهطل الأمطار.

□□□

مفاجأة مؤلمة:

على أن أقسى ما آلمنى بعد وصولى إلى الجامعة وقيامى بالعمل، هو تلك المفاجأة التى صدمتنى حين عرفت أن العقد الذى وقعته فى مكتب الملحق الثقافى فى القاهرة، كان عقدا جائرا بالنسبة إلىّ، وأنى قبلت ـ من خلاله دون أن أدقق ـ درجة

قد وضُعت عليها فى السلم الجامعى أقل من درجتى فى جامعة القاهرة، فهى درجة تعادل درجة مدرس أول، التى كانت موجودة فى جامعاتنا فى زمن سابق، وهى دون مستوى درجة أستاذ مساعد التى أشغلها فى جامعتى المصرية.. ومما زاد فى صدمتى أن الذى أخبرنى بذلك زميل مصرى، أكد لى أنه كان يعرف هذه الحقيقة وهو فى مكتب الملحق الثقافى فى القاهرة ينهى إجراءات عقده ليعمل فى جامعة الخرطوم معى، وهذا الزميل كان ذات يوم بمثابة التلميذ لى، ومع ذلك كتم هذا السر وفاجأنى به فى الخرطوم..

□□□

مع الطيبة السودانية الغالبة:

وهكذا بدأت عملى فى كلية الآداب بجامعة الخرطوم، وأنا شاعر بسوء وضعى وخيبة أملى. ولكنى تصبرت وقلت فى نفسى: فلأسع لتصحيح وضعى ولعل الله يعوضنى..

وحضرتْ أسرتى الصغيرة إلى الخرطوم، وبدأنا حياة جديدة فى العاصمة السودانية، فيها بعض المعاناة من الأحوال الجوية وكثير من الجفاف فى الحياة الاجتماعية، وفيها أيضا رضا عن طيبة الغالبية من أبناء السودان فى الجامعة وخارج الجامعة. فالسودانيون العاديون أناس فيهم طيبة وسماحة. وهم أكثر الشعوب شبها بالمصريين فى أخلاقهم وسلوكياتهم، ويبدو أن اشتراك الشعبين فى النهر الخالد من جانب، وامتزاج أسر كثيرة من هذين الشعبين خلال سنوات طوال من جانب آخرٍ، جعل السودانيين ـ الشماليين ـ فى معظمهم وكأنهم مواطنون من جنوب مصر.. ويستثنى من هذا الحكم ـ فى رأيى ـ قليل من السودانيين الذين تأثروا بالثقافة الإنجليزية وارتبطت مصالحهم وتوجهاتهم بالسياسة الغربية.. ومن حسن الحظ أن هذه الطائفة من السوادنيين تمثل دائما الأقلية فى القطر الشقيق، وإن كانت أقلية مثقفة غالبا ولها تأثيرها فى مجريات الأمور فى كثير من الأحيان.. وكان هذا كله ينعكس على حياتنا وخاصة فى الجامعة، فهناك أناس

طيبون يتعاطفون معنا كمعظم أبناء السودان، وهناك آخرون يحاولون أن يتباعدوا عنا كتلك القلة السودانية ذات النزعة الغربية والسياسة الانفصالية..

وعلى أية حال قمت بعملى على أحسن ما يكون فى كلية الآداب بجامعة الخرطوم القومية، وانتدبت إلى إلقاء بعض المحاضرات فى بعض الكليات العسكرية. ووجدت من الطلبة إقبالا ومن الزملاء تقديرا ومن معظم الإخوة السوادنيين طيبة ومودة..

وتقدمتُ إلى إدارة الجامعة لإصلاح درجتى بما يتناسب مع وضعى الأكاديمى فى جامعتى. فوعدونى خيرا، وقالوا إن ذلك سوف يتم مع بداية العام الدراسى الجديد، حيث ينبغى أن يتم العام الحالى على الوضع المتعاقد عليه، فصدقت وقبلت إرجاء الحل إلى العام التالى..

□□□

وانتهى العام الدراسى الأول بسلام. وظفرنا خلاله بهدية كريمة من السماء عوضتنا الكثير مما أصابنا من عناء. فقد ولد لنا الولد الرابع والأخير من الأبناء وهو أيمن، الذى رأى النور فى الخرطوم يوم العاشر من فبراير سنة ١٩٦٦ ..

□□□

وعدنا إلى القاهرة لقضاء الإجازة. وكان فى نيتى ألا أرجع إلى السودان بسبب هذا الوضع الظالم أو الخاطئ الذى وضعت فيه. ولكننى نُصحت بأن أعود مع بداية العام الدراسى الثانى، لأظفر بتحقيق الوعد بإصلاح وضعى وإعطائى حقى.. وسبقت أولادى مرة ثانية إلى الخرطوم. لأجهز لهم المسكن وليجهزوا أنفسهم للحاق بى.. وعشت من جديد أسابيع وحيدا فى صيف الخرطوم القاسى، وقد زاد مَنْ تركتهم ورائى فى مصر طفلا عمره نحو خمسة شهور.. ثم لحقت بى أسرتى وبدأنا العام الدراسى الثانى، الذى لم يكن حظى فيه بأحسن من حظى فى سابقه. فقد أخذت الجامعة تسوِّف فى إصلاح وضعى، وأخيرا قال لى عميد الكلية إننا على استعداد لترقيتك إلى الدرجة الأعلى إذا قدمت إنتاجا يسمح لك بتلك الرقية. وهنا ثرت على

هذا الوضع المزرى وقلت له: إن من شأنى أن أرقّى من يتقدمون إلى مثل هذه الدرجة، فمن ذا الذى يرقينى عندكم إليها؟؟. وقررت من ساعتها أن أنهى إعارتى وأعود فورا إلى بلدى. غير أن مصلحة الطلاب أجبرتنى على أن أستمر حتى نهاية الدراسة وإتمام أعمال الامتحان، ثم أعود نهائيا إلى مصر، مهما كان حجم الإغراء ومهما كانت الترقية بعد ذلك من جامعة الخرطوم.

□□□

حصاد رحلة السودان، وبعض الذكرايات:

وانتهى العام الدراسى الثانى بسلام، وعدت أنا وأسرتى إلى القاهرة يوم السادس والعشرين من شهر مارس ١٩٦٧، دون أن أحقق ولا بعض ما حلمت بتحقيقه، فقد كان الراتب ضئيلا وإن كان ـ بسبب الاغتراب ـ أكبر من الراتب المصرى نوعا.. ومن هنا لم أحقق مدخرات تذكر، ولم أستطع أن أظفر بما كنت أحلم به من وراء هذه الإعارة، من امتلاك مسكن صغير أو شراء عربة متواضعة وكل ما غنمته ماديا من هذه الرحلة، هو مبلغ ضئيل أنفقته فى إصلاح مسكنى بالقاهرة، الذى ساءت حاله بسبب تركى له سنتين مهملا.

□□□

على أنى ربحت من رحلتى إلى السودان ربحا معنويا كبيرا. فقد أتاح لى الوقت الوفير، وعدم التشتت بين أنشطة مختلفة ـ على نحو ما كنت عليه فى القاهرة ـ أن أنجز معظم ما كنت شرعت فيه من دراسة عن الأدب الحديث، وهى الدراسة التى ظهرت بعد ذلك فى كتابين، هما «تطور الأدب الحديث فى مصر» و«الأدب القصصى والمسرحى فى مصر»، وقد صدرا بعد ذلك سنة ١٩٦٨ .

□□□

وإلى جانب هذا الربح المعنوى، حملت بعض الذكريات التى لا يمكن أن أنساها.

ومن هذه الذكريات أن الجامعة أسكنتنى أولا فى «فيلا» من طابق واحد فى حى قريب من المطار يسمى حى «الامتداد»، وهو حى راقٍ ولكنه جديد وبعيد نوعا عن العمران.. ولأنه حى يعمل فى تشييده عدد غير قليل من العمال البسطاء غير

الواعين، فهو عرضة لألوان من السطو الساذج على أيدى بعض هؤلاء العمال الذين قد يكونون من الجنوبيين أو من غير السودانيين.. وكانت العادة أن يبيت الناس خلال أشهر الصيف فى حدائق المساكن أو فى أفنيتها ولا يبيتون فى الحجرات تجنبا للحر الشديد.. وفعلت ما يفعله كل الناس هناك، فرصصت الأسرّة فى حديقة «الفيلا» حيث ينام أفراد الأسرة، وبتنا عدة ليال كما يبيت الناس نحتمى بالسور العالى كما يفعل الآخرون. وذات ليلة وأنا مؤرق على عادتى فى أكثر الليالى، فوجئت برجل شبه عار يقف أما سريرى ويتلصص باحثا عن شيء يخطفه، فصرخت فيه ففر مسرعا من أمامى دون أن يأخذ شيئا، وقفز فوق السور إلى خارج «الفيلا» واختفى فى ظلمات الشارع. ولكننى ظللت أصيح فى حالة شبه هستيرية رغم اختفاء الرجل.. واستيقظ أولادى على صرخاتى. ثم أخذت أستعيد هدوئى قليلا قليلا، ولكننى شعرت أن الفك الأسفل من فمى قد أصبح يؤلمنى، وأحسست كأن حنجرتى قد أصيبت ببعض الجراح لكثرة ما أطلقت من الصياح.. وأعترف أنى خفت ليلتها خوفا رهيبا لا أنساه، وفهمت لأول مرة المعنى النفسى الحقيقى لقول زهير بن أبى سلمى:

«ومن يغترب يحسب عدواً صديقَه»

على أن مثل هذه الحادثة وأكثر منها يقع فى كل بلاد العالم. وإنما أذكر هذه الحادثة هنا كطرفة أشرح من خلالها تجربة خوف الغريب، الذى هو خوف من نوع خاص، كما كشف ذلك قول زهير فى معلقته المشهورة..

وعلى كل حال خرجت من رحلة السودان بإحساسين، أحدهما يتصل بقدَرى والآخر يتصل بقدرنا مع السودان. أما قدرى فقد غلب علىَّ الإحساس بأنى لست من المحظوظين فى شئون المال وخاصة ما يتصل بالكسب من الإعارات.. وأما مايتصل بالسودان، فقد تعمق لدَىَّ الإيمان بأنه أقرب البلاد إلى مصر، وأن السودانيين فى جملتهم أشبه شعوب الأرض بالمصريين، وأن الروابط بين الشعبين – رغم كل العوارض – هى أشد وأقوى الروابط، وأن الأرض السودانية – رغم التقلبات – سوف تظل العمق «الإستراتيجى» للأراضى المصرية.

(٤)

الألم الفادح بهزيمة يوليو :

بعد عودتي إلى مصر من رحلة الإعارة إلى السودان ـ في مارس ١٩٦٧ ـ كان العام الدراسي بالكلية قد أوشك على الانتهاء، فلم أكلف بإلقاء محاضرات. ولذا كانت الفرصة متاحة لكي أتفرغ لنشاطي الأدبي ولطبع كتابيَّ اللذين أتممتهما تقريبا في السودان.. وكنت سعيدا بالعودة وباستئناف نشاطي الأدبي الذي حرمت منه عامين دراسيين. كما كانت أسرتي الصغيرة فرحة لجمع الشمل والعودة إلى الأهل.

□□□

وفي غمرة هذه السعادة فوجئت كما فوجيء الجميع بنكسة يونيو سنة ١٩٦٧، فاهتز في داخلي ومن حولي كل شيء، وتحطمت أحلام كبار وتهاوت رموز عظام، واستشعرت مرارة لا أبالغ إذا قلت إن آثارها مازالت في حلقي إلى اليوم.. وأصاب بصري مرض غامت معه عيني اليمنى، وعرفت فيما بعد أنه التهاب بعصب الإبصار في هذه العين، واجتهدت في أن أخفف منه بمساعدة طبيب كبير هو الدكتور عبدالمنعم لبيب، الذي بذل ما يستطيع من جهد. ولكن المرض خلف بهذه العين ضعفا شديدا مازال يلازمني إلى اليوم.... وفي اعتقادي أن هذا الذي أصابني كان من آثار صدمتي الرهيبة بما حدث لمصر من نكسة. فلم يثبت طبيا أني كنت أعاني من أي مرض عضوي يمكن أن يفضي إلى الالتهاب الخطير لعصب الإبصار.

□□□

مضاعفة الألم بوفاة شقيقتي الصغرى:

ونصحني المخلصون من الأصدقاء أن أخفف عن نفسي بأن أسافر إلى الإسكندرية لقضاء بعض الوقت للاصطياف والترويح، فسافرت والأسرة مع قدوم شهر أغسطس، وقضينا بعض الوقت الطيب الذى خفف بعض معاناتي.. ولكن بعد مضى نحو أسبوعين، وأثناء الليلة الثانية عشرة من ذاك الشهر، نَعى إليّ ناع شقيقتي الصغرى التي تعيش في الزقازيق.. فحزنت لموت هذه الأخت أشد الحزن، وأتممت ليلتى سهران أبكى وأتعجل قدوم الصباح لكى أسافر إلى الزقازيق، وأودع شقيقتي الوداع الأخير، وأكون مع الأهل حين نواريها التراب.. وسبب شدة الحزن ومرارة البكاء أن موت هذه الشقيقة كان أول حادث موت يلم بالأسرة وأنا كبير واع، فما حدث من قبل من وفيات كنت أثناءه صغيرا لا أدرك بشكل دقيق حجم الألم الذى يسببه موت عزيز من الأهل. أما هذه المرة فقد ماتت شقيقتي الصغرى فجأة، وكانت مثالا رائعا للرقة والحنان والعطاء.

وهكذا واجهت ثلاث صدمات متتاليات في وقت لا يزيد كثيرا على شهرين، صدمة بما أصاب بلادى بسبب هزيمة يونيو، وصدمة بما أصاب عيني اليمنى، وصدمة لوفاة شقيقتي المسكينة التى كنت أشعر دائما بقربها الشديد من نفسى، ربما لأنها الصغرى، وربما لأننى أسهمت فى تزويجها ممن يكبرها، ومَن عاشت سنوات زواجها منه محرومة من الإنجاب ومضحية كأنبل ما تكون التضحية..

□□□

استئناف النشاط وظهور الكتابين الجديدين:

وحاولت أن أتغلب على مواجعي وهمومي بالعمل الجامعي والاندماج فى النشاط الأدبي. وساعد على ذلك أن الكلية أسندت إليّ محاضرات الأدب الحديث إلى جانب الأدب الأندلسي.. وظهر كتاباى الجديدان عن «الأدب الحديث فى مصر» و «الأدب القصصي والمسرحي في مصر»، كما ظهرت طبعات جديدة من كتابى «الأدب الأندلسي» .. كذلك ساعد على تخفيف همومي مشاركتي فى نشاط دار الأدباء، التي كانت قد افتتحت بشارع قصر العيني واهتم بأمرها يوسف السباعي.. ومن خلال هذا

النشاط توثقت علاقتى بمجموعة عزيزة من الأدباء والشعراء مثل: يحيى حقى ويوسف السباعى وعبدالرحمن الشرقاوى وعبده بدوى وعبدالعزيز الدسوقى.

عودة الأحزان بوفاة الوالد:

وخلال هذا عاودتنى الأحزان من جديد، حيث توفى والدى يوم الرابع والعشرين من شهر أبريل ١٩٦٨ .. وهكذا تكرر حادث الوفاة فى الأسرة فى أقل من عام فتجدد الحزن. ولكن الحياة لم تتوقف فاستأنفت عملى الجامعى كما استأنفت نشاطى الأدبى، محاولا بالمزيد من البذل فى هذا وذاك ألا تستغرقنى الأحزان.

□□□

الترقية إلى درجة أستاذ، والسفر إلى العراق :

ومما خفف من أحزانى بعض الشئ أنى رقيت إلى درجة أستاذ يوم التاسع والعشرين من شهر يوليو ١٩٦٨ ، بعد شهور قليلة من وفاة الوالد، حيث رضيت اللجنة العلمية التى كان يرأسها الدكتور طه حسين عن إنتاجى العلمى وأشادت به.

ثم تم اختيارى ضمن الوفد المصرى المشارك فى مؤتمر الأدباء السابع الذى أقيم بالعراق فى ابريل ١٩٦٩ ... وكان هذا الوفد المصرى يضم عددا من كبار الشعراء وخيرة الكتاب، مثل محمود حسن إسماعيل وعبدالرحمن الشرقاوى وعلى أحمد باكثير وثروت أباظة وأنيس منصور واسماعيل النقيب.

□□□

وقد قضينا بعض الأيام فى بغداد، ثم انتقلنا إلى البصرة، فانتهزت الفرصة وسافرت مع بعض الأصدقاء إلى الكويت وقضينا بها سحابة يوم. وكانت الزيارة الأولى للعراق كما كانت الزيارة الأولى للكويت.. وفى بعض جلسات المؤتمر الذى عقد فى بغداد، ألقيتُ البحث الذى كنت قد كلفت به وهو عن «توثيق الارتباط بالتراث العربى» .. أما فى البصرة فكان اللقاء شعريا. وقد استمعت فيه إلى كثير مما أوجعنى من الحديث عن النكسة، والتعريض غير الكريم بمصر. فدافعت ما استطعت ـ مثل

كل الزملاء المصريين ـ عن بلدى الذى ألف كثيرون من الإخوة العرب تحميله وحده مسئولية ما يكون من هزيمة، كما ألفوا كذلك مشاركته فيما يكون من نصر.. وكان من أروع ما سعدت به فى رحلة العراق، زيارة كربلاء حيث مثوى الحسين..

□□□

الفوز بجائزة الدولة التشجيعية:

وبعد العودة من هذه الرحلة تقدمت إلى المجلس الأعلى للفنون والآداب لنيل جائزة الدولة التشجيعية فى النقد والدراسات الأدبية، وقدمت إلى المجلس الكتابين اللذين ظهرا منذ فترة وجيزة. وفزت بنيل هذه الجائزة، وفرحت فرحا شديدا بهذا التوفيق.. وأذكر أن أول من أشعرنى بنيل الجائزة الدكتور طه حسين.. وأقول : أشعرنى، لأنه لم يصرح لى بذلك ـ وكان رئيسا للجنة التى تمنح الجوائز ـ وإنما تصرّف معى فى موقف مازلت أذكره تصرفا حانيا رقيقا عرفت منه مايريد أن يقول، دون أن يقول.. فقد كان هناك افتتاح مؤتمر للمجمع اللغوى، وذهبت لأشهد هذا الافتتاح ولأرى طه حسين وأسلم عليه، وحين تقدمت إليه لأحييه قبل بدء حفل الافتتاح، أمسك بيدى وظل يتلطف معى ويسأل عن أحوالى وهو يبتسم فى رقة بالغة، وأبقى يدى فى يده مدة بشكل لافت للنظر، حتى أن السيدة «سوزان» زوجته أقبلت علىّ ونبهتنى إلى عدم الإطالة مع الرجل حتى لا أرهقه، فانصرفت من بين يديه سعيدا موقنا أن هناك شيئا سارا.. وحسم الأستاذ زكى المهندس الأمر حين أخذنى جانبا وأخبرنى أننى نلت الجائزة، عن كتابى «تطور الأدب الحديث فى مصر»، ثم هنأنى. وكان يحضر هذا كله تلميذى ـ حينذاك ـ عبداللطيف عبدالحليم، الذى صار فيما بعد الدكتور «أبا همام».

وهكذا خفف الله أحزانى ومنحنى كثيرا من السعادة بما منّ علىّ به من نجاح، حيث نلت جائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٩، ومعها وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى..

ولكن الغريب أن الجائزة لم تسلم إلىّ ولا إلى غيرى فى حفل عام كما كان يحدث من قبل، وإنما سلمت إلىّ مكافأتها المالية التى كانت أيامها خمسمائة جنيه،

وكان التسليم من الموظف المختص بالمجلس الأعلى للفنون والآداب. أما الوسام فلم يسلم إلىّ ولا إلى غيرى إلا بعد فترة طويلة.. وقد قيل إن السبب فى عدم الاحتفال وفى تأخير تسليم الأوسمة، أن الفائز بالجائزة التقديرية فى ذاك العام فى العلوم الاجتماعية كان الدكتور السنهورى، وقد قيل إن الرئيس عبدالناصر فوجىء بذلك ولم يكن يستريح للسنهورى، فأوشك أن يلغى الجوائز ذاك العام، ثم توسط بعض أهل الخير فتم الاكتفاء بتسليم المكافآة المالية دون احتفال، وصُرف النظر عن الأوسمة.. ومن هنا لم تسلم هذه الأوسمة طيلة حياة عبدالناصر، وإنما سلمت بعد أن تولى الرئيس السادات، الذى أصدر براءاتها باسمه فى ديسمبر ١٩٧١.

□□□

تجدد الأحزان بوفاة الوالدة، ثم عبدالناصر:

ولم أكد أفرح بالفوز بالجائزة، وأرى أن الأيام ابتسمت لى من جديد، حتى زار الموت أسرتنا مرة أخرى، فماتت والدتى يوم الثانى عشر من شهر سبتمبر ١٩٧٠.. وقد أحزننى موتها كثيرا.. وأذكر أنها قبل وفاتها بأسابيع كانت تقيم معى بعض الوقت فى منزلى بالقاهرة، حيث أبذل أقصى الجهد لعلاجها، وحين أحست بأن المرض قد اشتد عليها طلبت أن تذهب إلى شقيقتى بالمطرية، وأثناء مغادرتها انخرطتْ فى بكاء مر، وقالت: إنى أحس أنى لن أعود إلى هنا ثانية، وإنّ أشد ما يحزننى أنى أشعر أنك ستحزن علىّ كثيرا إذا مامت، فأرجوك وأستحلفك بالله أن تخفف عن نفسك، لأنى سأتعذب كثيرا لحزنك، وسأسعد فى قبرى إذا أحسست بسعادتك فى دنياك..

□□□

وهكذا تجدد الحزن، ثم تضاعف من حزنى الخاص إلى حزن عام، فقد مات جمال عبدالناصر يوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٠، وذلك بعد موت والدتى بنحو أسبوعين.. وأعترف أننى لم أكن أرضى عن كثير من سياسات

عبدالناصر وأعماله، ولكننى حين مات حزنت عليه حزنا كبيرا، وشعرت أنه كان أشبه بقائد عربة نعبر بها الصحراء، وأنه فجأة مال على عجلة القيادة وصعدت روحه إلى السماء.. ومن هنا صدمت بموته كثيرا وبكيته صادقا ورثيته صادقا.

□□□

الترقية إلى درجة أستاذ كرسى، والسفر إلى تونس:

وعدت أغرق نفسى فى العمل الذى أراه يحول بين المرء والاستغراق فى الهموم، فكنت ـ بالإضافة إلى الأعمال الجامعية ـ أشارك فى بعض الحلقات الدراسية، كالحلقة التى نظمتها جامعة الدول العربية عن «الأدب بين الأصالة والمعاصرة»، وكالحلقة التي نظمتها جمعية الأدباء عن «التراث العربى».. وكانت هذه الفترة من أهم الفترات التى نشرت خلالها مقالات، كان أكثرها فى «مجلة الهلال».. كذلك حدث فى السنوات الأخيرة من تلك الفترة، أن تم اختيارى عضوا بالمجلس الأعلى للإذاعة والتليفزيون، الذى كان يرأسه الدكتور حاتم، وكانت قد تمت ترقيتى إلى درجة أستاذ كرسى الأدب، فى اليوم الثلاثين من يناير ١٩٧١، بعد أن كنت أستاذا منذ عام ١٩٦٨ . وذلك وفق النظام الذى كانت تسير عليه الجامعات أيامها..

□□□

ثم اختارنى المجلس الأعلى للفنون والآداب لأكون ضمن الوفد المصرى فى مؤتمر الأدباء التاسع بتونس فى مارس ١٩٧٣.. فسافرت بصحبة مجموعة من كبار الشعراء مثل عزيز أباظة وأحمد رامى ومحمود حسن اسماعيل. وألقيت بحثا عنوانه «نحو استراتيجية أدبية عربية لمقاومة الاستعمار والصهيونية». وسعدت فى رحلة تونس بصحبة كريمة، وعرفت يوسف السباعى عن قرب، فوجدته إنسانا سمحا طيبا ينسى الإساءة ويلتمس الأعذار لمن يسيئون إليه.. فأثناء انتقالنا من مدينة لأخرى فى تونس، طلب إلىّ أن أصحبه فى العربة المعدة له، وأثناء الطريق ذكر أن كثيرا من النقاد والأدباء يسيئون إليه ولكنه لا يحمل حقدا ولا كراهية لأحد، وحين سألته عن بعض من أساءوا إليه، قال لى: لن أحدثك عن آخرين، ولكنى سأحدثك عنك أنت، فإنك أسأت إلى ذات

يوم وبعثت إلىّ بمن يحمل هذه الإساءة ولكنى رغم ذلك أحبك، وها أنت ترانى أقربك وأصحبك معى فى سيارتى دون بقية الزملاء ثم ذكّرنى بقصة حدثت منذ بضع سنوات، وخلاصتها أنى كنت قد ذهبت مع بعض الزملاء لزيارة مقر جمعية الأدباء بعد تجديده وتأثيثه، وحين حاولنا الدخول استوقفنا البواب ـ وكنت أتقدم من معى ـ ثم منعنا من الدخول لأننا لا نحمل بطاقات، فسألته مغيظاً: مَنْ فى الداخل من الرؤساء؟ فقال : الأستاذ يوسف السباعى، فقلت له بلغه ما يلى، وقلت كلاما غاضبا طائشا فى لحظات انفعال حمقاء، ولم يخطر ببالى أن البواب قد أوصل كل ما قلت إلى الأستاذ السباعى، إلا حين اصطحبنى فى السيارة فى تونس، حيث ردد على مسامعى كل ما تفوهت به فى ساعة غضبى، وكان يضحك فى صفاء ومودة، ويقول: لقد كنتَ على حق فى كل ما قلت، ولو كنت مكانك لقلت أكثر منه.

□□□

لقاء مع القوات المسلحة فى معسكر الجلاء قبيل نصر أكتوبر:

ومن ذكريات هذه الفترة أنى استدعيت للمشاركة فى لقاء فكرى وأدبى مع أبناء قواتنا المسلحة فى معسكر الجلاء بالإسماعيلية قبل العبور العظيم بأسابيع. وكان المشاركون فى هذا اللقاء ثروت أباظة ويوسف إدريس وصلاح عبدالصبور وعبدالمنعم الصاوى. وأذكر أنى أحسست يومها أن رجال قواتنا المسلحة يتلهفون على الحرب للثأر من هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، فقد وجدت الروح المعنوية فى الذروة..

وعدت من هذه الزيارة وأنا على يقين أننا على وشك معركة فاصلة سوف ينتصر فيها هؤلاء الأبطال، وقد كان. ففى يوم السبت السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، تألق كضوء الفجر صوت البيان العسكرى الأول الذى يخبرنا بنبأ العبور العظيم..

ومع هذا النصر العظيم وما أحاط به من فرح عظيم، أتيحت فرصة نجاح أضافت إلى الفرحة القومية العامة فرحة شخصية خاصة، فقد تم اختيارى لأعمل مستشارا ثقافيا للسفارة المصرية بمدريد، ولأكون مديرا للمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بالعاصمة الإسبانية.

المرحلة السادسة

المرحلة الدبلوماسية

(١)

اختيارى مستشارا ثقافيا بفضل تزكية صديق كريم :

هذه المرحلة تمثل نقلة كبيرة فى حياتى. ففى هذه المرحلة جمعت إلى معرفة الوسط العلمى الذى من قبل ألفته، معرفة الوسط الدبلوماسى الذى فى هذه المرحلة خبرته.. وفى هذه المرحلة اتصلت ـ بحكم العمل ـ بالوزراء والسفراء والقناصل، كما دخلت قصور بعض الحكام، وقابلت بعض رؤساء الدول، وحدثت بعض أصحاب الفخامة والعصمة من الرؤساء أو قرينات الرؤساء .. وأحمد الله أن هيأ لى تلك الفرص، وأحمده أكثر أن أعاننى على أن أكون أهلا لها، وأن أنجح فى تحمل تكاليفها والتزاماتها.

□□□

ولم يكن اختيارى لشغل هذا المنصب راجعا إلى مكانتى العلمية وحدها، ولا إلى شهرتى الأدبية فحسب، ولا لمجرد الأمرين معا، فالحق أن ذلك لم يكن يكفى للترشيح لهذا المنصب الذى يتطلب إلى جانب المكانة العلمية والأدبية أن يكون من يرشح له معروفا عند أصحاب القرار، إما عن طريق مباشر، وإما عن طريق التعريف به والتزكية له لدى أصحاب القرار... وأهم أصحاب القرار فى هذا المجال وزير التعليم العالى الذى تتبعه المراكز الثقافية ومكاتب البعثات فى الخارج، ثم وزير الخارجية الذى لابد من

موافقته على المرشح لينال الصفة الدبلوماسية ويكون مستشارا ثقافيا للسفارة المصرية للبلد الذى سيعمل به...

ولم تكن لى صلة بوزير التعليم العالى حينذاك، وربما لم أكن معروفا لديه بالقدر الكافى، رغم أنه الوزير الذى تتبعه الجامعة التى أعمل بها... كذلك لم تكن لى أية صلة بوزير الخارجية وقتها، وبالقطع لم أكن معروفا لديه، لبعده تماما عن المجال الجامعى الذى أنتسب إليه... ومن جانبى لم أكن أسعى لتولى هذا المنصب رغم تطلعى إليه. والسبب فى عدم سعيى ما جبلت عليه من الحياء والتعفف والمبالغة فى الحفاظ على الكرامة، وكراهية الجرى وراء المناصب، والاكتفاء بالاجتهاد فى مجال العلم والأدب، والقناعة بما يوصل إليه هذا الاجتهاد من الترقى الطبيعى، كما تعودنا من التدرج فى السلم الجامعى.....

□□□

ولذا قد تم اختيارى لشغل منصب مستشار ثقافى للسفارة المصرية فى إسبانيا ومدير لمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد، بناء على تزكية كريمة من صديقى الدكتور عبد القادر القط.. والذى حدث أنه كان قد رُشح هو لهذا المنصب بل صدر قرار وزارى باختياره. ثم بدا له أن يسألنى حين التقى بى ذات ليلة فى دار الأدباء، نظرا لخبرتى فى الشئون الإسبانية. فشجعته على قبول الترشيح والإسراع بالسفر إلى مدريد. وحين قال إنه لا يعرف الإسبانية، أجبته بأنه من الممكن التعامل مؤقتا باللغة الأجنبية التى يجيدها، والاستعانة على الإسبانية ببعض المساعدين كما فعل بعض الزملاء من قبل. ولكنه قال لى إنك الأولى بهذا المنصب، وسأعمل على أن تُرشّح أنت للسفر إلى مدريد.. وحين ألححت عليه أن يحتفظ بالترشيح لنفسه أبدى موافقة وقتية، ثم ذهب فى اليوم التالى إلى وزارة التعليم العالى ـ دون أن أعرف ـ وتنازل لى عن هذا المنصب فى إيثار نادر ووفاء عظيم، وفى سلوك الرجل المثقف المتحضر الذى يعرف أين يضع نفسه وأين يضع غيره....

وما لبث وزير التعليم العالى أن استدعانى ـ وكان أيامها الدكتور كامل ليلة ـ وأخبرنى بترشيحى، وطلب من وكيل الوزارة المسئول أن يتخذ الإجراءات لانتدابى. وصدر قرار وزير التعليم العالى بندبى مستشار ثقافيا ومديرا لمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد فى يوم ٣٠ من شهر سبتمبر ١٩٧٣ ... ثم صدر قرار وزير الخارجية بالموافقة على هذا الندب بعد نحو شهر...

□□□

تأخر سفرى إلى إسبانيا بسبب حرب أكتوبر:

وقد قضت ظروف حرب أكتوبر أن يتأخر سفرى نحو شهرين. وكان هذا طبيعيا بل ضروريا، فقد كانت مصر كلها تعيش هذا الحدث الكبير الذى هز الدنيا وشغل العالم.. ولم يكن من المستطاع أن أسرع بمغادرة بلادى وهى تعيش تلك الأحداث المصيرية الهائلة، التى كانت المشاعر خلالها مزيجا من الفرح العظيم الذى لابد أن أشارك فى السعادة به، ومن الإشفاق الحميم الذى لا مفر من أن أقاسم أبناء وطنى الحياة فيه.. وأخيرا تأكد لمصر النصر المبين، وتم تحجيم التآمر على هذا النصر من الحاقدين والمكابرين، واعترف العالم بما حققته مصر من إنجاز لا سبيل إلى الانتكاس فيه أو الانتقاص منه..

□□□

وسافرت إلى إسبانيا يوم ٢٧ من شهر ديسمبر ١٩٧٣، سابقا أسرتى ببضعة أيام لكى أعد لها المسكن المناسب وأهيئ لها وسائل المعيشة الملائمة..

واستقبلنى بحفاوة مسئولون كرام من السفارة المصرية ومن العاملين فى معهد الدراسات الإسلامية. وكان الموضوع الذى يسبق كل حديث هو السؤال عن مصر وعن معركة أكتوبر، وعن أبعاد تلك المعجزة التى حققها جيشنا الباسل بما يفوق كل الحسابات، بعد أن خطط لها ودبر لنجاحها الزعيم العظيم أنور السادات....

ولم يكن الحديث عن نصر أكتوبر مقصورا على الإخوة المصريين، بل كان حديث كل من التقيت بهم بعد ذلك من العرب والإسبان. فقد كان الجميع مبهورين بهذا النصر العظيم، مقدرين لمصر بطولة جيشها وصلابة شعبها وعبقرية قيادتها...

وكان اللقاء بإسبانيا بعد هذا النصر الكبير أول أسباب سعادتى، التى تضاعفت بسبب عودتى إلى بلاد بعد ثمانية عشر عاما من مغادرتى لها، عقب إتمام دراستى لنيل درجة الدكتوراة منها.. ولذلك لا أبالغ إذا قلت إن حلاوة هذه الأيام التى شهدتْ تلك العودة، مازالت من أجمل ما استشعرت فى حياتى من نشوة. فقد كنت أيامها سعيدا غاية السعادة لأنى أنتمى إلى البلد العظيم مصر، الذى حقق من الانتصارات مابهر الناس وضاعف احترامهم لنا وإجلالهم لبلدنا، ثم لأنى أجد نفسى من جديد فى البلد العزيز إسبانيا، الذى عشت به سنوات دراساتى حتى نلت الدكتوراه، ثم عدت إليه فى منصب مرموق أشرف فيه على المعهد الذى كان مشرفا علىّ ذات يوم، وأعمل مسئولا بالسفارة المصرية التى كنت من سنوات سائلا لرعايتها...

□□□

بداية العمل وأهم محاوره:

وبعد عدد من حفلات التكريم والاستقبال ـ لى ولأسرتى التى تبعتنى ـ بدأت عملى مجتهدا أن أحقق شيئا أضيف به جديدا مفيدا إلى جهود من سبقونى فى موقعى.. وأول شئ اهتممت به هو أن أصحح اسم معهد الدراسات الإسلامية، فقد كان ـ لسبب لا أعرفه ـ قد حُذف منه ما يدل على أنه مؤسسة مصرية كاملة الانتماء إلى مصر؛ ولذا كان أمر هذا المعهد يختلط لدى الناس، فيحسبه بعضهم تابعا للجامعة العربية، ويحسبه آخرون تابعا للسلطات الإسبانية، ويسميه البعض «المركز

الإسلامى» ويسميه بعض آخر «المركز الثقافى»، بل إن واحدا من الإخوة العرب قد أنشأ ما سماه «المركز الإسلامى» فى مدريد، ووجبت عليه التزامات مالية لبعض الجهات الإسبانية، وتوجهت تلك الجهات بالمطالبة إلى معهدنا، ظنا بأنه هو هذا المركز المسئول عن تلك الالتزامات.. ولذا قررت منذ الأيام الأولى أن يكون اسم المعهد هو «المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد» مضيفا صفة «المصرى» إلى اسم المعهد... وكتبت إلى وزارة التعليم العالى بذلك، ولم أنتظر الموافقة، بل كلفت من صنع للمعهد لافتة جديدة تحمل هذا الاسم المصحح، وجعلت كل مطبوعات المعهد تحمل نفس الاسم المحدد... ومن يوميا زال اللبس وأصبح واضحا للجميع أن هذه المؤسسة العلمية التى توجد فى مدريد منذ عام ١٩٥٠، والتى أسسها الدكتور طه حسين لدراسة الحضارة الأندلسية، هى مؤسسة مصرية خالصة، لاسبيل إلى أن يدعيها أحد لنفسه، ولا مجال لأن يُظَنّ أنها مركز دينى للشعائر أو مركز ثقافى للترفيه، وإنما هو معهد للدرس والبحث فى الحضارة الإسلامية وخاصة الأندلسية، على المستوى الأكاديمى...

□□□

وبعد هذا التصحيح قسمت وقتى بين أداء واجبى كمدير للمعهد وكمستشار للسفارة... أما الواجب الأول فقد اقتضى العمل على إصدار المجلة العلمية الخاصة بالبحوث والدراسات الأندلسية... كما اقتضى هذا الواجب الأول تنظيم بعض المحاضرات العامة لبعض المستشرقين والعلماء المصريين فى مجال تخصص المعهد... كذلك اقتضى واجب تنشيط المعهد تنظيم دروس اللغة العربية التى تقدم للأجانب وخاصة الإسبان. وكنت أقوم بنفسى بتدريس هذه الدروس، التى كانت نواة لواحد من أهم كتبى وهو «منهاج عربى للمتحدثين بالإسبانية».

□□□

وإلى جانب هذا النشاط العلمى اهتمت بعدد من الأنشطة الثقافية التى تُنتظر من المعهد بصفته مؤسسة مصرية.. ولذا حرصت على عرض بعض الأفلام المصرية الجيدة مثل فيلم «صلاح الدين» وفيلم «دعاء الكروان» وغيرهما.. كذلك حرصت على إقامة بعض المعارض للفنون التشكيلية تمثل إبداعات كبار التشكيليين المصريين، مثل معرض الفنان محمد صبرى الذى كان وكيلا للمعهد، والذى كان له الفضل فى تنظيم مثل هذه المعارض بحكم تخصصه كفنان تشكيلى كبير.

□□□

وأما الواجب الثانى ـ وهو المتصل بعملى كمستشار ثقافى للسفارة ـ فقد اجتهدت فى أن أؤديه كأحسن مايكون، بدءا من الإشراف على المبعوثين المصريين الذين يدرسون بالجامعات والمعاهد الإسبانية، وانتهاء بمتابعة الحركة العلمية والثقافية فى إسبانيا، وتقديم صورة عنها إلى وزارة التعليم العالى فى مصر، ومرورا بتيسير مهام كل مصرى يفد إلى إسبانيا لأمر من الأمور الثقافية أو العلمية، وكذلك تيسير مهمة أى إسبانى متجه إلى مصر لأمر من تلك الأمور.. كل ذلك مع الاهتمام بتنمية العلاقات الثقافية المصرية الإسبانية، وعمل كل مامن شأنه أن يوثقها ويزيد من فاعليتها ويحسن من نتائجها... وقد كان بعض مهامى كمستشار ثقافى يتجاوز خدمة مصر إلى خدمةبعض البلاد العربية الشقيقة. وأذكر على سبيل المثال أن الكاتب الغربى «أونسكو» ـ الشهير بمسرح اللامعقول ـ كتب مرة فى بعض الصحف الإسبانية مقالا مس فيه الشقيقة ليبيا، فاجتمع مجلس السفراء العرب فى مدريد للنظر فى هذا الأمر، وانتهى قرارهم بأن يتولى المستشار الثقافى المصرى الرد عليه، فكتبت ردا بالإسبانية، وبعثت به إلى المجلة التى نشر بها «أونسكو» مقاله، فنشرت المجلة الرد الذى أعتقد أنه رد الأمر إلى نصابه، وانتصف للشقيقة ليبيا من الكاتب الغربى المتهجم.

أنشطة ثقافية ذات أهمية خاصة:

وإلى جانب هذه الأنشطة الرسمية كانت لى أنشطة ثقافية خاصة ولكنها ذات أهمية كبيرة... ومن هذه الأنشطة المشاركة فى أعمال «جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية»، التى كانت تتكون من مجموعة من المفكرين المسلمين والمسيحيين فى إسبانيا، بهدف توثيق عرى الصداقة وفتح مجالات الحوار المثمر بين أصحاب الديانتين السماويتين. وكان للجمعية رئيسان إحدهما مسلم وهو عادة مدير المعهد المصرى، والثانى مسيحى وهو أستاذ مستشرق من كبار المشتغلين بالحضارة الإسلامية، .. وقد كانت تلك الجمعية مكونة منذ أن كان الدكتور حسين مؤنس مديرا للمعهد، وجرى العرف على أن تكون اجتماعاتها فيه.

□□□

ومن هذه الأنشطة كذلك، المشاركة فى أسابيع ثقافية مصرية، وإلقاء بعض المحاضرات عن مصر أو عن الحضارة الإسلامية الأندلسية، وكذلك المشاركة فى تنظيم بعض المعارض المصرية التى تقام فى بعض المدن الإسبانية عن الآثار الفرعونية.

على أن أهم ماقمت به من إنجازات ثقافية غير رسمية خلال وجودى فى إسبانيا، مشاركتى فى عقد «المؤتمر الإسلامى المسيحى الأول» فى قرطبة فى شهر سبتمبر ١٩٧٤ ثم مشاركتى كذلك فى عقد «المؤتمر الإسلامى المسيحى الثانى» الذى عقد كذلك فى قرطبة فى مارس ١٩٧٧ .. ثم تنظيمى «المهرجان عن المرأة المصرية» أقيم فى المعهد، بمناسبة الاحتفال العالمى بالمرأة فى يونية ١٩٧٥ .. وكذلك إلقائى سلسلة محاضرات عن الإسلام حضرتها جلالة ملكة إسبانيا فى فبراير ١٩٧٧ ... وسوف أتحدث بالتفصيل عن هذه الأنشطة فى أحاديث تالية.

□□□

على أن الاهتمام بهذه الواجبات المتعددة والأنشطة المختلفة، كان إلى جانبه الاهتمام بأولادى الذين تركوا مدارسهم المصرية فى القاهرة، وجاءوا إلى إسبانيا

ليواجهوا حياة تعليمية مختلفة. فلم تكن فى إسبانيا مدارس مصرية أو عربية، وإنما بها مدارس قومية إسبانية بصفة أساسية، وبعض المدارس الإنجليزية أو الفرنسية بصفة استثنائية. ولذا واجهتنى المشكلة التى واجهت ـ وأظنها مازالت تواجه ـ معظم العاملين المصريين فى البلاد الغربية.. وقد استطعت أن أتغلب على هذه المشكلة بأن ألحقت أولادى بمدرسة إسبانية صباحية ليتعلموا فيها اللغة الإسبانية وليستفيدوا منها معارف وثقافة عامة، ودبرت لهم من يدرسون لهم المناهج المصرية بالبيت فترة مسائية.. وكان الاعتماد فى تدريس هذه المناهج على بعض الدارسين المصريين والعرب الذين يتمون دراساتهم العليا فى إسبانيا. وكانوا يقومون بهذا العمل بكفاءة وإخلاص، وبتضحية أعظم بكثير من المكافأة التى كانوا يقبلونها برجاء منى وتعفف صادق منهم.. وكان أولادى حين بدأوا دراستهم فى إسبانيا موزعين على المرحلتين: الإبتدائية والإعدادية، وكانت تعقد لهم الامتحانات ـ مع غيرهم من أبناء المصريين ـ تحت إشراف السفارة، وذلك عن طريق أسئلة ترسلها إدارة الامتحانات بمصر، التى تتلقى أوراق إجابة الطلاب من السفارة لتصحح وتظهر نتائجها ويبلغ بها أبناء المصريين فى إسبانيا. وهو نظام متبع مع كل أبناء العاملين فى الخارج، الذين يتعلمون المناهج المصرية وهم خارج البلاد.

وأحمد الله أن أولادى تابعوا التعليم المصرى بهذه الطريقة، وأحمده أكثر على توفيقه لهم وجعل النجاح يكلل دراستهم وكأنهم يتعلمون فى بلدهم.

□□□

(٢)

المشاركة فى عقد المؤتمر الإسلامى المسيحى الأول:

كان من أهم الإنجازات التى شاركت فى تحقيقها أثناء وجودى فى إسبانيا مستشارا ثقافيا ومديرا للمعهد المصرى للدراسات الإسلامية، عقد المؤتمر الإسلامى المسيحى الأول فى قرطبة. وهو المؤتمر الذى نظمته جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية التى كنت رئيسها المسلم إلى جانب رئيسها المسيحى الأستاذ «جومث نوجالس» .. وقد كان هذا المؤتمر تجسيدا لأهداف جمعية الصداقة المسيحية الإسلامية التى أنشئت من أجل تقريب وجهات النظر بين المسلمين والمسيحيين، وفتح أبواب الحوار بين أصحاب الديانتين السماويتين، من أجل مزيد من التفاهم والتعاون لما فيه خير المسلمين والمسيحيين على السواء، ومن أجل الوقوف فى وجه مظاهر التعصب والتحلل والإلحاد والانحراف، وغير ذلك مما يعود بالضرر على الحضارة والتقدم، ويهدد المجتمعات المؤمنة بأخطار جسام.

وقد تم عقد هذا المؤتمر فى قرطبة من منطلق أنها كانت أهم المدن الأندلسية التى شهدت فى عهود الإسلام الزاهرة معايشة حضارية متسامحة بين المسلمين والمسيحيين، وارتفعت فى سمائها ــ لعدة قرون ــ مآذن المساجد تعانقها أبراج الكنائس، فكانت رمزا عظيما للتسامح الدينى الكريم، والتعايش السلمى السوى القويم...

وقد حضرتْ إلى قرطبة للمشاركة فى هذا المؤتمر وفود رسمية من معظم البلاد العربية والإسلامية، كما حضرت وفود من كثير من البلاد الغربية والمسيحية... وكان وفد مصر مؤلفا من مجموعة من كبار علماء الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية، يشاركهم بعض كبار رجال الدين المسيحى المصريين. كما كان يرأس هذا الوفد الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف والشئون الدينية آنذاك...

□□□

وبدأ المؤتمر أعماله فى العاشر من شهر سبتمبر ١٩٧٤، واستمر إلى يوم الخامس عشر من الشهر نفسه... ودارت البحوث فيه على محاور رئيسية من أهمها: «تقديم مسيحى للإسلام بصورة يرى المسلم نفسه فيها»، ثم «تقديم إسلامى للمسيحية بصورة يرى المسيحى نفسه فيها».... وفى الموضوع الأول تحدث عدد من مفكرى المسيحيين المستنيرين المتسامحين، فعبروا عما يحتويه الإسلام من قيم إنسانية عالية. وما يشتمل عليه من مبادئ حضارية سامية، وأوضحوا جوانب الخير وعوامل التقدم الحقيقية التى أسداها الإسلام إلى البشرية... وفى الموضوع الثانى تحدث عدد من مفكرى المسلمين المتمكنين المتفتحين، موضحين مدى إجلال الإسلام لعيسى عليه السلام، ومدى تقدير المسلمين له ولأمه مريم البتول. كما تحدثوا عن سماحة الدين الحنيف فى جعل الإيمان به لايتم إلا بالإيمان بنبوة عيسى عليه السلام وبطهارة أمه العذراء.

كما كان من أهم محاور هذا المؤتمر: «المجالات الممكنة للتعاون المشترك بين المسيحيين والمسلمين».. وفى هذه المجالات أُلقيتْ دراسات قيمة عن المشكلات الإنسانية والأخلاقية فى نظر الإسلام والمسيحية، وعن السبل التى يمكن أن يسلكها المصلحون من المسيحيين والمسلمين، من أجل تدعيم القيم البناءة التى جاء بها كل من الديانتين السماويتين.

وأنهى المؤتمر أعماله بإصدار توصيات من أهمها:

١ ـ إقامة تعاون إسلامى مسيحى لتأكيد الإيمان بالله وتعميق القيم الدينية والإنسانية، وقصر دراسة الخلافات العقائدية على مجالات المتخصصين، مع الاحترام المتبادل بين الجانبين.

٢ ـ تنقية المناهج والكتب الدراسية فى العالمين المسيحى والإسلامى من الأخطاء التى تسئ إلى أى من الديانتين.

٣ ـ تأكيد الحقوق الوطنية والإنسانية للشعب الفلسطينى، مع اعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعى الوحيد لهذا الشعب، وتأكيد عروبة القدس، ورفض محاولات التهويد والتقسيم والتدويل، وإدانة الاعتداءات التى تقوم بها سلطات الاحتلال الإسرائيلى على الشعوب وعلى المقدسات المسيحية والإسلامية، وبخاصة المسجد الأقصى، والمطالبة بإطلاق سراح جميع المعتقلين، لاسيما رجال الدين الإسلامى والمسيحى، وتأييد النضال العادل للشعب الفلسطينى، والمطالبة بتحرير جميع الأراضى العربية المحتلة .

□□□

ومما يُسعد من إنجازات جمعية الصداقة المسيحية الإسلامية بالإضافة إلى ذلك، أنها سعت لدى السلطات الإسبانية وبذلت جهودا ضخمة من أجل استعادة جزء من مسجد قرطبة الكبير، الذى كان أكبر المساجد وأقدمها فى العصر الإسلامى فى الأندلس، والذى كان الإسبان قد حولوه إلى كنيسة منذ القرن الثالث عشر بعد سقوط قرطبة سنة ١٢٢٦ .. وهذا الجزء الذى تمت استعادته قد هيئ منذ أيام المؤتمر لإقامة الصلوات الإسلامية. وكانت أولى الصلوات هى صلاة الجمعة التى أدتها الوفود المشاركة فى المؤتمر، ودوت معها فى آفاق قرطبة آيات القرآن الكريم وتكبيرات المصليين، وازدحمت طرقاتها وأهم ساحاتها بالمسلمين والمشاركين بالحضور والاستماع من الإخوة المسيحيين.

ومما يضاعف السعادة بهذا الإنجاز ماتم فى إسبانيا بعد انتهاء المؤتمر من تأليف لجنة للعمل على تنفيذ التوصية الخاصة بتنقية الكتب الدراسية مما يسئ إلى الإسلام.. وأعتقد أن هذه اللجنة وصلت فى أهدافها إلى قدر عظيم من النجاح...

□□□

إقامة مهرجان «المرأة المصرية»:

كذلك كان من أهم الإنجازات الثقافية التى سعدت بها فى تلك المرحلة، إقامة مهرجان موضوعه «المرأة المصرية» للمشاركة به فى الاحتفال بالعام العالمى للمرأة فى يوليو ١٩٧٥ .. فقد كُلفت من وزارة التعليم العالى فى مصر بعمل شئ مناسب بالمعهد المصرى فى مدريد، نشارك به فى هذا الحدث العالمى الكبير.. فأعددت بالمعهد معرضا للصور عن المرأة المصرية، يوضح بشكل مشرف تطور المرأة فى بلادنا، ويبرز مختلف أنشطتها ومجالات نجاحاتها، بدءا من المرأة فى الحقل تجنى القطن، وانتهاء بالمرأة فى الوزارة تدير شئون الحكم، ومرورا بالمرأة المصرية طالبة فى المدرج، وأستاذة فى الجامعة، وطبيبة فى المستشفى، ومهندسة فى المصنع، ومحامية فى المحكمة، وعاملة فى المعمل، وفنانة فى المسرح، ومذيعة فى وسائل الإعلام...

كذلك أعددت معرضا للكتاب عن المرأة المصرية، يضم أهم ما ألف عنها من كتب، وأبرز ما أبدعته هى من مؤلفات.. ومن خلال هذا المعرض برزت جهود المرأة المصرية فى مجالات الشعر والرواية والقصة، والدراسات الأدبية واللغوية والفكرية والعلمية على وجه العموم...

□□□

وبالإضافة إلى المعرضين نظمتُ بعض العروض السينمائية لأفلام مصرية، تدور أحداثها حول نساء مصريات قمن بأدوار إيجابية فى الحياة السياسية والاجتماعية المصرية، مثل فيلم «شئ من الخوف» المأخوذ عن رواية الصديق ثروت أباظة...

وإلى جانب المعرضين والعروض السينمائية نظمت ندوة فكرية فى المعهد، أُلقيت فيها دراسات وكلمات عن المرأة المصرية ونهضتها، وما نالت من حقوق وماوصلت إليه من مكانة تشارك بها الرجل فى المناصب العليا والوظائف الرفيعة.. وقد حضر هذا الملتقى وفد مصرى من المفكرين والإعلاميين، كان مسافرا إلى المكسيك لحضور الملتقى العالمى، وعلى رأسه السيدة/ جيهان السادات، التى ألقت فى ندوتنا كلمة كانت موضع تقدير الحضور..

□□□

إلقاء سلسلة محاضرات عن الإسلام حضرتها ملكة إسبانيا:

ثم كان من أهم الإنجازات التى أعتز بها ضمن أنشطتى فى إسبانيا خلال هذه المرحلة، إلقائى سلسلة من المحاضرات عن الإسلام فى قاعة المجلس الأعلى للبحوث العلمية والثقافية بمدريد.. فقد أخبرنى المسئولون فى جمعية ثقافية ترعاها جلالة الملكة أن لجلالتها رغبة فى أن تستمع إلى محاضرات عن الإسلام، وطلب منى هؤلاء المسئولون أن أقوم بإعداد هذه المحاضرات وإلقائها على جمهور مختار تتصدره جلالتها.. وأعترف أنى حاولت أول الأمر أن أعتذر عن عدم قبول هذه المهمة؛ نظرا لكون موضوع المحاضرات بالغ الحساسية، فهو عن الإسلام والمستمعون غير مسلمين، بل من الكاثوليك المتشددين، ونظرا كذلك لكون الحديث سيكون فى حضور ملكة، ثم لكون المحاضرات سوف تكون باللغة الإسبانية التى وإن كنت أجيدها منذ أن درست فى إسبانيا، ونلت منها درجة الدكتوراه؛ إلا أن المحاضرة بها وفى موضوع دينى حساس وبحضور ملكة أمر ليس بالهين.. ولكن المسئولين ألحوا علىّ ـ بل أصروا ـ على أن أقوم بهذه المهمة، فأرجأتهم فترة وجيزة حتى أعد نفسى وأجمع مادة محاضراتى وأكون مطمئنا تماما إلى قدرتى على أداء مهمتى... وبعد تلك الفترة أخذت فى إلقاء محاضراتى التى بدأت يوم ١٦ من شهر فبراير ١٩٧٧، والتى كانت تلقى أسبوعيا فى عصر يوم محدد واستمرت نحو ثمانية أسابيع... وأعتقد أنها نالت من النجاح ما يكافئ الاستعداد لها والإخلاص فى أدائها.. وعَدَدُ هذه المحاضرات ثمان، وقد توالت على الوجه التالى:

المحاضرة الأولى عن «المبادئ الإنسانية العامة للإسلام». وفى هذه المحاضرة تحدثت عن قيم الحرية والديمقراطية، والمساواة والعدالة، والأخوّة والمحبة، والتسامح والسلام..

والمحاضرة الثانية عن «العقيدة فى الإسلام». وفى هذه المحاضرة تحدثت عن الإيمان والشهادتين، والملائكة، والرسل، والكتب السماوية، واليوم الآخر.

والمحاضرة الثالثة عن«العبادات فى الإسلام». وفى هذه المحاضرة بدأت فى الحديث عن الصلوات الخمس، وما تتطلبه من طهارة جسدية ونفسية، وما تؤدى إليه من تربية روحية وأخلاقية.

والمحاضرة الرابعة عن «الصوم فى الإسلام». وفى هذه المحاضرة شرحت حدود الصوم الإسلامى، وحكمته وآثاره الإيجابية الجسدية والروحية والاجتماعية.

والمحاضرة الخامسة عن «الزكاة والحج فى الإسلام». وفى هذه المحاضرة أوضحت حدود الزكاة ومصارفها وحكمة مشروعيتها، وما تؤديه من دور إيجابى وإنسانى، فى حماية المجتمع وصون وحدته ورعاية أخوته، ودفع مخاطر الأحقاد والصراعات عنه.. كما أوضحت فكرة الحج فى الإسلام، وبينت طبيعته وحكمته وآثاره الروحية والاجتماعية، ودفعت ـ بطريقة علمية ـ ما يتوهمه البعض من أن بالحج رواسب وثنية.

والمحاضرة السادسة عن «القوانين والتشريعات الإسلامية». وفى هذه المحاضرة تعرضت لقوانين الزواج والطلاق وتعدد الزوجات فى الإسلام، موضحا حدود كل هذه الأمور وحكمة مشروعيتها، ومبينا أن ما يبدو من الظواهر السلبية فى مزاولة بعض هذه الأمور فى بعض المجتمعات الإسلامية، إنما هو مظهر من مظاهر التطبيقات الخاطئة، وليس النقص فيه راجعا إلى الشريعة الإسلامية السمحة.

والمحاضرة السابعة عن «الله فى الفكر الإسلامى». وفى هذه المحاضرة أوضحت

التصور الإسلامى للألوهية، وبينت أنه سبحانه وتعالى يُعرَف فى الفكر الإسلامى بآثاره وأفعاله وروعة خلقه، لأن العقل البشرى أعجز من أن يدركه بذاته. وشرحت قيمة التوحيد فى الإسلام، ودلالات صفات الله جل علاه.

والمحاضرة الثامنة عن **«محمد فى التاريخ الإنسانى»**. وفى هذه المحاضرة عرضت سيرة الرسول الكريم، مبرزا جوانب العظمة الإنسانية فيه، ومفندا للمزاعم التى أُثيرت حوله فى الفكر غير الإسلامى، بسبب الجهل أو الكيد أو التعصب أو كل هذه الأمور مجتمعة...

□□□

وأحمد الله على أن نجحتْ هذه المحاضرات نجاحا كبيرا، فكنت أتلقى التهانى من الحضور وفى مقدمتهم جلالة الملكة، التى كانت تهنئنى عقب كل محاضرة وتسألنى بعض الأسئلة الاستيضاحية، وتبدى إعجابا كبيرا بما تسمعه عن صحيح الإسلام، وزادت على ذلك أن دعتنى إلى أن تُلتقط لى صورة تذكارية بجوارها، بل إنها حضرت حفل تكريم أقيم لى بعد انتهاء المحاضرات. وهذا الحفل قد حضره عدد كبير من أبرز المفكرين والمسئولين....

وحرصا منى على مزيد من الانتفاع بهذه المحاضرات، قد جمعتها ونشرتها فى كتاب بالإسبانية عنوانه «محاضرات عن الإسلام». وهذا الكتاب قد طبع فى المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، وأصبح من أهم مطبوعات المعهد، ومن أبرز المراجع الرئيسية المحررة بالإسبانية، لمن يريدون التعرف على الإسلام فى عقيدته ومبادئه وشريعته...

□□□

وهكذا أثمر وجودى فى إسبانيا كتابا ثانيا من أعز الكتب على نفسى، يضاف إلى كتابى السابق الذى قدمته لمن يريدون تعلم العربية من الإسبان، وعنوانه **«منهاج عربى للمتحدثين بالإسبانية»**.

□□□

(٣)

المشاركة فى عقد المؤتمر الإسلامى المسيحى الثانى :

إذا كان إسهامى فى عقد المؤتمر الإسلامى المسيحى الأول الذى شهدته قرطبة سنة ١٩٧٤ عملا أعتز به، فإن إسهامى فى عقد المؤتمر الثانى الذى عقد بالمدينة نفسها سنة ١٩٧٧ عملاً أفخر به. فهذا المؤتمر الثانى قد كان لتأكيد تنفيذ أهم توصية من توصيات المؤتمر الأول، وهى التوصية التى مؤداها: وجوب تنقية الكتب الدراسية الإسبانية من كل ما يسئ إلى الإسلام أو نبى الإسلام .. وكانت جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية ــ كما ذكرت ــ قد رأت عقب المؤتمر الأول أن تيسّر وضع هذه التوصية موضع التنفيذ، فألفت لجنة لدراسة الكتب الدراسية الإسبانية وحصر ما بها من أخطاء وإبراز أوجه الصواب التى تصحح تلك الأخطاء .. ولما كانت أكثر الأخطاء تتصل بشخصية سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فقد رأت الجمعية أنه لا يكفى أن توضع التصويبات بين أيدى المختصين بتأليف الكتب التى تخاطب الطلاب والتلاميذ، وإنما الأفضل أن يكون التصحيح على نطاق أوسع يفيد منه العلماء والمثقفون والكتاب والإعلاميون، بحيث يكون ــ بقدر الإمكان ــ تصويباً جماهيرياً عاماً لاتصويباً مدرسياً خاصاً .. ومن هنا نشأت فكرة هذا المؤتمر الإسلامى المسيحى الثانى، الذى رأت جمعية الصداقة ــ التى كنت رئيسها المسلم ــ أن

يكون موضوعه «**التقويم الإيجابى لمحمد وعيسى فى المسيحية والإسلام**».. وواضح أن الجمعية جعلت الموضوع يشمل سيدنا عيسى عليه السلام إلى جانب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، لتسهّل أخذ موافقة السلطات الإسبانية التى لم يكن من السهل أن توافق على عقد مؤتمر على أرض إسبانيا الكاثوليكية، يدور الحديث فيه أساساً حول تمجيد سيدنا محمد وتصويب الأخطاء المتصلة به فى الأفكار المسيحية .. وعلى الرغم من جعل الموضوع عن سيدنا محمد والمسيح معاً، قد احتاجت جمعية الصداقة إلى بذل جهود مضنية لدى السلطات الإسبانية الرسمية والدينية، حتى تمت الموافقة على عقد هذا المؤتمر .. وقد بدأت أعمال المؤتمر يوم ٢١ من شهر مارس ١٩٧٧، حيث أقيم حفل الإفتتاح بقصر الملوك فى قرطبة، ثم نُقلت الجلسات إلى قاعة مجلس المحافظة، حيث كانت تعقد تلك الجلسات صباحاً ومساء حتى يوم ٢٨ من الشهر نفسه. كما كان يُلقَى فى الصباح بحثان ومثلهما فى المساء، مع مراعاة أن يكون الحديث تبادلياً، يبدأ بأحد العلماء المسلمين ثم يثنى بأحد المفكرين المسيحيين .. وكانت البحوث والدراسات فى معظمها تتجه نحو غاية واحدة هى إنصاف سيدنا محمد وتصحيح الأخطاء المتصلة به فى الفكر المسيحى .. ولذا كان المتحدثون غير المسلمين قد اختيروا بشكل جيد من العلماء الغربيين المنصفين، الذين يجنحون إلى الحق ويقدرون نبى الإسلام حق قدره، حتى ولو كانوا غير مسلمين. وذلك من منطلق سيرة الرسول العطرة ونضاله الإنسانى الرائع، الذى قدم فيه للإنسانية قيماً نهضت بها وأنارت طريقها وصححت مسيرتها.. وكان من أهم الموضوعات التى عالجها المفكرون المسيحيون فى إنصاف للنبى وثناء عليه: «**محمد مثال ونموذج للفضائل**» و«**محمد الرجل التاريخى وقيمه**» و«**اعتراضات تقليدية مسيحية ضد محمد وتقييمها**».. وقد تبارى علماء مسيحيون أجلاء ــ من خلال هذه الموضوعات ــ فى تفنيد ما شاب سيرة النبى عليه السلام فى الفكر المسيحى من أخطاء، وقال بعضهم كلاماً لا يقل عن كلام أشد المسلمين حباً لمحمد وإعجاباً به وتقديراً له.. وكان من أحسن ما قيل من جانب الإخوة المسيحيين، ماقاله الأسقف

«ترانكون» أسقف مدريد وكبير رجال الدين المسيحى فى إسبانيا، الذى أوضح أن المجمع الفاتيكانى الثانى قد قرر احترام الإسلام، كدين يدعو إلى الإيمان ويقاوم الإلحاد والوثنية. وبيّن أنه من المنطقى احترام محمد الذى بشر بهذا الإسلام، والذى بَثّ قيمه ومازال يبثها فى الناس .. وركز الأسقف «ترانكون» على قيمتى التوحيد والعدالة من بين القيم الجليلة التى أرساها محمد صلوات الله وسلامه عليه.وكان مما قاله عن محمد بشأنهما: «أما إيمانه بالله الأحد فهو سمة رسالته وحياته. إنها أهم عقيدة تركها لأمته .. بيد أنى أود أن أخص بالذكر دعوته إلى مساواة الناس رجالاً ونساء، وإلى تحقيق العدالة بينهم .. إن كل تعليم دينى قابل للتحريف إلا الدعوة إلى العدالة واحترام الإنسان، فإنها صيحة (نبوية) لا نستطيع خنقها فى أيامنا» .. وأظنها أول مرة فى التاريخ المسيحى يصف فيها أحد كبار رجال الكنيسة دعوة لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنها **«صيحة نبوية»** ..

وكما حدث فى المؤتمر الإسلامى المسيحى الأول الذى عقد فى قرطبة سنة ١٩٧٤ ، قد أدت الوفود المشاركة فى المؤتمر صلاة الجمعة بمسجد قرطبة الكبير، أو بتعبير أدق، فى الجزء الذى نجحنا فى اقتطاعه وإعادته مسجداً من هذا الأثر التاريخى العزيز، الذى كان الإسبان قد حولوه إلى كنيسة منذ سقوط قرطبة فى القرن الثالث عشر عام ١٢٢٦ ..

□□□

ومع كل هذا التوفيق، مازال يثير عجبى رفضُ المسئولين بمصر المشاركة رسمياً فى هذا المؤتمر فى الساعات الأخيرة .. وقد تغاضيت عن هذا الرفض وشاركت فى المؤتمر على مسئوليتى، وكونت وفداً مصرياً من بعض المبعوثين المصريين وبعض رجال السفارة المتطوعين، ومثّلنا بلدنا فيما أعتقد خير تمثيل.. فلم يكن من المعقول أن تشارك مصر فى المؤتمر الأول بوفد على مستوى عال يرأسه نائب رئيس الوزراء، ثم ترفض الاشتراك فى المؤتمر الثانى دون سبب نبرر به موقفنا أمام من نظموا هذا المؤتمر ومن شاركوا فيه، وخاصة أن الرئيس المسلم للجمعية المنظمة لهذا المؤتمر هو

المستشار الثقافى المصرى.. ومما ضاعف من عجبى أنى حين سألت فى مصر بعد ذلك عن سبب رفض الاشتراك فى المؤتمر رسمياً، قيل لى إن بعض الشيوخ الرسميين الأجلاء قد نصحوا أصحاب القرار بعدم الاشتراك فى المؤتمر، لأن هذه المؤتمرات فى نظرهم من الأمور المريبة، وأن البعد عنها أفضل..

وأحمد الله أنى عشت حتى رأيت مصر تنظم مؤتمراً عالمياً سنة ١٩٩٦ لا تخرج أهدافه فى جملتها عن أهداف مؤتمر قرطبة الذى عقد سنة ١٩٧٧ .. وأقصد بمؤتمر مصر المؤتمر الذى نظمه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية..

□□□

مقابلتى للجنرال فرانكو :

ومن أهم ذكرياتى عن هذه المرحلة الدبلوماسية، أنه قد أتيح لى أن ألتقى بالجنرال فرانكو بالقصر الملكى بمدريد.. وقصة هذا اللقاء أن سفير مصر فى مدريد الذى كان بها وقت قدومى عليها أواخر سنة ١٩٧٣ ، قد استبدل به سفير جديد بعد نحو سنتين من عملى مستشاراً ثقافياً بالسفارة. وتقضى التقاليد الدبلوماسية أن يقدم السفير الجديد أوراق اعتماده إلى رئيس الدولة. والعادة التى كانت متبعة فى إسبانيا فى تلك السنوات، أن يذهب مع السفير إلى لقاء رئيس الدولة كبار أعضاء السفارة، وأن يحضروا مراسم تقديم أوراق الاعتماد، وأن يقدم السفير الأعضاء إلى الرئيس الذى يصافحهم فرداً فرداً، وتلتقط له صورة مع كل منهم.. وكان من التقاليد كذلك أن يذهب السفير وأعضاء السفارة فى عربات ملكية تجرها الخيول ويحيط بها الفرسان من حرس القصر، ثم يستقبل هذا الموكب فى القصر الملكى استقبالاً فخماً، يأتى بعده الصعود إلى قاعة السفراء لمقابلة الجنرال فرانكو ومصافحته.. وهكذا جرى علىّ ماجرى على أعضاء السفارة، فأعددت كما أعدوا الحلة الرسمية الخاصة بمثل هذه اللقاءات، وكان من حظى أنى كنت قد تسلمت وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى بعد أن نلت جائزة الدولة فى النقد والدراسات الأدبية منذ فترة، وكان

الوسام معى فى مدريد، فزينت به حلتى وفقاً للتقاليد.. وذهبت مع السفير والزملاء فى الموكب الجليل وسعدت بالاستقبال الحافل، وقدمنى السفير كما قدم الزملاء إلى الرئيس فرانكو.. وكانت هذه مناسبة تاريخية، رأيت فيها هذا الحاكم الإسبانى الداهية الذى حكم إسبانيا حكماً شمولياً أكثر من ثلث قرن، بعد انتصاره على الشيوعية فى الحرب الأهلية.. وقد مات فرانكو فى أواخر فصل الخريف الذى قابلناه فيه، وبالتحديد فى نوفمبر ١٩٧٥ وتم انتقال السلطة بعده إلى الملك خوان كارلوس. وكان الانتقال انتقالاً سلمياً وهادئاً إلى أبعد الحدود، وقد تم وفق ما رسمه فرانكو وقرره فى حياته ونفذ بدقة بعد مماته.

□□□

الاتجاه إلى العودة إلى مصر من أجل مصلحة الأبناء:

ولما كان أولادى ـــ بعد أربع سنوات من الحياة فى إسبانيا ـــ قد وصلوا فى مراحل التعليم إلى وضع يحتاجون معه إلى الالتحاق بالمعاهد التى تتناسبهم فى مصر، فقد رأيت أن أطلب من وزارة التعليم العالى التى أتبعها أساساً أن تدبر زميلاً آخر يمكن أن يحل مكانى.. وقد كان رد السيد الدكتور وزير التعليم العالى علىّ يحمل كثيراً من التعجب لطلبى العودة إلى مصر، حيث جرت العادة أن يطلب المنتدبون فى مثل موقعى أن تمدّ لهم المدد لا أن تقصّر. ولكنى شرحت لسيادته ظروفى فوافق مشكوراً، وطلب إلىّ أن أستمر ثلاثة شهور حتى يتم تدبير زميل آخر. وقبل مضى ثلاثة شهور جاءتنى من سيادته برقية تطلب أن أستمر فى موقعى ثلاثة شهور أخرى، فامتثلت رغم أنى كنت قد بعثت بأولادى إلى القاهرة كما بعثت بمعظم أمتعتى وكتبى ..

□□□

ذكريات وانطباعات عن هذه الأيام :

وعشت عدة شهور فى مدريد وأولادى فى القاهرة.. وقد كنت فى تلك الشهور موضع تكريم من الزملاء فى السفارة والأصدقاء فى الجامعة والعاملين والدارسين فى المعهد. فقد عملوا الكثير من أجل التعبير لى عن شكرهم لما قدمت من جهد لصالحهم ..

ولا أنسى من ذكريات هذه الأيام ما سعدت به من تكريم أستاذى «جارثيا جومث» عميد المدرسة الاستشراقية المحافظة، الذى عرّفنى منذ سنوات طَوالَ دراستى للدكتوراه أدرس تحت إشرافه، ثم استقبلنى بعد ثمانية عشر عاماً مديراً لمعهد مدريد ومستشاراً ثقافياً للسفارة. وكان دائم الحفاوة بى والفرح لما وصلت إليه .. وكان من نتائج تقديره الذى أعتز به أن عمل على ترشيحى لعضوية «الأكاديمية الإسبانية الملكية للتاريخ» وقد كُلل هذا الترشيح بالنجاح فيما بعد، فأصبحت عضوا فى هذه الأكاديمية بناء على جهود هذا الأستاذ الوفى الجليل ..

□□□

ولا أنسى كذلك من هذه الأيام ماسعدت به من تكريم من صديقى الدكتور «بدور مارتينيث» عميد المدرسة الاستشراقية الحديثة ورئيس جامعة مدريد المستقلة فى تلك الأيام. فقد أشركنى فى مناقشة بعض رسائل الدكتوراه بالجامعة، كما أقام لى حفلاً جميلاً حشد فيه عدداً غير قليل من أساتذة الجامعة وخاصة المشتغلين بالدراسات الأندلسية والمهتمين بالشئون العربية والمحبين للثقافة المصرية..

ثم لا أنسى هذه الأسرة الإسبانية العزيزة التى عشت معها طالباً فى الخمسينات - ومعظم أبنائها أطفال - ثم استقبلتنى بعد ثمانية عشر عاماً وأنا فى موقعى الجديد وجميع أبنائها كبار، فكان فرحهم لى واعتزازهم بى يشعرنى بأن القرابة ليست مقصورة على قرابة الدم والمصاهرة، وإنما من الممكن أن تكون قرابة الصداقة والمعاشرة. فقد استأنف أفراد هذه الأسرة صلتهم بى وكأنهم بعض أهلى، فاستقبلونى أنا وأسرتى فى بيوتهم بعد أن كبروا وأصبح لكل منهم حياته الخاصة وبيته المستقل، وأحبوا جميع أفراد أسرتى وكأنهم من جملة أسرتهم .. وأجمل ما فى هذه الذكرى، أنى كنت قد بدأت فور وصولى واستقرارى بمدريد بالبحث عن البيت الذى عشت فيه أيام البعثة، وعن السيدة صاحبة هذا البيت وأم هذه الأسرة التى رعتنى طيلة سنوات دراستى .. ولا أنسى صيحة الفرح التى أطلقتها هذه السيدة العجوز الطيبة، التى تلقتنى وكأنها تتلقى ابنا عزيزاً من أبنائها، رعته عدة سنوات حتى كُلل جهاده

بالنجاح في دراسته، ثم غاب عنها ثمانية عشر عاماً، عاد بعدها يعمل في منصب دبلوماسي في سفارته.. وقد أقامت هذه السيدة الطيبة لأسرتي حفلاً في بيتها، ودلتهم على الحجرة التي كنت أعيش فيها وأحضّر رسالتي بها.. ثم أكدت لهم أن الحجرة مازالت تحمل اسمي من يومها.

وقد خُتِم هذا التكريم لي قبيل مغادرتي لإسبانيا بأن منحني جلالة ملك البلاد وسام الاستحقاق المدني من طبقة فارس، وجاء في براءة هذا الوسام أن جلالة الملك منحه لي تكريماً لشخصي، وتقديراً لما قمت به من توثيق الروابط الثقافية بين مصر والمملكة الإسبانية..

وأخيراً جاء يوم العودة، وسلمت المعهد إلى الزميل الذي انتدب ليحل مكاني، وعدت إلى القاهرة يوم ١ يوليو سنة ١٩٧٨، لأبدأ مرحلة جديدة من حياتي، أعمل في جامعتي التي انتدبت منها، ولأشارك في الحياة الثقافية والأدبية على الأرض التي اشتقت كثيراً إليها.

□□□

ومما أذكره عن هذه العودة الحبيبة أن جامعة الكويت كانت قد رشحتني ـ وأنا في موقعي بإسبانيا وفي أواخر أيام عملي بها ـ كي أكون أستاذاً للأدب بكلية الآداب فيها. ولكنني اعتذرت عن عدم إمكاني قبول هذا الترشيح، لأني قد قررت العودة إلى جامعتي وخدمة بلدي الذي كرمني. وكان من مسوغات اعتذاري أني لابد أن أحصل على موافقة جامعتي أولاً وهذا يقتضي سفري ابتداء إلى بلدي. ولكن أصدقاء في جامعة الكويت اقترحوا عليّ ما يفيد أني أستطيع أن أسافر إلى الكويت مباشرة من مدريد، دون المرور بالقاهرة، مخافة التعقيد. وكان رفضي لهذا الاقتراح أشد، لأني لا أتصور أن يكرمني بلدي بندبي مستشاراً ثقافياً ومديراً لمعهد أكاديمي عريق في إسبانيا لأكثر من أربع سنوات، ثم يكون ردي أن أتركه وأسافر للعمل في بلد آخر حتى ولو كان بلداً عزيزاً مثل الكويت.

□□□

المرحلة السابعة

المرحلــة الإداريــة

(١)

ظهور كتاب جديد وصدور أول ديوان:

بعد عودتي من إسبانيا في صيف ١٩٨٠ ــ حيث كنت مستشاراً ثقافياً ــ أستأنفت عملي أستاذاً في كلية دار العلوم. وأخذت أندمج من جديد في الحياة الأكاديمية والأدبية المصرية، بعد غيبة عنها استمرت أكثر من أربع سنوات .. وكان من حصاد هذه العودة أني جمعت طائفة من بحوثي ومقالاتي التي كتبتها في مناسبات سابقة ــ ومنها ما ألقيته في مؤتمرات ومنها ما نشرته في دوريات أو مجلات ــ وأخرجت هذه وتلك في كتاب أخذ عنوان «دراسات أدبية» .. كذلك كان من حصاد هذه العودة أني جمعت مجموعة مختارة من شعري المنشور متناثراً في المجلات الأدبية والصفحات الثقافية عبر سنوات طوال، وأخرجت من هذه المجموعة المختارة ديواني الشعري الأول الذي أخذ عنوان «أصداء الناي». والفضل في إخراج هذا الديوان الأول يرجع إلى الصديق الشاعر صلاح عبدالصبور، الذي ألحّ عليّ في إخراج هذا العمل، كما اهتم به اهتماماً مازلت أشكره عليه في حياته وأترحم عليه من أجله بعد وفاته..

□□□

تولي العمادة بالتعيين ثم بالانتخاب :

وبعد نحو عامين من عملي أستاذاً بعد عودتي من إسبانيا ــ أو بعد الفترة الدبلوماسية ــ شاء الله أن أبدأ مرحلة جديدة يمكن أن أسميها «المرحلة الإدارية».

وهذه المرحلة هى التى عملت فيها عميداً لكلية دار العلوم، ثم نائباً لرئيس جامعة القاهرة لشئون فرع الجامعة بالفيوم .. وإنما اخترت لتلك المرحلة هذه التسمية لأن الطابع المميز لها ـــ أو الجديد عليها ـــ هو الطابع الإدارى، فعميد الكلية يديرها، ونائب رئيس الجامعة لفرع من فروعها يشتغل بالإدارة ويتحمل مسئوليتها. كل ذلك مع وجود الطابع الأكاديمى الذى لا ينفصل عنه العميد أو أى مسئول جامعى فى مستوى أعلى.. وقد شغلت منصب عميد كلية دار العلوم أول مرة بالتعيين، وكان ذلك فى الثالث عشر من شهر سبتمبر ١٩٨٠ . وإنما شغلت هذا المنصب أول مرة بالتعيين، لأن عدد الموجودين من أساتذة مجلس الكلية حينذاك لم يكن يسمح بالانتخاب، فتم شغلى للمنصب بالتعيين كما ينص القانون.. وفى هذه المناسبة أذكر بالعرفان الأستاذ الدكتور حسن حمدى - رئيس جامعة القاهرة حينذاك - الذى اختارنى للعمادة دون أن تكون لى به صلة سابقة، بل إنى لم أكن قد التقيت به من قبل مجرد التقاء، ولم أكن أعرفه إلا من صوره وماتكتبه عنه الصحف فى بعض المناسبات.. وأمضيت فترة العمادة الأولى التى هى ثلاث سنوات، واكتمل خلال تلك السنوات عدد أساتذة الكلية الذى يفرض أن يكون لهم الحق فى انتخاب العميد.. وحين أُجرِيَتْ الانتخابات بعد انتهاء مدتى الأولى، تم انتخابى وفوزى بثقة الزملاء لمدة ثانية فى الثانى عشر من سبتمبر ١٩٨٣،

وقد أعاننى الله أثناء عملى عميدا على أن أبذل أقصى ما أستطيع من أجل النهوض بكلتى العزيزة مبنى ومعنى. أما المبنى، فكان هو المبنى الجديد الذى انتقلت إليه الكلية فى الحرم الجامعى قبل أن أشغل العمادة بعام. وكان المبنى حين أسندت إلىّ العمادة محتاجا إلى إكمال التأثيث والتجهيز، حتى يكون لائقا بكلية عريقة تضم أكثر من عشرة آلاف طالب وطالبة، وتقوم برسالة علمية وثقافية ووطنية وعربية وإسلامية جليلة.. وأما المعنى فقد اجتهدت فى أن أنهض بالأداء الدراسى والمستوى العلمى فى الكلية، مستعينا بكفاءة الزملاء أعضاء هيئة التدريس فى تخصصهم، وحبهم الشديد لكليتهم.. وإلى جانب ذلك حاولت أن أحقق رغبات الزملاء فى

الإعارات والزيارات العلمية لجامعات عربية أو أجنبية، وذلك لإيمانى الشديد بأن هؤلاء الزملاء يؤدون رسالة علمية جليلة حيث يذهبون، ويفيدون غيرهم قبل أن يفيدوا أنفسهم حيث يتوجهون.. وقد كنت أستعين على تحقيق رغبات الزملاء بالأستاذ الدكتور حسن حمدى، الذى كان كثيرا مايتعامل مع القوانين واللوائح بروحها ولا يتجمد أمام نصوصها. ومن هنا كان يخالف ـ فى الظاهر ـ بعض النصوص اللائحية التى تحول دون إعارة أستاذ، وتتم هذه المخالفة الشكلية رعاية لمصلحة تفوق كثيرا نص اللائحة، وتعود بالخير على الوطن والعلم والبلد الشقيق أو الصديق الذى سيعار إليه الأستاذ المرشح للإعارة أو المطلوب للزيارة.

□□□

اختيارى نائبا لرئيس جامعة القاهرة:

وبقيت سنة عميدا منتخبا، بعد ثلاث السنوات التى قضيتها عميدا معينا، ثم تم اختيارى نائبا لرئيس الجامعة لشئون فرع الفيوم، وذلك فى اليوم الأول من شهر سبتمبر ١٩٨٤.

وتركت كلية دار العلوم بعد أن سعدت كثيرا بالإنجازات التى حققتها فيها، ولكنى حزنت كثيرا أيضا لأنى خسرت بعض الأصدقاء من العاملين بها.. ويبدو أن هذه طبيعة الأمور، فَمَن يشغل منصبا قياديا يصطدم ـ رغم أنفه ـ ببعض الرغبات الخاصة التى قد لا تتفق مع المصلحة العامة، بل قد لا تتفق مع القوانين واللوائح، ولا يمكن تطويع هذه أو تلك لتحقيق هذه المصلحة الخاصة.وهنا يضطر شاغل المنصب القيادى إلى تغليب المصلحة العامة، ويتمسك بالقانون واللائحة، فيسبب هذا غضب بعض أصحاب الرغبات، وتكون النتيجة شرخا فى العلاقات، وقد يتسع الشرخ فيكون هوّة ومقاطعة.. فالذى يتولى العمادة مثلا وهو صديق لكل الزملاء والعاملين معه، يخرج منها وقد فقد نسبة من صداقة هؤلاء الزملاء والعاملين.. وهذا من تكاليف المنصب الباهظة المسببة للعذاب، والتى يجب أن يضعها أى مسئول فى الحساب..

□□□

ومهما يكن من أمر، فقد باشرت عملى فى إدارة فرع الجامعة بالفيوم بكل ما أملك من حماسة وإخلاص، ورغبة فى أن أحقق شيئا أسهم به فى بناء هذا الفرع الوليد الذى يحتاج إلى تنمية وتشييد.. ومن هنا بذلت جهدا لإتمام كلية الخدمة الاجتماعية، وللبدء فى إنشاء كلية الهندسة، وذللت صعوبات ومعوقات كثيرة كانت تحول دون البدء فى تشييد ماتحتاجه الجامعة من مبان جديدة. وكانت إحدى هذه المعوقات والعقبات من جانب هيئة الآثار، التى كانت تحرص ـ ولها الحق ـ على ألا تتم المبانى فوق أرض يحتمل وجود آثار تحتها. ولذا لم يكن فى استطاعة الجامعة أن تحفر شبراً ولا أن تضع طوبة قبل موافقة هيئة الآثار. وكانت هيئة الآثار بدورها تحتاج إلى أن تختبر الأرض وتقوم بحفائر وتدرس الموقع قبل الإذن للجامعة بالبناء عليه.. وقد كان إنجاز ماتريده هيئة الآثار محتاجا إلى وقت طويل قد يصل إلى سنوات وقد لا يتم أبدا.. ولكنى سعيت ما استطعت لإنجاز ذلك كله فى وقت قياسى، واستعنت بصلتى الشخصية بالمسئول الأول عن الآثار حينذاك الدكتور أحمد قدرى..

وبقيت فى منصب نائب رئيس جامعة القاهرة نحو سنة، إلى أن تم اختيارى وزيراً للثقافة فى الخامس من شهر سبتمبر ١٩٨٥.

□□□

مواصلة النشاط الأكاديمى والثقافى، ورحلات إلى الخارج :

على أننى خلال تلك الفترة التى سميتها «إدارية» ـ والتى استمرت نحو خمس سنوات ـــ لم أنقطع عن العمل الأكاديمى أو الثقافى. فقد كنت أثناء عملى عميداً ألقى محاضراتى على طلبتى كما كنت من قبل. وكنت أثناء عملى نائباً لرئيس الجامعة ـ وكذلك حين كنت عميداً ـ أشارك فى الحياة الثقافية داخل الجامعة وخارجها. بل إن نشاطى العلمى والثقافى قد تجاوز مجال الوطن إلى خارجه.. فقد استضافتنى إسبانيا أستاذاً زائراً لإلقاء بعض المحاضرات فى جامعات «أليكانتى» وقرطبة ومدريد على سبيل التبادل الثقافى. كما استضافت مصر الأستاذ «جارثيا جومث»

والأستاذ «إيبالثا» فى مقابل استضافة إسبانيا لى.. وكان المخطِّط لهذا التبادل والمتحمس لتنفيذه صديقى الدكتور صلاح فضل المستشار الثقافى المصرى بإسبانيا فى ذاك الوقت .. وقد سافرت إلى إسبانيا لإنجاز هذه المهمة فى السابع من شهر ديسمبر ١٩٨١ وبقيت هناك حتى الثانى والعشرين من الشهر نفسه.

□□□

كذلك شاركت خلال تلك المرحلة فى وفد جامعة القاهرة لحضور احتفال لخريجى فرع الجامعة بالخرطوم، وذلك من اليوم العشرين من شهر فبراير ١٩٨٢ إلى الثالث والعشرين من الشهر نفسه.. ولفت نظرى فى تلك الزيارة ذلك التغيير السلبى الواضح الذى طرأ على حياة الناس ومستوى معيشتهم ومعاناتهم فى هذا البلد الشقيق، نتيجة لغيبة الديموقراطية وتحكم الحكومات العسكرية..

وفى هذه المرحلة أيضاً استضافتنى جامعة قطر أستاذاً زائراً لألقى بها بعض المحاضرات، فظللت فى هذا القطر الشقيق طيلة شهر أبريل وسبعة أيام من شهر مايو سنة ١٩٨٢ .. وقد سعدت بهذه الزيارة لما وجدته فى الشعب القطرى من مشاعر أخوية حميمة، ومن تقدير عظيم لمصر، واعتزاز واضح بعلمها وعلمائها، حتى لقد كان رئيس الجامعة مصرياً، وعميد كلية الآداب التى عملت بها مصرياً، وكثير من الأساتذة فى الجامعة مصريين.

□□□

وفى تلك المرحلة كذلك استضافتنى حكومة ألمانيا ضمن وفد جامعى لنزور أهم المؤسسات العلمية والثقافية بها. واستغرقت هذه الزيارة من الرابع عشر من شهر نوفمبر إلى الأول من شهر ديسمبر سنة ١٩٨٢ .. وقد أذهلنى التقدم العلمى والصناعى والاقتصادى والحضارى فى هذا البلد الأوربى .. ومن أهم مالفت نظرى تلك الدقة الشديدة فى المواعيد المتصلة بالانتقالات والمقابلات، وهى دقة تصل إلى حد حساب الوقت بالدقائق .. وكان من أهم مظاهر التقدم والتحضر، أن سفارة ألمانيا أرسلت ـ

قبل السفر ـ إلى كل واحد من أعضاء الرحلة بياناً مفصلاً بكل شئ يتصل بالزيارة، حتى أسماء من سيستقبلوننا وأماكن الاستقبال ومواعيده بالدقيقة .. ولم ينس البيان ذكر اسم شركة التأمين التى تم التأمين على حياتنا بل على أمتعتنا فيها.. ومن الطريف أن حقيبة أحد أعضاء الرحلة ـ وهو الزميل الدكتور محمود مكى ـ قد ظهرت حين نزلنا من الطائرة فى بعض المطارات الألمانية وكان بها فتحة صغيرة، فأصرت السيدة الألمانية التى كانت فى استقبالنا على أن نتجه قبل كل شئ إلى مكتب شركة التأمين فى المطار لتثبت الحالة ولتأخذ للدكتور مكى التعويض المناسب، كل ذلك مع تأكيد الدكتور مكى للسيدة الألمانية أنه لم يصب حقيبته أى مكروه وإنما هى هكذا قبل أن يتجه بها إلى ألمانيا. وكان رد السيدة عليه: إنكم قوم كرام متسامحون، ولابد أن تأخذ حقك كاملاً، ولا داعى هنا للكرم أو التسامح فى الحق.

□□□

وبعدذلك استضافتنى باكستان لزيارة جامعتها الإسلامية والتعرف على أهم المؤسسات العلمية والثقافية بها، فسافرت ضمن وفد من جامعتى القاهرة والأزهر واستمرت الزيارة ـ التى شملت بعض المدن الباكستانية غير العاصمة ـ من السادس عشر من شهر فبراير إلى السادس والعشرين من الشهر نفسه سنة ١٩٨٣ .. وفى هذه الزيارة تم استقبال رئيس الجمهورية لنا فى منزله ، حيث جلسنا معه وقتا طويلا، وأقام لنا مأدبة كريمة ، وحدثنا عن أمله الكبير فى تعميم اللغة العربية بين الباكستانيين لأنها يجب أن تكون لغة كل المسلمين ، وكان رئيس باكستان حينئذاك هو الرئيس ضياء الحق .. وقد لمست أثناء تلك الزيارة عمق الشعور الإسلامى لدى الباكستانيين، كما لمست تقديرهم العميق لمصر بلد الأزهر الشريف ، إلى درجة أن كثيرا من الناس هناك يكادون يلتمسون البركة من كل من يفد عليهم من مصر، كما أن كثيرين يعتقدون أن لقب «شيخ» هو أرفع الألقاب . ولذا كان طلاب بعض المعاهد التى

زوناها يهتفون لرئيس وفدنا قائلين : «يحيا شيخ حسن حامدى» ، ويقصدون الدكتور حسن حمدى رئيس جامعة القاهرة الذى كان يرأس الوفد حينذاك .

وفى العام نفسه استضافنى المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، للمشاركة فى الاحتفال بذكرى مؤسسه الدكتور طه حسين، فسافرت ضمن وفد من الجامعات المصرية، وأقمت فى هذا البلد العزيز من الثالث والعشرين من شهر أبريل إلى الثالث من شهر مايو سنة ١٩٨٣ ، وكان دورى فى هذا الاحتفال إلقاء محاضرة عن طه حسين فى جامعة غرناطة، التى أسهمت بيوم كامل فى الاحتفال بذكرى الرائد والأديب المصرى الكبير..

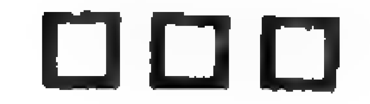
□□□

وفى هذه المرحلة كذلك استضافتنى الجامعة الإسلامية بالرياض أستاذاً زائراً، فلبيت الدعوة وبقيت بالمملكة من أول شهر مارس إلى يوم العشرين منه سنة ١٩٨٤ .. وكان أهم ما سعدت به أثناء تلك الرحلة، أنى ـ بعد أداء واجبى الجامعى ـ سافرت إلى مكة والمدينة وأديت العمرة لأول مرة .. ولا أستطيع أن أصف روعة اللقاء الأول مع الكعبة المشرفة، ثم مع مثوى الرسول الكريم فى المدينة المنورة. فكل كلمات اللغة تعجز عن وصف شعورى الذى غمرنى حينذاك. ولعل ما أقوله عن روعة هذا اللقاء يدركه من مر بهذه التجربة الروحية الفريدة.. وكما يقول المتصوفة : «من ذاق عرَف» ..

وبعد هذه الرحلات خارج مصر فى تلك المرحلة زرت الجزائر ضمن وفد رسمى من قيادات الجامعات المصرية لحضور مؤتمر جامعى هناك، واستغرقت الزيارة من السادس عشر من شهر نوفمبر إلى الثالث والعشرين من الشهر نفسه سنة ١٩٨٤ .. وقد لفت نظرى ما طرأ على الجزائر من ظواهر لم أكن أتوقعها . فالطابع الشمولى للحكم غالب، والحذر المتصل بالأمن شديد، وإهمال بعض رموز ثورة

الجزائر واضح.. وقد تمنيت أن أعرف شيئاً عن وضع «جميلة بوحريد» المجاهدة التى كانت ملء السمع والبصر أيام الثورة الجزائرية، فنصحنى من سألته ألا أفتح موضوعها مع أحد وأن أنساها تماماً، فعجبت لتقلبات الزمن ومصائر الناس فيه..

وأخيراً استضافتنى الجامعة الإسلامية بالرياض أستاذاً زائراً للمرة الثانية، فلبيت الدعوة وظللت بالمملكة من الثانى والعشرين من شهر مارس إلى الثانى عشر من شهر أبريل سنة ١٩٨٥ ، وكان أهم ما أسعدنى فى تلك الرحلة، هو أدائى للعمرة الثانية، حيث رويت ظمئى إلى الأراضى المقدسة، وبللت بدموعى موضع السجود إلى جانب الكعبة المشرفة، وفى رحاب الروضة النبوية المطهرة.



(٢)

الاشتراك فى حملة مقاومة التطرف:

كان من أهم ما قمت به فى المجال الثقافى ببلدى خلال تلك المرحلة، هو اشتراكى ـ بشكل مكثف ـ فى تلك الحملة التى قُصد بها تصحيح مفاهيم المتطرفين الذى أصبحوا يشكلون ظاهرة مقلقة حينذاك.. فقد أسند المسئولون فى التليفزيون إلىّ إلقاء بعض الأحاديث والاشتراك فى بعض الندوات الفكرية، التى توضح حقيقة الإسلام وتُجلّى جوهره، وتبرز ما فيه من قيم السماحة والمحبة والتعايش السلمى الإنسانى حتى مع غير المسلمين ما داموا مسالمين.. فقمت بهذا الواجب مع غيرى من المفكرين والعلماء الأجلاء، وأخذنا نُبرز فى تلك الأحاديث والندوات قيمة حرية العقيدة فى الإسلام، وأوضحنا أنها من الأسس الثابتة التى أكدها الله فى قوله: **«لا إكراه فى الدين»**.. كما أخذنا نبرز فى تلك الأحاديث والندوات حرمة النفس الإنسانية، وتأكيد الإسلام على تجريم العدوان عليها بأى شكل، إلا قصاصاً أو عقوبة مشروعة، وذلك ما قرره قول الله عز وجل: **«من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً»**..

كذلك أخذنا فى تلك الأحاديث والندوات نوضح خطورة تكفير الغير، وأكدنا أن الإنسان لا يملك تكفير من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وذلك

بناء على نصوص ثابتة من أهمها ما ورد من استنكار الرسول لفعل صحابى قتل رجلا فى حرب بعد أن نطق بالشهادتين، وكان هذا الصحابى قد ظن أن الرجل قد نطق بالشهادتين بلسانه بينما هو كافر بقلبه. وقد قال الرسول لهذا الصحابى فى شأن الرجل المقتول: «هَلاَّ شَقَقْتَ عن قلبه؟!»..

□□□

كذلك أوضحنا فى تلك الأحاديث والندوات حقيقة موضوع تغيير المنكَر، وحددنا من له حق التغيير باليد، وكيف يكون التغيير باللسان، وقلنا: إن كل ذلك يأتى بعد فهم ما هو المنكر.. كذلك وضحنا فى تلك الأحاديث والندوات حقيقة الجهاد فى الإسلام، وقلنا: إنه ليس رفع السلاح على غير المسلمين لإجبارهم على اعتناق الإسلام، فالعقيدة لا تدخل القلوب على أسنة الرماح، والاقتناع بالدين لا يتم بحد السيف. وقلنا: إن الجهاد فى الإسلام ـ كما عُرِفَ من غزوات الرسول وحروب خلفائه ـ إنما يكون للدفاع عن النفس ضد عدوان وقع على المسلمين، أو ضد عدوان مدبّر لكى لا يقع عليهم، أو لتحرير المغلوبين والمستعبَدين الذين يحول مستعبدوهم بينهم وبين وصول الإسلام إليهم، فيكون الجهاد لتخليص هؤلاء المقهورين وتمكينهم من معرفة الإسلام، وبعد ذلك تُترك لهم الحرية الكاملة فى أن يدخلوا الإسلام أو يظلوا على دينهم.. وهكذا كانت حروب الرسول وخلفائه حروباً دفاعية أو وقائية أو تحريرية، وكلها حروب مشروعة، وليس من بينها حرب تفرض الإسلام بحد السيف..

□□□

وهكذا ركزنا فى تلك الأحاديث والندوات على تصحيح أهم المفاهيم الخاطئة، وتوضيح أهم القضايا الغامضة التى تسبب تورط المتطرفين.. وقد كان المنظم لتلك الأحاديث والندوات المذاعة بالتليفزيون، الصديق فؤاد شاكر، الذى كان وقتها مشرفاً على البرامج الدينية فى ذلك الجهاز الشديد التأثير..

ويبدو أن نجاح هذه الأحاديث والندوات لفت المسئولين إلى نقل بعضها إلى الأماكن التى احتجز فيها زعماء المتطرفين أو من يمثلون خطورة منهم. فكنت أذهب ـ وحدى أو مع بعض الزملاء من رجال الفكر الإسلامى ـ إلى بعض المعتقلات لنتحدث إلى المتطرفين حيث يوجدون، ولنقيم معهم حواراً صريحاً موضوعياً صادقاً، من أجل تصحيح أخطائهم وتوضيح الغامض عليهم.. وقد كان وزير الداخلية حينذاك ـ اللواء حسن أبو باشا ـ يهتم بهذا اللون من المواجهة الفكرية التى تبصّر المتطرفين بالحقائق، وتهدى كثيرين منهم إلى سواء السبيل.. كما كانت تلك المواجهة الفكرية تحصن الجماهير التى لم تقع فى شباك التطرف بعد، وذلك عن طريق تسجيل هذه اللقاءات التى تجرى داخل المعتقلات، ثم إذاعتها على شاشات التليفزيون، لتتسع دائرة الانتفاع بها والتحصين للمشاهدين عن طريقها..

وفى ظنى أن تلك الأحاديث والندوات قد نجحت كثيراً. ويبدو أنى كنت موفقاً فى أداء دورى بها، حتى لقد كتب مشيداً بما كنت أقول بعض كبار الأدباء والمفكرين مشكورين..

□□□

لقاء عاصف مع رئيس إسرائيل:

ومن ذكريات هذه المرحلة التى لا أنساها، أنى دعيت ـ أيام الرئيس السادات ـ لأكون ضمن مجموعة من المفكرين والأدباء تلتقى فى القصر الجمهورى مع الرئيس الإسرائيلى «نافون»، الذى كان فى زيارة لمصر بعد تحقق عملية السلام، وطلب أن يجلس مع بعض مفكرى مصر وأدبائها.. وأذكر أن المجموعة التى دُعيت إلى هذا اللقاء كانت تضم الدكتور زكى نجيب محمود والدكتورة سهير القلماوى والأستاذ ثروت أباظة وغيرهم.. وأذكر أن «نافون» حين جلس معنا ـ مساء فى حجرة بقصر عابدين ـ بدأ حديثه بالثناء على الفكر المصرى والأدب المصرى، وأشاد بالمفكرين والأدباء المصريين، وقال إنّ الناس فى إسرائيل يعرفون كل الرموز والقيادات الفكرية والأدبية المصرية، وأنه هو شخصياً يعرف اللغة العربية وقد قرأ أدب طه حسين وتوفيق

الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهم، بل بالغ وأكد أنه يعرفنا جميعاً وأنه يقرأ لكل منا.. وبعد ذلك قال إنه يوجّه ـ باسمه وباسم إسرائيل ـ دعوة إلينا لكي نزور بلده الذى يعرفنا وينبغى أن نعرفه كذلك.. وهنا ـ وبعد أن أكمل حديثه ـ استأذنت الزملاء فى أن أتحدث ـ رغم أنى لست أكبر الموجودين ولا أهمهم ـ فسمحوا لى بالحديث مشكورين.. وأذكر أنى قلت لنافون ما خلاصته: أننا لا نستطيع أن نقبل دعوتكم، لأننا لا نستطيع أن نزور بلداً ما زال يحتل أجزاء عزيزة من الأرض العربية، وما زال يقتل الفلسطينيين، ويشن الغارات على اللبنانيين.. كما قلت لرئيس إسرائيل: «إنكم سودتم وجه السادات، بسبب إعطائكم الحجة لمخالفيه وخصومه، حيث أكدتم لهؤلاء المخالفين والخصوم أنهم كانوا على حق حين لم يثقوا فى نواياكم، وحين ظنوا أن السادات لم يوفق فى التصالح معكم»..

□□□

وأذكر أن بعض من كانوا يحضرون هذا اللقاء من الزملاء قد استشعروا منى الخروج على ما ينبغى من اصطناع «الدبلوماسية» فى مخاطبة نافون، الذى هو ـ على أية حال ـ رئيس دولة وضيف على رئيس مصر.. ومن هنا كان بعض الزملاء الذين حضروا اللقاء يشيرون إلىّ ببعض الإيماءات لكى أكتفى بما قلت وألا أسترسل. ولكننى يومها قلت كل ما يجب ـ فى رأيى ـ أن يقال. وقد سعدت كثيراً بالذى حدثت به رئيس إسرائيل، ولكنى حزنت أكثر لأنه لم يتم للذى قلت أى تسجيل.. وحسبى أنه قيل أمام شهود عدول.. رحم الله من مضى منهم، ومد فى عمر الأحياء الأعزاء..

□□□

الاشتراك فى تنفيذ احتفال الجامعة بعيدها الماسى:

وكان من أهم ما أسهمت به فى خدمة جامعتى خلال تلك المرحلة، مشاركتى فيى تخطيط وتنفيذ احتفال الجامعة بعيدها الماسى سنة ١٩٨٣، وهو الاحتفال الذى

شرفه الرئيس مبارك، ومنح ـ بمناسبته ـ كل القيادات بالجامعة أوسمة قيمة.. وكان حظى أن منحنى الرئيس وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، وذلك فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٨٣، فكان ثانى وسام من نوعه ودرجته أناله من مصر، بعد أن نلت الوسام الأول فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٧١ لحصولى على جائزة الدولة التشجيعية فى النقد والدراسات الأدبية.. وقد وقّع الوسام الأول الرئيس السادات ـ وإن كان الفوز بالجائزة قد تم فى عهد الرئيس عبدالناصر ـ ووقع الوسام الثانى الرئيس مبارك.. وجاء هذا الوسام الثانى ثالث وسام أناله، حيث حصلت على وسام الاستحقاق المدنى من جلالة ملك إسبانيا، بعد انتهاء مهمتى مستشاراً ثقافياً لمصر فى البلد الصديق، وذلك فى شهر يوليو سنة ١٩٧٨..

□□□

الاعتذار عن عدم قبول رئاسة هيئة الكتاب:

وفى هذه المرحلة ـ وأثناء عملى عميداً لكلية دار العلوم ـ طلبنى وزير الثقافة حينذاك الأستاذ عبدالحميد رضوان لزيارته فى مكتبه، ثم عرض علىّ أن أتولى منصب رئاسة الهيئة المصرية العامة للكتاب. ولكننى شكرته لثقته فى شخصى، واعتذرت له عن عدم استطاعتى قبول هذا المنصب، لأنى لا أفضل أى منصب على الأستاذية فى الجامعة. وقد أطال ـ رحمه الله ـ فى إلحاحه علىّ وإغرائه لى، وكان مما قاله: إنه أخذ وعداً من رئيس الوزراء حينذاك الدكتور فؤاد محيى الدين بأن تكون درجتى إذا قبلت هذا المنصب درجة نائب وزير.. ولكنى أصررت على الاعتذار ومضاعفة الشكر.. ولم أجد وسيلة للتخلص من هذا الموقف ـ الذى طال فيه الإلحاح ـ إلا أن أقدم سبباً آخر للاعتذار، وهو أنى لا أتحمل عاطفياً أن أجلس على الكرسى الذى كان يجلس عليه صديقى الراحل الشاعر صلاح عبدالصبور، وقلت للرجل ـ وأنا صادق ـ إن هذا شعور إنسانى شخصى أرجو أن يقدره ويقبل اعتذارى به. فقبل الرجل الاعتذار مشكوراً، وودعنى راضياً..

الفوز بجائزة الدولة التقديرية:

على أن أعظم ما سعدت به في تلك المرحلة حصولى على جائزة الدولة التقديرية في الآداب، التى أعلنت نتيجتها في السادس والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩٨٥، وكنت يومها نائباً لرئيس جامعة القاهرة، وممثلاً للمجلس الأعلى للجامعات بالمجلس الأعلى للثقافة. ولذلك حين عقد المجلس جلسته السنوية لاختيار الفائزين بالجوائز التقديرية، غادرت قاعة الاجتماع؛ لأنى كنت أحد المرشحين لنيل الجائزة ولا يصح أن يتم الاختيار في وجودى. وبعد أن تم الاختيار خرج إلىّ من بشرنى بنجاحى ودعانى إلى مواصلة حضور الاجتماع، فدخلت القاعة وشكرت من منحونى التقدير الكريم الذى أعده من أعظم ما نلت في حياتى من تكريم.. وفى الجلسة نفسها نال الجائزة نفسها الصديق الدكتور عبدالقادر القط، فتضاعفت فرحتى، وخرجتُ من القاعة لأبلغه عبر التليفون بنبأ فوزه، ولكنى وجدت الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى قد سبقنى إلى هذا، كعادته دائماً في السبق إلى الخير والعمل على ما يسعد الأصدقاء..

ولم يكن فوزى بجائزة الدولة التقديرية نتيجة لترشيحى للمرة الأولى، فقد سبق العامَ الذى فزت فيه بالجائزة، ترشيح في عام سابق، ولكنى لم أفز بالجائزة في ذاك العام، بل حَجَب المجلس الجائزة عن كل المرشحين لها.. وقد كان هذا الحجب مثاراً لتساؤلات وانتقادات أثارها عدد من الكتاب والنقاد الغيورين، فجاء الفوز في العام الذى تم فيه أشبه بتصحيح لوضع وإحقاق لحق..

□□□

وأحب أن أؤكد بهذه المناسبة أن الجائزة التقديرية المصرية كانت وما زالت أرفع جائزة يتطلع إليها أى أديب أو ناقد، وذلك على الرغم من قلة مكافأتها المالية بالنسبة إلى غيرها من الجوائز العربية التى تفوقها أحياناً من الناحية المادية بعشرات الأضعاف. وإنما كانت الجائزة المصرية ومازالت هى الأعظم، لأنها ارتبطت بأسماء الرموز العظيمة الذين نالوها، من أمثال طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم والزيات

ونجيب محفوظ وغيرهم.. ومن هنا يجب أن تبقى هذه الجائزة هى الجائزة الأدبية الأكبر التى تمنحها مصر، وأن لا تنشأ جائزة تفوقها تحت أى مسمى آخر مهما كانت الأسباب، وذلك للحفاظ على اسمها ومكانتها التى ارتبطت بالشخصيات التى نالتها، كما هو الشأن بالنسبة لجائزة «نوبل»، التى لم يتغير اسمها منذ إنشائها.. ولا ضير مطلقاً من كون مكافأة الجائزة المصرية قليلة، فمن الممكن رفع قيمتها المادية أضعافاً، مع بقائها باسمها وتاريخها.. وحتى إذا بقيت مكافأتها قليلة، فإن قيمتها الأدبية ومكانتها المعنوية عظيمة بتاريخها وبالرموز التى ارتبطت بها.. وحسبها بعد ذلك ـ أو قبل ذلك ـ أن من ينالها يتسلمها من رئيس جمهورية مصر، الذى يقلده بمناسبة فوزه وسام الاستحقاق، وهو واحد من أرفع الأوسمة..

□□□

(٣)

أول التقاء بالرئيس مبارك:

في أواخر هذه المرحلة بدأت صلتي بالرئيس محمد حسني مبارك. وكانت البداية يوم أن انتدبني العاملون بالرياسة لأقوم بالترجمة الفورية بين الرئيس وأحد سفراء أمريكا اللاتينية، الذى لا يتحدث إلا الإسبانية، والذى كان سوف يقابل الرئيس لتقديم أوراق اعتماده، ثم يجلس معه بعض الوقت كما جرت العادة فى استقبال السفراء لأول مرة.. وفى ذلك اليوم ذهبت إلى القصر الجمهورى بصحبة السفير الذى بدأ موكبه من مسكنه بالمعادى، وكان هناك سفراء آخرون سيقدمون أوراق اعتمادهم.. وحين جاء دور السفير الذى أصحبه، ودخلت على السيد الرئيس بصحبته، تهلل الرئيس وأشعرنى بحفاوة ما زلت أسعد بها وأشكره عليها.. وكان أول شيء قاله لى بعد الترحيب بى، كلمات رقيقة مؤداها أن العلماء والمفكرين يجب ألا يشغلهم الآخرون بأن يجعلوهم مترجمين. وقد أجبت سيادته بأننى سعيد بأن أقوم بالترجمة له، وأنى أعتبر هذا العمل تشريفاً لا تكليفاً..

□□□

وتمت الجلسة مع السفير، وخرجت بصحبته، فلحق بى أحد رجال الرياسة وأخبرنى أن السيد الرئيس يطلب منى أن أبقى حتى تتم مراسم تقديم أوراق اعتماد

باقى السفراء، لأنه يريد أن يقابلنى بعد أنى يفرغ من هذه المراسم. فانصرف السفير الذى كنت بصحبته وبقيت حتى فرغ الرئيس، فاستقبلنى فى مكتبه وأعاد تحيته لى وتلطفه معى.. ثم أخذ يسألنى عن بعض المسائل الجامعية والشبابية، وعن بعض القضايا الحياتية المصرية.. وخلال اللقاء تحدث سيادته كثيراً عن هموم الوطن التى تشغله بل تؤرقه..

□□□

وكانت هذه المرة هى الأولى التى أجلس مع سيادته دون أن يكون معنا أحد . وقد طالت الجلسة نسبياً، وأعطانى سيادته من الوقت فوق ما كنت أتوقع، .. وأشهد أنى خرجت بانطباع ـ من هذا اللقاء ـ أقنعنى بأن هذا الرجل يتسم بالوطنية القوية الصادقة، وبالنزاهة الضميرية الصارمة، وبالعقلية المتفتحة الواعية، وبالروح الإنسانية الحانية.. كذلك عرفت ـ من خلال هذا اللقاء ـ أن معاناة الرئيس من مسئوليات منصبه أضعاف سعادته به، وأن سعادته الحقيقية فى أن ينهض بمصر من خلال توليه هذا المنصب. وعرفت أيضاً أنه محروم مما يتمتع به أبسط الناس من حرية الحركة وقلة الهموم وخفة المسئولية، وأنه يصبر على أعباء هذا المنصب لأنه قدره أولاً، ولأن الشعب وثق به ثانياً، ثم لأنه يطمع فى أن يحقق شيئاً يسعد هذا الشعب ويرفع مستوى معيشته ويحقق آماله آخر الأمر.

وبعد هذه الجلسة الطويلة، استأذنت فى أن أنصرف فودعنى سيادته بكرم كما استقبلنى بمودة.. وأوصلتنى عربة من الرياسة إلى منزلى بعد أن انصرفت عربة السفير الذى كنت قد صحبته من منزله.

□□□

أول عضوية بمجلس الشعب:

ويبدو أن ما كنت أقوله من أحاديث وما أشارك به فى ندوات لمقاومة التطرف قد أعجب القيادة السياسية، فرئى أن من الممكن الانتفاع بى عضواً فى مجلس الشعب. وتم اختيارى ضمن القائمة التى رشحها الحزب الوطنى لتمثيل نواب

محافظة الجيزة.. وعن طريق هذا الاختيار الكريم والانتخاب بالقائمة، أصبحت عضواً لأول مرة في مجلس الشعب، وتم ذلك في شهر مايو سنة ١٩٨٤ .. وكان عملي في مجال النيابة البرلمانية مضافاً إلى عملي أستاذاً وعميداً ثم نائباً لرئيس الجامعة فيما بعد. كما كان هذا العمل في المجال النيابي جديداً بالنسبة إليّ، فالواقع أني لم أهيئ نفسي من قبل لدخول الانتخابات البرلمانية من أجل شغل مقعد في البرلمان. ولكنني وجدت نفسي ـ دون أي تدبير مني ـ نائباً، وعليّ أن أقوم بواجبي في هذا الموقع الجديد، إلى جانب قيامي بالتزاماتي الجامعية، التي لا تتعارض مع الواجبات البرلمانية.. وقد تم اختياري في ذاك المجلس الموقر ـ علاوة على عضويتي فيه ـ رئيساً للجنة التعليم. وأظن أني قمت بواجبي في المجلس بعامة وفي لجنة التعليم بخاصة بما أرضى ضميري، وبما اتفق مع التزامي الوطني وما درجت عليه من الروح الجامعية، التي تختلف كثيراً عن «الشطارة» السياسية..

□□□

لقاءان آخران بالسيد الرئيس:

وبعد ذلك جاءت فرصة أخرى لألتقي بالسيد الرئيس عن قرب للمرة الثانية، وذلك حين زار سيادته جامعة القاهرة وحضر اجتماعاً مع مجلسها الموقر. ويومها حضرت الاجتماع بصفتي عميداً من عمداء الجامعة.. وفي هذه الجلسة تحدث الرئيس عن كثير من القضايا، وشرح رؤيته في عديد من الأمور، واستمع إلى كل من يريد أن يتحدث من الحضور. وكانت جلسة ثرية، تدل على أن هذا القائد لا يحب أن يحكم من برج عاجي، ولكنه يفضل أن يقترب من الناس ويعيش الواقع ويستمع إلى مختلف الآراء، وخاصة آراء العلماء والمتخصصين والمفكرين والمجربين.. كما يحب أن يعرف الناس عن قرب، ويجمع في دائرة معارفه مجموعة من الشخصيات التي ينتقيها بدقة وينتخبها بذكاء، ويقتنع بها بعد أن يعرف فكرها وتوجهاتها من خلال اللقاء بها والاستماع إليها..

وأذكر بالتقدير أن سيادته فى هذا اللقاء خصنى بكلمات طيبات، وحين خرجنا لتوديعه أمام إدارة الجامعة ـ وكنت بعيداً نوعاً نظراً لطبيعة الخجل عندى ـ تفضل سيادته بالاقتراب منى بعد أن أوشك على ركوب عربته، وصافحنى بمودة كريمة وخصنى بتحية رقيقة..

□□□

ثم سنحت لى فرصة ثالثة فى تلك المرحلة التقيت فيها مع السيد الرئيس، بل جلست معه فى مقابلة مرتبة محددة.. فبعد أسابيع من نجاحى فى انتخابات مجلس الشعب سنة ١٩٨٤، وبعد يوم لقاء سيادته الذى تم فى مجلس الجامعة، وحين عدت إلى منزلى بعد ظهر ذاك اليوم التالى للقاء فى الجامعة، قال لى من فى منزلى إن مسئولاً من الرياسة طلبنى وأبلغهم أنه قد تحددت لى الساعة الثانية عشرة من الغد لمقابلة السيد الرئيس فى قصر القبة.. وساعتها رجّحت أن يكون الأمر دعابة أو معابثة من بعض الأصدقاء. وسبّب هذا الترجيح أن السيد الرئيس كان يشرفنا فى الجامعة منذ يوم. وقد حدثنى فى الجلسة وحيانى بعدها، فما وجه استدعائى للقائه غداً؟! وأوشكت ـ لغلبة الظن بأنها دعابة أو معابثة من صديق ـ أن أصرف النظر عن هذا الموضوع، لأفوت الفرصة على المداعبين أو المعابثين.. ولكنى راجعت نفسى وأخذت بالأحوط، وعملت على أن أتأكد بصفة قاطعة من حقيقة الأمر. فسألت دليل التليفون عن أى رقم له صلة بالرياسة، وبعد جهد أعطونى رقم الحرس الجمهورى، فطلبته وقدمت نفسى بصفتى واحداً من قيادات جامعة القاهرة وعضواً بمجلس الشعب الجديد، ورجوت محدثى أن يصلنى بأى مسئول فى الرياسة، فأعطانى الرقم الخاص بالأمناء، وحين استفسرت من الأمين الذى رد علىّ عن حقيقة طلبى لمقابلة السيد الرئيس، أخبرنى بأن الأمر حقيقة، وأنهم فى انتظارى بالقصر الجمهورى من الغد، قبيل الساعة الثانية عشرة.. وعلمت أنه ستتم مقابلة ثلاثة غيرى ممن يريدهم الرئيس، وهم الدكتور رفعت المحجوب، الذى تم تعيينه بعد ذلك عضواً فى مجلس الشعب ثم اختياره رئيساً للمجلس، والدكتور عصمت

عبدالمجيد الذى تم بعد قليل تعيينه وزيراً للخارجية، والدكتور حلمى نَمِّر الذى شغل بعد فترة منصب أمين مجلس التعاون العربى..

وفى الموعد المحدد يوم التاسع عشر من شهر يونية سنة ١٩٨٥ ، كنت فى الرياسة، واستقبلنى السيد الرئيس بمكتبه مرحباً، وهنأنى بنجاحى فى مجلس الشعب، وأوصانى بأن أشارك فى المناقشات التى تدور بالمجلس، وفى القضايا المطروحة عليه، لأنه يريد مجلساً حياً فعالاً مؤثراً ناجحاً فى خدمة الجماهير وتحقيق أملها فى نوابها..

□□□

وانصرفت بعد هذه المقابلة وقد زاد إيمانى بأن هذا الرجل رجل جادٌ فى إيمانه بالديمقراطية، وفى عمله من أجل التنمية، وفى حبه العميق لشعبه الذى أولاه ثقته..

ولعل هذه اللقاءات التى شَرُفتُ خلالها بالاقتراب من السيد الرئيس، ولعل ما سبق هذه اللقاءات من استماع لما كنت أقول من أحاديث وما أشارك فيه من ندوات، بالإضافة إلى إنجازاتى العلمية وأنشطتى الثقافية، أقول لعل هذا كله هو الذى عرّف الرئيس بى وكان وراء اختياره لى حين شرفنى بإسناد وزارة الثقافة إلىّ، وذلك يوم كلف الدكتور على لطفى بتشكيل الوزارة التى تولت الأمر يوم الخامس من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٥ ..

وبهذا الاختيار تبدأ مرحلة جديدة من حياتى هى «المرحلة الوزارية» ولهذه المرحلة حديث آخر إن شاء الله..

□□□

أهم الأحداث والمتغيرات الوطنية والأسرية:

على أنه لا يفوتنى أن أختم هذه المرحلة التى سميتها «المرحلة الإدارية» ، دون أن أشير إلى أهم الأحداث والتغيرات التى ألمت بوطنى وبأسرتى.. أما الوطن فكان

أبرز الأحداث فيه حدثين كبيرين، الأول منهما اغتيال الرئيس السادات يوم السادس من شهر أكتوبر سنة ١٩٨١ .. وقد كان حدثًا فاجعاً هزنى كثيراً وأصابنى بصدمة بالغة، رغم أنى لم أكن على أية صلة شخصية بالرجل، ولم ألتقِ به في حياتى عن قرب إلا مرتين، الأولى يوم التقى - رحمه الله - بالعلماء ورجال الفكر الإسلامى فى استراحته بالإسماعيلية، فى ليلة من ليالى شهر رمضان، وذلك للمشاركة والتشاور فيما يمكن أن يعمل من أجل إشاعة روح السماحة ومقاومة التطرف والتعصب، ومن أجل العمل على تأكيد الوحدة الوطنية فى مصرنا العزيزة.. والمرة الثانية كانت يوم دعيت مع بعض المفكرين والأدباء لمقابلة «نافون» رئيس إسرائيل، وقد أقيمت بقصر عابدين حفلة عشاء بعد اللقاء، ووقف الرئيس وبجواره «نافون» يستقبلان المدعوين ويصافحانهم قبل الدخول إلى قاعة المائدة..

□□□

وأما الحدث الوطنى الثانى، فقد كان تولى الرئيس مبارك للرياسة فى الرابع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٨١، بعد استفتاء شعبى رحبت فيه الجماهير بسيادته، واستبشرت خيراً بولايته. وقد تبع ذلك استهلال الرئيس لعهده بالإفراج عن المعتقلين من السياسيين والمفكرين، الذين تورط الرئيس السادات فى احتجازهم نتيجة لظروف وملابسات معروفة.. ومن أهم ما بدأ به الرئيس مبارك ولايته، توسيع دائرته الديمقراطية، وتشجيعه الواضح على ممارسة الحرية، ثم معالجته بموضوعية للأزمة الاقتصادية..

□□□

أما أهم ما طرأ على أسرتى فى تلك المرحلة، فهو جملة من الأمور بعضها سار وبعضها محزن. أما أهم أمور الأسرة السارة، فهو إتمام ابنتى «عزة» لمرحلة الليسانس فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب القاهرة سنة ١٩٨٠، ثم تعيينها معيدة بكلية التربية بالجامعة نفسها ولكن فى فرع الفيوم.. كذلك من أهم أمور الأسرة السارة فى

هذه المرحلة، إتمام ابنتى الثانية «علا» لمرحلة البكالوريوس فى كلية الصيدلة بجامعة القاهرة سنة ١٩٨٣ ، ثم تعيينها باحثة بالمركز القومى للبحوث.. وأخيراً كان من أمور الأسرة السارة، إتمام ابنى «أشرف» لمرحلة البكالوريوس فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة سنة ١٩٨٥ ، والتحاقه بالجيش لأداء الخدمة العسكرية الواجبة.. وكان ذلك تمهيداً لتعيينه مهندساً معمارياً بالمكتب العربى للهندسة..

□□□

وأما أهم الأحداث المحزنة للأسرة، فهو رحيل شقيقى الأكبر «حلمى»، الذى كان لى بمثابة الوالد بعد والدى، والذى توفى ـ رحمه الله ـ وهو يؤدى مناسك الحج يوم السابع عشر من شهر سبتمبر سمة ١٩٨٤ ..

وأحمد الله أن عاش أخى هذا حتى رآنى أستاذاً، ومستشاراً ثقافياً، وعميداً، ونائباً لرئيس الجامعة، وعضواً فى مجلس الشعب، ورئيساً للجنة التعليم به، وعضواً بالمجلس القومى للثقافة، وعضواً بالمجلس الأعلى للإذاعة والتليفزيون.. وكان هذا الأخ الأكبر يسعد ـ وأحياناً أكثر منى ـ بكل ما أحققه من نجاح، لأنه كان مثالاً رائعاً للإيثار والفناء حباً فى أسرته، والاعتزاز بلا حدود بإخوته..



المرحلة الثامنة

المرحلـة الوزاريـة

(١)

قلت من قبل: إنه يبدو أن السيد الرئيس محمد حسني مبارك قد عرفني من خلال ماكنت ألقيه من أحاديث وما أشارك فيه من ندوات لترشيد المتطرفين، وتحصين المستمعين من خطر الأفكار الخاطئة التي ينشرها الإرهابيون متسترين زيفا بقناع الدين.. وقلت كذلك إني: سعدت بلقاء السيد الرئيس عدة مرات أثناء عملي عميدا ثم نائبا لرئيس جامعة القاهرة، وكان بعض اللقاءات مع آخرين، وبعضها شرفت باستقبال الرئيس لي منفردا دون غيري من الحاضرين.. من هنا اقتنع سيادته ـ فيما أعتقد ـ بأنه يمكن أن أكون في خدمة وطني وزيرا..

□□□

وحين أسند سيادته تشكيل الوزارة إلى الدكتور على لطفي، أشار بأن أكون وزيرا للثقافة.. ويوم المشاورات التي تم خلالها اختيار الوزارة الجديدة، كنت أباشر عملي في مكتبي بإدارة جامعة القاهرة، فطلبني الدكتور يوسف والي عبر الهاتف، وأخبرني أن الدكتور على لطفي يطلبني لمقابلته في مقر الحزب الوطني على «كورنيش» النيل. وكان في زيارتي في ذاك الوقت صديقاي الدكتور محمد أبو الأنوار والدكتور عبداللطيف عبدالحليم، ولمّا لم تكن عربتي موجودة ساعتها، فقد ركبت عربة أحد الصديقين اللذين صحباني إلى مقر الحزب الوطني، حيث ينتظرني الدكتور على

لطفي ضمن من يستقبلهم للمشاورة فى الاشتراك فى الوزارة.. واستقبلنى الرجل بحفاوة، وأخبرنى بأن السيد رئيس الجمهورية قد اختارنى وزيرا للثقافة، ونقل إلىّ عن سيادته ثناء طيبا، شكرت من كل قلبى قائله وناقله. ثم هنأنى بالثقة الغالية وودعنى ليستقبل غيرى.. وخرجت لأجد عددا كبيرا من المصورين والصحفيين، ووجه بعضهم إلىّ السؤال التقليدى: ماذا تنوى أن تقدم لوزارتك؟؟ فأجبت بأنى «سأحاول أن أعيد للثقافة المصرية وجهها المشرق ودورها الرائد».

□□□

واتجهتُ بعد هذه المقابلة والتكليف، إلى مسجد الحسين رضى الله عنه، يصحبنى صديقاى.. وفى هذا المكان الطهور صليت ركعتين شكرا لله، ودعوته أن يوفقنى فى مهمتى الجديدة، وأن يعيننى على أداء واجبى كأحسن ما يكون الأداء، وأن يجنبنى الأخطاء ويحمينى من الغرور وأصحاب النفاق والرياء..

ثم اتجهت إلى منزلى، وكان الخبر قد أذيع، فاستقبلتنى أسرتى بفرحة كبيرة، كما تلقيت كثيرا من التهانى عبر الهاتف وعن طريق البرقيات، وتوالى قدوم من يحملون باقات الورد، كما تتابع الزائرون المهنئون من الأقارب والأصدقاء والزملاء.. وعاش البيت فرحا كبيرا أحمد الله عليه، وأشكره على أن هيأه لأسرتى فى يوم من أسعد أيام حياتى..

□□□

وفى صباح اليوم التالى، ذهبت ـ مثل كل الزملاء الوزراء ـ لأداء اليمين الدستورية أمام السيد رئيس الجمهورية، وكان ذلك فى قصر القبة.. وحلفنا اليمين، وصافح الرئيس كلا منا مهنئا ومباركا. ثم أُخذت لنا صورة تذكارية مع سيادة الرئيس، وتم عقد اجتماع لمجلس الوزراء الجديد فى القصر برياسة السيد الرئيس بطبيعة الحال.. وفى هذا اللقاء هنأ سيادته الوزارة الجديدة ودعا لها بالتوفيق، ثم وجه

إلى المهام الرئيسية التى يريد سيادته من الوزارة أن تحرص على إنجازها.. وبعد ذلك صافح الرئيس الجميع مودعا إياهم بالسماحة والمودة التى استقبلهم بها.

وتوجهت بعد هذا الاجتماع إلى مقر وزير الثقافة بالزمالك فى صحبة الاستاذ محمد عبدالحميد رضوان الذى كان وزيرا للثقافة قبلى، ثم شغل وزارة شئون مجلس الشعب والشورى فى الوزارة الجديدة.. وحين وصلنا إلى مقر وزير الثقافة، استقبلنا العاملون فيه بالترحيب والتهنئة، وقدم الأستاذ رضوان كبار الموظفين إلىّ وعرفنى بهم، ثم انصرف مودعا من الجميع بالإجلال والاحترام.

□□□

ودخلت غرفة مكتبى، وتوافد علىّ المهنئون من العاملين والأصدقاء والزملاء.. وبعد ذلك طلبت من وكيل الوزارة الأول أن يكتب لى تقريرا مفصلا يعطى تصورا كاملا عن هيئات الوزارة ومؤسساتها وفروعها وإداراتها، مع بيان بكل المسئولين عن تلك الهيئات والمؤسسات والفروع والإدارات.. كما طلبت أن يتم عقد اجتماع لى مع كل هذه القيادات فى اليوم التالى، لأعرف الجميع عن قرب، ولأستمع إليهم وأتعرف على آرائهم، وأقف على مالديهم من أفكار تنشط العمل فى مواقعهم، وعلى مايعترض طريقهم من معوقات تحول دون أدائهم لكامل واجبهم، ثم لأطرح عليهم مفهوم الثقافة الذى أراه، وما يحقق هذا المفهوم من روافد، وما يوصل هذه الروافد من أجهزة، ومايتحقق من وراء ذلك كله من أهداف..

□□□

وتم عقد الاجتماع فى اليوم التالى، وفيه أوضحت للحاضرين أن الثقافة ـ فى رأيى ـ قيمة من أعظم القيم الإنسانية، وهذه القيمة تعنى ـ فى رأيى أيضا ـ رقى الفكر وسمو الوجدان معا. وسمو الفكر يكون بالعلوم والمعارف والخبرات والتجارب، أما سمو الوجدان، فيكون بالدين الصحيح والفن الرفيع والتقاليد السامية والأخلاق الراقية.. فالثقافة ليست العلم وحده، كما أنها ليست الفن فحسب. فالذى يتعلم

ويقف عند العلم فقط، إنما هو عالم فقط، والذى يزاول الفن ويقف عند الفن وحده إنما هو فنان فحسب.. ولا يمكن أن يكون الإنسان مثقفا إلا حين يرتفع فكره بالعلم والمعرفة والخبرة والتجربة من جانب، ويسمو وجدانه بالدين الصحيح والفن الرفيع والتقاليد السامية والأخلاق الراقية من جانب آخر.. وأوضحت كذلك أن عمل وزارة الثقافة هو «التثقيف»، كما أن عمل الوزارة التى تشرف على المدارس والجامعات هو «التعليم». ومن هنا يمكن أن نسمي وزارتنا «وزارة التثقيف»؛ لأن هذه الوزارة لا تنتج ثقافة وإنما توصل الروافد التى تصل بالمواطنين إلى أن يكونوا مثقفين، أى متسلحين بهذه القيمة المعنوية الرفيعة وهى قيمة الثقافة.. والوزارة توصل هذه الروافد التى تحقق للمواطنين الرقى الفكرى والسمو الوجدانى ـ أى الثقافة ـ عن طريق أدوات وأجهزة ووسائل، منها الكتاب والمسرح والسينما والمعرض والمتحف والمحاضرة والندوة، والتدريب على الإبداع فى قصور الثقافة وبيوتها..

□□□

وقد اخترت هذا المفهوم للثقافة، لأنه هو المفهوم البناء، الذى يمكن أن يسهم فى بناء المواطن الصالح، صاحب الرؤية الصحيحة والحكم السليم والانتماء القومى والتعايش الحضارى مع بقية المواطنين.. ففى رأيى أن معظم السلبيات التى يعانى منها مجتمعنا ترجع إلى غيبة الثقافة بمعناها الإيجابى، فلو أننا أخذنا أنفسنا بتثقيف الناس من منطلق ترقية فكرهم والسمو بوجدانهم، لصحّ فكرهم واستقامت رؤيتهم، ولتقاربوا فى الفكر وتجانسوا فى الإحساس، وبهذا يتحقق ترابطهم ويقوى انتماؤهم ويستقيم سلوكهم، نتيجة لرقى فكرهم وسمو وجدانهم.. كذلك اخترت هذا المفهوم للثقافة لأنه هو الذى يتفق مع الأصل العربى فى لغتنا، ومع الجذر الأوربى فى لغة من ترجمنا مصطلحهم لاستعمالنا. أما الأصل العربى، فالثقافة فيه تعنى التهذيب والصقل والتقويم، كما تعنى الحذق ودقة الفهم وحسن التأنى.. فيقال: فلان ثَقَّفَ فرع الشجرة، أى عدل اعوجاجه وهذبه وصقله ليصلح رمحا مثلا.. ويقال: ثقف الرجل ـ بفتح الثاء وكسر القاف ـ أى صار حاذقا لبقا حسن الفهم والسلوك.. وأما

الجذر الغربى، فيعنى التنمية والرعاية والتربية وتعهد الغرس حتى يزدهر، وذلك هو الأصل اللاتينى الذى أخذت منه كلمة Cultere، المرتبطة بكلمة Agriculture بمعنى الزراعة وتعهد النبات ورعايته.

ولهذا أكدت لقيادات العاملين فى الوزارة ان كل نشاط نقدمه يجب أن يسهم فى تحقيق رقى الفكر وسمو الوجدان للقاعدة العريضة من المواطنين، وأن أى نشاط لايقصد إلى تلك الغاية إنما هو عمل ليس داخلا فى إطار مهمتنا، فليس من شأننا أن نضيع فيه وقتنا ونبدد به ميزانيتنا.

□□□

وبعد إرساء هذا المفهوم حددت ـ مع كل القيادات ـ مهام كل هيئة وقطاع فى الوزارة، فى إطار هذه الاستراتيجية العامة. فلهيئة الكتاب خطة خاصة بها، خلاصتها أن تهتم بالرقى بالكتاب وحل مشكلاته.. وللثقافة الجماهيرية مهمة تضطلع بها، مؤداها أن تثقف الجماهير الشعبية العريضة التى لم تتح لها فرص التعليم ولا التثقيف بالقدر المطلوب.. ولهيئة المسرح رسالة يجب أن تؤديها، وغايتها أن تقدم مسرحيات ذات قيمة، يخرج بعد مشاهدتها المواطن وقد أضاف إلى فكره فكرا وربح لوجدانه متعة.. ولهيئة السينما خطة عليها أن تحققها، وهدفها أن تساعد على ظهور أفلام ذات مستوى رفيع، تناسب مكانة مصر الفنية وريادتها الحضارية، وتسهم بطريقتها فى الرقى بالفكر والسمو بالوجدان إلى جانب تحقيق المتعة الفنية.. ولقطاع الفنون خطة تعمل على إسعاد الجماهير، من خلال تقديم أعمال تحقق المتعة الراقية وتحدث الترفيه النظيف، مما يؤدى إلى التوازن النفسى لدى المتلقين، ويرتفع فى الوقت نفسه بفكرهم ووجدانهم.. ولأكاديمية الفنون رسالة، يأتى فى مقدمتها تخريج المتخصصين فى فنون المسرح والسينما، على وجه يساعد بشكل أساسى على النهوض بهذين الفنين وحمايتهما واستمرار تقدمهما، وسد احتياجات مصر والبلاد العربية من المسرحيين والسينمائيين الدارسين المتخصصين، بالإضافة إلى سد احتياجات التليفزيون

في مجالات التأليف والتمثيل والإخراج.. ولهيئة الآثار خطتها، وغايتها رعاية الآثار المصرية كشفا ودراسة وصيانة وعرضا وحماية، مع ترتيب للأولويات، بحيث يتم أولا إنقاذ الآثار المهددة بالتلف أو تغيّر المعالم.. وللمجلس الأعلى للثقافة خطته، التى يخرج بها عن أن يظل مجمدا لا يجتمع إلا لمنح الجوائز التقديرية والتشجيعية كل عام.. فالمجلس يضم ـ من حسن الحظ ـ نخبة ممتازة من كبار المفكرين والأدباء والفنانين، الذين يعتبرون رموزا رفيعة للثاقفة المصرية. ولذا كان من الواجب الإفادة إلى أقصى حد ممكن من هذه الكفاءات الكبيرة، بحيث يكونون ـ في مجلسهم ـ العقل المفكر للوزارة، والجهاز الرئيسى المخطط لمشروعاتها التى تحقق غاياتها..

ثم بدأت تنفيذ تلك السياسة ـ مع زملائى فى الوزارة بموضوعية وهدوء، ودون ضجيج إعلامى أو عمل مظهرى دعائى..

□□□

ورغم الحفاوة الكريمة التى تلقانى بها عدد غير قليل من كبار الكتاب والمفكرين من خلال ما كتبوه عنى فى الصحف والمجلات، قد اعترضت طريقى ـ منذ البداية وأثناء العمل ـ بعض المعوقات التى عانيت منها كثيرا، ولكنها لم تصرفنى عن غايتى التى وضعتها نصب عينى، وآليت على نفسى أن أحققها مهما كلفتنى.. ومن تلك المعوقات، تصادم آراء بعض كبار العاملين فى الوزارة، واستناد هذا التصادم فى أحيان كثيرة إلى مصالح شخصية بعيدة عن الموضوعية.. ومن تلك المعوقات أيضا، عدم رضا بعض الطموحين ـ أو الطامعين فى الوزارة ـ عن كونى أتولى مسئوليتها، واعتقادهم أنهم كانوا أحق بهذه الوزارة منى.. وقد يكون لهؤلاء الحق فى طموحهم، ولكن المؤلم أن بعض هؤلاء كانت لهم سلوكيات أتعبتنى، وفى كثير من الأحيان زهدتنى، حتى تمنيت أن لو تركت الوزارة أو تركتنى..

□□□

ومن المعوقات التى ألقيت فى طريقى كذلك، تجاوز بعض الإخوة الصحفيين ممن لا تعجبهم الجدية، وممن لهم رؤية مخالفة فى العمل الثقافى. وأحيانا كان يصل الأمر ببعضهم إلى حد التجنى وذكر أخبار غير صحيحة عنى.. ومن أمثلة ذلك أن صحفيا كتب عنى ذات يوم أنى سافرت إلى المغرب مع وفد كبير من كبار موظفى الوزارة، وكلفنا الدولة آلاف الجنيهات، وأننا الآن فى المغرب ننفق من مال الدولة بيذخ.. وقد قرأت هذا الخبر وأنا جالس بمكتبى فى الوزارة بالزمالك، فعجبت لهذا التجنى والادعاء، بل تألمت لهذا التجاوز والافتراء..

وللحق أنى حين حدثت رئيس التحرير المسئول فى هذا الأمر، اعتذر بلطف، ثم وجه إلى تصحيح الخبر فى العدد التالى من المجلة.. وهذه طبيعة الصحفيين الشرفاء فى تصحيح الأخطاء .

□□□

(٢)

رغم المعوقات والمنغصات التي تحدثتُ عنها من قبل، مضيتُ في عملي في وزارة الثقافة بكل ما أستطيع من نشاط وما أملك من إخلاص، حتى تحققتْ بعون الله ـ ومساعدة العاملين المخلصين ـ إنجازات أعتز بها.. ومن أهم هذه الإنجازات ما يلي:

في مجال الكتاب:

تمت إزالة أهم المعوقات التي تحول عن إخراجه جيدا ورخيصا ـ وتعوق انتشاره وتصديره ميسّراً ورائدا، يسترد مكانته ويؤدى دوره الذى عُرف به عبر تاريخه الطويل.. وقد تم التخلص من أهم تلك المعوقات بمساعدة الزميلين وزيرى المالية والاقتصادية، وذلك بتغيير بعض اللوائح المتصلة بالجمارك المفروضة على الورق وأدوات الطباعة، وبتيسير الشروط المفروضة على مصدّرى الكتاب المصرى إلى خارج البلاد.

□□□

كذلك تم تطوير معرض القاهرة الدولى للكتاب، حتى أُصبح مهرجانا ثقافيا شاملاً..

كذلك بدأ ذلك التقليد العظيم ـ وغير المسبوق ـ الذى يجتمع فيه السيد رئيس الجمهورية بالأدباء والمفكرين، ويجرى معهم حوارا حرا وصريحا، يمثل إجلال الرئيس لمثقفى مصر وتقريبه لهم والتعرف من قرب عليهم.

كما تم تطوير ملموس فى دار الكتب الجديدة، وإقامة بداية لمتحف للعقاد وآخر لتوفيق الحكيم، حيث تم جمع طائفة من متعلقات كل من الأديبين الكبيرين، ووضعت فى مكان خاص يمكن أن تتم زيارته والتعرف على جانب مهم من متعلقاته.. وقد افتتح السيد الرئيس هذا التطوير واجتمع خلال الافتتاح بالأدباء والمفكرين.. ولا أنسى أن أشيد بالصديق الدكتور سمير سرحان الذى بذل جهودا كبيرة من أجل تحقيق تلك الإنجازات..

□□□

فى مجال الثقافة الجماهيرية:

تم ـ فى بعض القصور على سبيل التجربة ـ فتح فصول للدراسات الحرة لتعليم اللغة والأدب، للموهوبين الذين لم يتمكنوا من قبل من دراسة القواعد اللغوية والأصول الأدبية.. كذلك تم فتح فصول لدراسة التاريخ والحضارة، لكى تتاح الفرصة لمن لم تتح لهم فرص التعليم بشكل كاف أن يتعرفوا على تاريخ بلادهم المصرية ومنطقتهم العربية وما هو ضرورى من تاريخ العالم كله.. كذلك فتحت فصول للموهوبين فى الفنون المختلفة للتعرف على أصول هذه الفنون وأدواتها، ولصقل مواهبهم وتمكينهم من التقدم فى إبداعاتهم.. وكذلك تم فتح فصول للتعريف بجوهر الإسلام وقيمه الرفيعة. وذلك لتمكين أصحاب النزعات الدينية من التعرف على سماحة دينهم وإنسانيته ومثاليته، وللحيلولة بينهم وبين الأفكار المتطرفة والفتاوى الخاطئة.. وبذلك يتم تحصين الجماهير أو تتم المشاركة فى تحصينهم، على أيدى علماء متخصصين ينيرون طريق الحق ويهدون إلى سواء السبيل..

□□□

وفى مجال المسرح:

تم تجديد المسرح القومى بالأزبكية، كما تم افتتاحه بمسرحية «إيزيس» للأستاذ توفيق الحكيم، وقد شرّف السيد الرئيس حفل الافتتاح، وشاهد المسرحية فى إخراجها

الجديد الذى قام به ـ ومثّل خلاله ـ الفنان كرم مطاوع... وقد كان فى صحبة الرئيس ليلتها الأستاذ الحكيم الذى لقى من السيد الرئيس كثيرا من الحفاوة والتكريم..

□□□

كذلك تم تجديد مسرح محمد فريد بعد أن كان قد احترق فى عهد سابق، وكان إنجاز هذا التجديد على أيدى العاملين فى المسرح وبأسلوب ممتاز وغير مسبوق، وفّر النفقات، وربطَ العاملين بالبيت المسرحى الذى فيه يعملون..

كذلك تم تطوير بقية البيوت المسرحية، على وجه يدفع حركتها ويضاعف نشاطها. وكانت السياسة المتفق عليها ألا يقدّم بيت مسرحى إلاّ اللون الذى يتميز به، حتى تتضح شخصية كل بيت، ويتم التنوع، فى العروض الفنية لإثراء الحركة المسرحية..

ووفق هذه السياسة وهذا الهدف، تتابعت المسرحيات الجيدة فى مسارح الدولة، فتم ـ بعد عرض «إيزيس» ـ عرض مسرحية «مجنون ليلى» لأحمد شوقى بإخراج جديد، ثم عُرضتْ مسرحية «لعبة السلطان» للدكتور فوزى فهمى. كما عُرضت مسرحيات أخرى رفيعة لا يتسع المقام لذكرها.

□□□

وعلى ذكر المسرح والمسرحيات الرفيعة، لا يفوتنى أن أقول: إن مبنى «الأوبرا» الجديد قد تم تقريبا أثناء مسئوليتى عن وزارة الثقافة، وأوشك أن يكون صالحا لحفل الافتتاح، بل إن لجنة قد تم تكوينها من كبار أساتذة الفنون الموسيقية والاستعراضية وبعض كبار الأدباء والمثقفين، لوضع برنامج حفل الافتتاح. وأذكر أن الأستاذ محمد عبدالوهاب كان من رأيه تقديم مسرحية «مجنون ليلى» فى شكل «أوبرالى» كامل، بحيث يتم أداؤها أداء غنائيا موسيقيا، على نحو ما تم من قبل لفصلٍ من فصولها، قام الأستاذ عبدالوهاب بتلحينه ، ومثله الأستاذ أحمد علام بصوت

عبدالوهاب، والسيدة/ فردوس حسن بصوت أسمهان، ومعهما الأستاذ عباس فارس بصوته هو.. وقد أخذ الأستاذ عبدالوهاب منى المسرحية، وسافر بها إلى باريس لإتمام تلحينها استعدادا لتقديمها. ولكنّ الظروف تغيرت وتم الافتتاح في ظل عهد جديد وبرنامج جديد..

□□□

وفى مجال السينما:

تم وضع خطة لتجديد معامل الاستديوهات التابعة للوزارة. كما تم تشجيع الإنتاج السينمائى الجيد، وذلك عن طريق الدعم بالجوائز الدافعة والتيسيرات الحافزة.. وقد سعدت السينما المصرية حينذاك بفوز فيلم مصرى بالجائزة الأولى فى مسابقة دولية، وهو فيلم «البداية» ، الذى أخرجه الأستاذ صلاح أبو سيف.. وقد أهدى الفنانون جائزة فيلمهم إلى رياسة الجمهورية، اعترافا منهم بدور السيد الرئيس فى رعاية الفن وحبه وتقديره للفنانين.. ويوم هذا الإهداء ذهبت إلى قصر عابدين ومعى بعض أبطال الفيلم، لتقديم هذه الجائزة العالمية مشفوعة بتسجيل كلمة تقدير وإجلال، للسيد الرئيس مبارك..

□□□

وفى مجال الفرق الموسيقية والاستعراضية:

تم تطوير تلك الفرق وتدعيمها، وتنظيم عروض دورية لها. كما تمت زيارة أكثرها لبعض البلاد العربية والأوروبية فى مهرجانات فنية ومناسبات قومية، حيث نالت نجاحا كبيرا وتقديرا عظيما.. ومن أهم تلك المهرجانات «مهرجان فنون دول البحر المتوسط» ، الذى أقيم فى مدينة «مرسية» بإسبانيا، فى شهر سبتمبر سنة ١٩٨٦ .. وقد كانت مصر هى الدولة المحتفل بها هذا العام.. ولذا شاركت الوزارة بفرقة الموسيقى العربية التى كان يقودها الأستاذ حسين جنيد، وقدمت لعدة ليال عروضا قيمة، لقيت كل الإعجاب والتقدير من الجماهير.. ومن ذكريات هذه المناسبة

أن مدينة «مرسية» ـ بلد المتصوف أبى العباس المرسى ـ احتفلت بمصر فى بداية هذا المهرجان وأثناءه احتفالا لا ينسى، حيث زين العلم المصرى معظم الأماكن الرسمية فى المدينة، كما كان يزين خلفية المسرح الذى تقدم عليه العروض، كما كان يعزف السلام الجمهورى المصرى فى بداية العرض كل ليلة.

□□□

وعلى ذكر الموسيقى والمسرح، لا يفوتنى أن أذكر أنه تم أثناء مسئوليتى عن وزارة الثقافة، تقديم عرضين «لأوبرا عايدة»، أحدهما فى مدينة الأقصر، وكان الفضل فى ترتيبه وتنفيذه للزميل الكريم الأستاذ فؤاد سلطان وزير السياحة فى تلك الفترة.

أما العرض الثانى فكان فى الجيزة إلى جوار أبى الهول، وكان بإشراف وزارة الثقافة.. والمهم أن هذا العرض قد تم بنجاح كبير دون أن يكلف مصر قرشا واحدا، بل إنه جلب إليها عدة ملايين من الدولارات والجنيهات، لأن كل التكاليف كانت على الشركة التى تولت تسويق العرض والإنفاق عليه.. أما العائد على مصر فكان عن طريق المشاهدين، الذين وفدوا على بلادنا، وعن طريق ما دفعه المتعهدون المسئولون ماليا عن العرض من نفقات كبيرة لتأجير المكان، ولدفع الضرائب على التذاكر، ولدفع أجور الموسيقيين والفنانين المصريين المشاركين فى العروض.

□□□

وفى مجال الآثار:

تم ترميم المشهد الحسينى بقبته وجدرانه ترميما أثريا فنيا على أعلى مستوى. كما تم تركيب قبة معدنية بدلا من القبة القديمة التى كانت قد أزيلت، ثم تمت إعادة كل النقوش والزخارف داخل المشهد وتحت القبة كما كانت من قبل.

كذلك تم ترميم جامع عمرو بن العاص. وقد زار السيد الرئيس المسجد بعد هذا الترميم وصلى الجمعة به فى مظاهرة روحية رائعة.

كما تم ترميم مجموعة مساجد القلعة، وكثير من الآثار الإسلامية والقبطية والرومانية والفرعونية..

□□□

ومن أهم ما تم من عمليات ترميم، ما حدث بالنسبة لقلعة صلاح الدين التى تقع فى نهاية خليج العقبة قرب طابا. وقد زار الرئيس القلعة بعد ترميمها وتهيئتها لاستقبال السائحين والزائرين والدارسين..

كذلك تمت إقامة متحف الشرطة على قلعة محمد على، وكان المكان الذى شغله المتحف سجنا من قبل أو معتقلا.. وقد افتتح السيد الرئيس هذا المتحف الذى يمثل تطور الشرطة المصرية، ويعطى صورة عن جهادها المشرّف من أجل حماية الوطن وأمن المواطنين..

□□□

كذلك تم إنشاء «متحف مجوهرات أسرة محمد على» بالإسكندرية ، بعد أن تم تسجيل كل حلية أو أثر تسجيلا وصفيا دقيقا وتصويريا كاملا، ثم وضع كل شئ فى مكانه اللائق من المتحف، وشُدِّدت الحراسة ـ ربما لأول مرة فى تاريخ المتاحف فى مصر ـ فكانت أولا حراسة بشرية، ثم كانت ثانيا حراسة تليفزيونية من خلال دائرة خاصة تتبع كل زائر وترصد حركاته، ثم كانت ثالثا حراسة صوتية، مؤداها أن تنطلق أجراس خطر إذا ما مس زائر شيئا أو حاول الاعتداء على أى شئ.. وقد افتتح السيد الرئيس هذا المتحف فى احتفال رائع ويوم مشهود..

كذلك تمت إقامة معارض للآثار المصرية فى كثير من بلاد العالم، مثل فرنسا وسويسرا وألمانيا واسكتلندا وأمريكا.. وقد حضرت افتتاح بعض هذه المعارض فى فرنسا وسويسرا واسكتلندا.. وكان لدى الوزارة حرص شديد على ألا يتم سفر قطع أثرية وحيدة، وإنما يُبعث إلى تلك المعارض بعض الآثار ذات النسخ المتعددة، وذلك

للاحتفاظ لمصر بأصول آثارها الثمينة، التي لا يمكن أن يُقَدَّر لها ثمن أو يعوضها تعويض مهما بلغ.

ولا يمكن أن أذكر هذه الإنجازات دون أن أشيد بجهود الدكتور أحمد قدرى، الذى كان شعلة نشاط، كما كان قدوة فى الجِدّيّة والإنجازات الأثرية.

□□□

وفى مجال تنشيط العلاقات الثقافية:

وقَّعت باسم مصر معاهدة ثقافية مع دولة البحرين، واقتضى إبرام المعاهدة سفرى إلى «المنامة» عاصمة البحرين، حيث سعدت بمقابلة فخامة أمير البلاد، وسلمته رسالة تحريرية من سيادة رئيس جمهورية مصر.

كذلك شاركتُ فى مهرجان فنى دولى بتركيا، واقتضت هذه المشاركة سفرى إلى هذا البلد العزيز الذى تربطنا به علاقات تاريخية وثقافية قوية.. ومن ذكرياتى التى لا أنساها عن هذه الزيارة، حضورى لحفل عشاء أقامه السيد رئيس الجمهورية التركية، الذى أجلسنى إلى جانبه، ثم فاجأنى مرض كان يقتضى انصرافى وعرضى على طبيب لإسعافى ، ولكنى صبرت نظرا لمجلسى من رئيس الدولة، وقاومت الألم مقاومة عذبتنى كثيرا، حتى انتهى حفل العشاء دون أن أُشعر أحداً بمعاناتى، ثم ودعت الرئيس التركى، وأسرعت ليستدعى لى الطبيب الذى أسعفنى مؤقتا حتى عدت إلى مصر فاستأنفت علاجى..

□□□

كذلك مثلتُ مصر فى مؤتمر وزراء الثقافة الأفارقة فى «موريشيوس» حيث كرمنى الزملاء هناك فاختارونى نائبا لرئيس المؤتمر الذى كان وزير الثقافة فى البلد المضيف.

ومن أطرف ذكرياتى عن هذا المؤتمر، أنه فى إحدى الجلسات العامة كنت جالسا مع الزملاء الأفارقة فى القاعة العامة. أستمع إلى ما يقوله الخطباء وما يدور من مناقشات.

وكان يرأس الجلسة وزير ثقافة «موريشيوس». وبينما أنا «سارح» فكريا للحظات بعيدا عما يدور فى الجلسة ـ كما يحدث كثيرا فى مثل هذه الاجتماعات ـ إذا برئيس الجلسة يطلبنى لأحلَّ محله فى إدارتها، لأنى كنت نائبُ الرئيس كما قلت، ولأنه مضطر للانصراف لمقابلة هامة خارج المؤتمر.. وفوجئتُ بهذا الاستدعاء، وأوشكتُ أن أرتبك وأعجز عن أداء واجبى كما ينبغى، لأنى لم أكن أتابع بدقة ـ ولا بغير دقة ـ ما يدور فى الجلسة وبالأخص الموضوع الذى يناقش ويدور حوله الحديث.. ولكنى تماسكت واستعنت بالله، وصعدت إلى المنصة وحييت الحاضرين، وقلت: «نواصل الحديث الذى انقطع بانصراف معالى الوزير».. وهنا واصل من كان يتحدث من قبل حديثه، وكان معارضا لإدخال موضوع فلسطين ضمن أعمالِ المؤتمر وتوصياته، لأنه موضوع ـ فى رأيه ـ يخص العرب ولا يخص الأفارقة. فعرفت إلى أى مَدى وصل الحديث فى جدول الأعمال الذى أمامى، وتركت المتحدث حتى أنهى كلامه ثم عقبتُ عليه بما خلاصته: أن موضوع فلسطين هو موضوع عربى بالفعل، ولكنه موضوع يهم أفريقيا فى الوقت نفسه، فكثير من البلاد العربية تقع فى إفريقيا، مثل مصر والسودان والصومال وموريتانيا وليبيا وتونس والجزائر والمغرب. فكل هذه دول إفريقية وعربية فى الوقت نفسه، والقضية الفلسطينية تهم هذه الدول فى المقام الأول، فكيف يمكن أن يقال فى المؤتمر إن موضوع فلسطين موضوع لا يهم إفريقيا؟؟ وصفّق الحاضرون دلالةِ على إقرار ما قلت، وأدرج موضوع فلسطين ضمن موضوعات المؤتمر.. وواصلتُ إدارة الجلسة بنجاح أحمد الله عليه، بعد أن كنت على وشك الإخفاق الذى سببته لى لحظة «سرَحَان» لم أقصده بطبيعة الحال..

(٣)

لقد توليت الوزارة لمدة سنتين تقريبا، سنة منهما ـ أو أكثر قليلا ـ فى عهد الدكتور على لطفى (من الخامس من شهر سبتمبر سنة ٨٥، إلى العاشر من شهر سبتمبر سنة ٨٦) ثم سنة ثانية ـ أو أقل قليلا ـ فى وزارة الدكتور عاطف صدقى الأولى (من الحادى عشر من سبتمبر سنة ٨٦، إلى الثانى عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٨٧.

□□□

وأذكر أنه أثناء مشاورات سيادته لتأليف هذه الوزارة، طلبنى ـ ضمن من طلب من المرشحين للوزارة ـ وعرض علىّ أن أكون وزيرا للأوقاف، فاعتذرت عن عدم استطاعتى قبول هذه الوزارة لأنها فى رأيى حق للإخوة من علماء الأزهر الأجلاء، ولأنى سوف أكون فيها غريبا عنهم، وأكاد أكون مستوليا على حق من حقوقهم.. وقد ألح سيادته علىّ لأقبل العرض الذى عرضه، ولكنى أصررت على الاعتذار.. وانصرفت إلى منزلى دون أن تسند إلى أية وزارة.. ولكن بعد وصولى إلى منزلى بقليل، طلبنى السيد رئيس الجمهورية مشكورا، وأكد لى ـ عبر الهاتف ـ أننى باقٍ فى وزارة الثقافة. فشكرت سيادته وقبلت سعيدا عرضه الكريم، واعتززت باستمرار ثقته الغالية وتقديره العظيم.. وذهبت صباح اليوم التالى لأداء اليمين الدستورية مع بقية

أعضاء الوزارة وكررت الشكر لسيادة الرئيس الذى أضاف إلى أفضاله علىّ فضلا جديدا أعتز به وما زلت أحمده عليه..

واستأنفت عملى فى الوزارة باذلا كل ما أستطيع من أجل النهوض بروافد الثقافة وأجهزتها، فى إطار الرسالة التى أومن بها والغاية التى أسعى إلى تحقيقها، وهى العمل على ترقية فكر الشريحة العريضة من المواطنين والسمو بوجدانهم، من أجل أن يكونوا مواطنين صالحين، أصحاب رؤية صائبة للأمور، وحكم صحيح على الأشياء، وأصحاب انتماء شديد للوطن الذى يعرفون تاريخه وحضارته ويعتزون بقيمه وقيمته..

□□□

ثم جاء الختام.. فقد تقدمتْ وزارة الدكتور عاطف صدقى باستقالتها بعد نحو عام من تأليفها، وذلك وفق التقاليد التى تفرض أن يتقدم رئيس الوزارة باستقالته بعد انتخاب رئيس الجمهورية لفترة جديدة.. ولم أكن ضمن الوزراء الذين شمُلهم التشكيل الوزارى الجديد.. ولعل السبب هو أن القيادة السياسية قد رأت دفع العمل أكثر فى وزارة الثقافة، وللقيادة كل الحق فيما ترى. أو لعل الدكتور عاطف صدقى قد رأى غيرى أقدر منى، وله كذلك كل الحق فى اختيار من يراه أفضل.. أو لعل بعض مواقفى وآرائى لم تكن تلْقَى قبولا بالقدر الذى يحسن معه استمرارى فى موقعى.. ومهما كان السبب، فقد أعفيت من الوزارة. وأُشهد الله أنى لم أغضب ولم أحزن لهذا الإعفاء، لأنى أعرف أن من طبيعة الأمور أن يخرج وزير ويأتى وزير آخر، وأنه لا بقاء لوزير فى منصبه مهما طال شغله للمنصب، وقد وصطدتُ نفسى على ذلك من أول يوم توليت فيه الوزارة .. ولكنى تأثرت لشئ آخر قد حدث ـ فيما أعتقد ـ دون قصد. وذلك أن العاملين بمكتب رئيس الوزارء استدعونى لمقابلة الدكتور عاطف صدقى أثناء مشاوراته لتشكيل وزارته الثانية، فذهبت معتقدا ـ بطبيعة الحال ـ أنى قد استدعيتُ لإسناد وزارة الثقافة من جديد إلىّ، وجلستُ مع بقية

المرشحين للوزارة الجديدة فى الحجرة المجاورة لمكتب الدكتور عاطف. وأخذ الزملاء يدخلون على سيادته واحدا تلو الآخر، ليؤكد لهم بقاءهم فى وزارتهم أو شغلهم لوزارات أخرى.. وحين جاء دورى ودخلت على سيادته، أخبرنى بلطف شديد أسفه لأنه حدث تغيير يجعل وزارة الثقافة تسند إلى وزير جديد، وأكد لى أنه يرى نفسه فى موقف صعب ولحظة حرجة، فشكرته بعد أن شكرنى على ما قدمت للوزارة. وانصرفت مودّعا بمودة ورقة ولطف من رئيس الوزراء.. وإنما حزنت لهذه المقابلة ولم أحزن ولم أغضب لخروجى من الوزارة. لأن تلك المقابلة قد تمت فى وقت تتم فيه مقابلة الوزراء الباقين لا الوزراء الخارجين، فكان الأمر مفاجأة بالنسبة إلىّ، كما كان محرجا لى أمام الصحفيين المنتظرين خارج مكتب الدكتور عاطف، والذين يسألون كل خارج من مكتبه عن الوزارة التى أسندت إليه، وبطبيعة الحال كان ردى على سؤالهم أنى لم تسند إلىّ أية وزارة، وأنى أعفيت من كل تكليف.. وكان الحرج أكبر حين عدت إلى منزلى وسألنى أفراد أسرتى بلهفة عن الوزارة التى توليتها، فأخبرتهم بأمر خروجى، فحزنوا لبعض الوقت، ثم راحوا يعبّرون لى عن ارتياحهم لراحتى من العناء، وعودتى من جديد إلى حياتى العادية العلمية والأدبية والأسرية.. ومهما يكن من أمر، فإننى أعتقد أنه قد حدث خطأ ما من الذين استدعونى للقاء الدكتور عاطف صدقى فى ذاك الوقت الذى يتم فيه تشكيل الوزارة الجديدة. وقد أخبرنى سيادته بذلك فى اليوم التالى عبر محادثة تليفونية، مبديا أسفه لما حدث لى من إحراج، وكان معه ساعة هذه المحادثة الصديق الدكتور يحيى الجمل، الذى شارك فى المحادثة مؤكدا ما قاله الدكتور عاطف وعارضا علىّ أن يقوما معا بزيارتى فى منزلى لتأكيد ترضيتى.

□□□

وقد زارنى بعد ذلك صديقى الدكتور عاطف عبيد، وأخبرنى أنه موفد ليسألنى عما إذا كنت احتاج إلى أى شئ أو تيسير أى إجراء، فشكرته ورجوته أن ينقل شكرى وتحياتى لكل من شغل نفسه بأمرى أو فكر فى راحتى أو ترضيتى..

وتوالت زيارات عدد غير قليل من الأصدقاء، منهم الوزراء والجامعيون والكتاب والعلماء، كما تتابعت مكالمات مَنْ لم يستطيعوا الحضور إلى بيتى، وكانوا يبدون تقديرهم ويسألون الله لى التوفيق والتسديد فيما أستقبله من عهد جديد..

□□□

وأحمد الله أن عددا غير قليل من الأدباء والكتاب قد كتب عنى محييا ومقدرا عقب إعفائى من الوزارة، ومنهم من لم أشرف من قبل بصداقته، أو تكون لى أية صلة سابقة به.. وممن أسعدونى كثيرا بكتاباتهم عنى: الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى والأستاذ أحمد بهاء الدين والدكتور يوسف إدريس والأستاذ رجاء النقاش والأستاذ سيد الغضبان والأستاذ موسى صبرى والأستاذ صبرى أبو المجد والأستاذ مدحت عاصم والأستاذ يوسف فرنسيس والأستاذ مفيد فوزى.. وقد تأثرت كثيرا بما كتبه الأستاذ الفاضل محسن محمد، فقد كتب عنى مثنيا ومقدرا دون أن يكون لى حتى شرف لقائه من قبل. وبعدها صار من أقرب الأصدقاء إلى قلبى وأعزهم على نفسى.

□□□

على أن أعظم تكريم لقيته بعد خروجى من الوزارة، كان من السيد الرئيس حسنى مبارك، الذى تفضل بمنحى وسام الجمهورية من الطبقة الأولى. وقد سلمنى سيادته الوسام فى حفل كبير أقيم للوزراء الأربعة الذين لم يشملهم التشكيل الوزارى الجديد، ومنحهم السيد الرئيس جميعا وسام الجمهورية.. والثلاثة الآخرون هم:

المستشار ممدوح عطية الذى كان وزير العدل، والدكتور سيد على السيد الذى كان وزير شئون مجلس الشعب والشورى، والأستاذ عدلى عبدالشهيد الذى كان وزير الهجرة والعاملين بالخارج.. وكان الحفل فى نادى القوات المسلحة بمصر الجديدة، وحضره رئيس الوزراء وأعضاء الوزارة الجديدة ونخبة من رجال السياسة والأحزاب.

وهكذا أسدَى إلىّ السيد الرئيس هذا التكريم العظيم، الذى توج به ما قدمه إلىّ من قبل من ألوان التكريم، فقد اختارنى من قبل لأكون على قائمة المرشحين لمجلس

الشعب عن محافظة الجيزة، ثم اختارني وزيرا للثقافة، وأثناء الوزارة اختارني للمرة الثانية لعضوية مجلس الشعب لمحافظة الجيزة في فصل تشريعي جديد. وبعد خروجي من الوزارة اختارني عضوا للمرة الثالثة في مجلس الشعب في فصل تشريعي ثالث، وكانت هذه العضوية في تلك المرة بالتعيين، حيث اختارني سيادته ضمن عشرة الأعضاء الذين يعطيه الدستور حق اختيارهم أعضاء معينين..

□□□

وبعد خروجي من الوزارة بأيام تم تعيين مجلس جامعة القاهرة لي أستاذاً متفرغا بكليتي «دار العلوم»، فعدت سعيدا إلى حياتي الأكاديمية العزيزة، وإلى أسرتي «الدرعمية» الحبيبة، التي غمرتني بشعور كريم وأسعدتني بترحيب أخوي حميم..

وواصلتُ ـ إلى جانب عملي الأكاديمي ـ مشاركتي في العمل البرلماني. وظللتُ أؤدي واجبي عضوا في مجلس الشعب إلى أن انتهت مدة الفصل التشريعي الذي كنت فيه عضوا معينا، وكان انتهاء هذه المدة في صيف ١٩٩٥ م.. وبهذا أكملت نحو إحدى عشرة سنة عضوا بالمجلس الموقّر.. وقد توليت بالمجلس رياسة لجنة التعليم حتى تم اختياري وزيرا.. وبعد خروجي من الوزارة كنت بالمجلس عضوا بلجنة القيم، وعضوا بلجنة الرد على بيان الحكومة، ثم كنت في آخر مجلس رئيسا لتحرير مجلته، واستمرت هذه الرياسة خمس سنوات.

□□□

ولا أنسى أن أذكر أنني عملتُ قاضيا في فترة من تلك المرحلة. فقد اختارني المجلس الأعلى للهيئات القضائية عضوا في محكمة القيم العليا، وذلك بعد حل مجلس الشعب الذي كنت عضوا فيه للمرة الثانية.. وحضرتُ عددا من الجلسات بدار القضاء العالي، وشاركتُ في هذا العمل القضائي الرفيع، مع عدد من كبار المستشارين الموقّرين، وبعض الشخصيات العامة المرموقة، مثل الدكتور محمود محفوظ. ولكن حين تم اختياري من جديد عضوا في مجلس الشعب بالتعيين، لم

يكن من الممكن ـ دستوريا ـ أن أظل عضوا فى السلطة القضائية وعضوا فى السلطة التشريعية، فقدّمتُ استقالتى من عضوية محكمة القيم العليا، ومضيت أمارس عملى فى مجلس الشعب وفى كلية دار العلوم.. وأثناء عضويتى الثانية فى المجلس الموقر، سافرت إلى تركيا لتمثيل المجلس فى مؤتمر برلمانى، وكانت هذه الزيارة بعد تركى للوزارة وهى الزيارة الثانية لتلك البلاد العزيزة الجميلة.

ثم سافرتُ إلى إسبانيا مرتين أثناء عضويتى الثالثة بمجلس الشعب، وكنت فى المرة الأولى ضمن وفد من المجلس قد اختير للاشتراك فى مؤتمر برلمانى لدول البحر المتوسط قد عُقد فى مدينة «مرسية» . وأما المرة االثانية فكنت ضمن وفد برلمانى قد اختير للمشاركة فى مؤتمر عالمى قد عقد فى «مدريد» بعد انتخاب الدكتور فتحى سرور رئيسا للاتحاد البرلمانى الدولى.

□□□

كذلك سافرت إلى السعودية أثناء عضويتى الثالثة بمجلس الشعب، وكنت فى تلك الزيارة ضمن وفد برلمانى قد أوفد لزيارة الجرحى من العسكريين المصريين، الذين شاركوا فى تحرير الكويت .. وقد سعدت أثناء الرحلة بعمل عمرة أسعدتنى كثيراً، وغسلت عن قلبى كثيراً من الهموم،كما سعدتُ بزيارة مثوَى الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم..

□□□

وقد أفدتُ تجارب وخبرات كثيرة من عملى وزيراً، كما أفدت كذلك تجارب وخبرات قيمة من عملى عضواً بمجلس الشعب. وكذلك أفدت تجربة وخبرة جديدة من عملى عضواً فى محكمة القيم العليا .. وكل هذه التجارب والخبرات أضيفت إلى رصيدى من التجارب والخبرات الأكاديمية والأدبية والحياتية بشكل عام..

ومن أهم ما خرجتُ به من المكاسب المعنوية من خلال عملى وزيراً ونائباً وقاضياً، أنى ربحت أصدقاء وزملاء أعتز بهم وأحرص عليهم ، ومنهم وزراء

ومحافظون وتشريعيون ورجال قضاء، ومنهم علماء وكتاب وفنانون وأدباء .. وقد أضاف هؤلاء إلى رصيدى من أصدقائى الجامعيين والمثقفين، رصيداً جديدا أعتز به كل الاعتزاز وأحرص عليه غاية الحرص ..

□□□

بل إننى ظفرتُ بالتعرف على عدد من المسئولين الكبار من خارج مصر، مثل الرئيس شيراك، الذى حضر إلى مصر هو وزوجته لمشاهدة «أوبرا عايدة» أثناء عرضها جوار أبى الهول، وكان وقتها رئيساً لوزراء فرنسا، وكنت أنا وزوجتى فى استقباله هووزوجته وفى صحبتهما أثناء العرض، .. وكذلك ظفرتُ بالتعرف على رئيس «أورجواى»، الذى كنت رئيس بعثة الشرف التى صحبتْه أثناء زيارته لمصر.. وممن سعدتُ بصحبتهم رئيس وزراء إسبانيا «فيليب جونثالث»، الذى كنت كذلك رئيساً لبعثة الشرف التى صحبتْه أثناء مقامه فى بلدنا المضياف، وأثناء زيارته لبعض المعالم السياحية فى سيناء والصعيد ..

وقد نلتُ تكريماً من بعض الدول الأجنبية، فمنحنى رئيس الأرجنتين ـ بعد خروجى من الوزارة ـ وسام «سان مارتين»، الذى منحه كذلك للدكتور يوسف والى، وقلّده لنا سفير الأرجنتين بالقاهرة فى حفل أقامه بالسفارة الأرجنتينية..

«والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله»..



الفهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ٤٧٦٨/١٩٩٧

I.S.B.N 977-01-5169-6

لا أحاول فى هذه الفصول أن أسجل تاريخا، فليست لدى وثائق أسجل منها هذا التاريخ..

كما لا أحاول أن أقص سيرة ذاتية تبهر القراء بحديث عن بطل متميز أو واحد من العظماء، فلست أرى فى ذاتى بطولة، ولا أدعى لشخصى تميزاً عن أبناء طبقتى البسطاء... وكل ما أحاوله فى هذا العمل، هو أن أستعيد ما بقى من مواقف وصور رسمتها على صفحات العمر السنوات. وأن أسجل - بكل الصدق - تلك المواقف والصور والذكريات. فلعل فى تسجيلها ما يقدم تجربة واحد من جيل سابق، يمكن أن ينتفع بها آخرون من جيل لاحق...

الغلاف للفنان جمال قطب